الجمهوريـــــة الجزائريـــــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة
وزارة التعليـم العالـــي و البحـــث العلمـــي
جامعـــة باتنة1 الحاج لخضر
كليـــة اللغة والأدب العربي والفنون
قسم اللغة والأدب العربي

النثر الجزائري في العهد العثماني،

الرسائل والكرامات أنموذجا

أطروحة مقدمـة لنيـل درجـة دكتوراه ل م د في الأدب العربي

إعـداد الطالب :
بيوض فائز

إشـراف الأستاذ الدكتـــور:
جمال سعادنه

لجنـــة المناقشـــة

الإســـم واللقـــب	الرتبـــة	الجامعـــة	الصفـــة
الســـعيد لـــراوي	أستاذ التعليـم العالـي	جامعـــة باتنـــة 1	رئيـــسا
جمـــال ســـعادنه	أستـاذ التعليـم العالـي	جامعـــة باتنـــة 1	مشـرفـا و مقـــررا
زهيـــرة بنينـــي	أستـــاذ محاضـــر	جامعـــة باتنـــة 1	عـضـــوا منـــاقشا
عبد المالك مغشيش	أســـتاذ محاضـــر	جامعـــة خنشـــلة	عـضـــوا منـــاقشا
بلقاســـم رحمـــون	أســـتاذ محاضـــر	جامعـــة تبســـة	عـضـــوا منـــاقشا
عمـــار بـــن لقريشـــي	أســتاذ التعلـيم العـالي	جامعـــة المســـيلة	عـضـــوا منـــاقشا

السنـــة الجامعيـــة:
1439- 1440هـ /2018 – 2019م

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

التوبة 105

صدق الله العظيم

مقدمة

مقدمة:

لا شك أن حظوة الأدب الجزائري الحديث من حيث النشر والدراسة، والحضور في فضاءات الثقافة والنقد داخل الوطن وخارجه، لا يمكن قياسها، بما طال عموم الأدب الجزائري القديم من قلة اهتمام وتجاهل –وبخاصة النثر منه– الذي لم يلق في تقديري ما يستحقه من الرعاية والاهتمام الكافيين، مع أن الفنون النثرية في عمومها لها من الأدبية ما يغري دارسي الأدب ويحفزهم على الدراسة، كما لها من الواقعية ما يجعلها تعكس الواقع الحضاري العام في تمظهراته الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، لتقدم في نهاية المطاف صورة العصر بظروفه وملابسات أحداثه وكل ما يتعلق بحيثيات السياق التاريخي للمنجز الثقافي والأدبي.

ومن هذا المنطلق تشكلت لدي رغبة البحث في الأدب الجزائري القديم، فارتأيت حصر الدراسة في كل من فن الرسائل وقصص الكرامات، وفي الفترة العثمانية تحديدا، بوصفها حلقة الوصل بين تراثنا الأدبي القديم والحديث، فكان مشروع بحثي موسوما بـ:

النثر الجزائري في العهد العثماني، الرسائل والكرامات أنموذجا.

فأهمية هذا الموضوع تتمثل في المتن النثري بشكليه، وعلاقتهما بالواقع في تلك الفترة التاريخية التي تعد هي الأخرى قيمة مضافة تصنع أهمية هذا الموضوع الذي يروم تحقيق جملة من الأهداف أهمها:

01– التعريف بالحركة الأدبية عموما، وبالنثر الأدبي على وجه الخصوص في هذه الفترة من تاريخ الجزائر.

02– الوقوف على نوعية الأدب الموجود في هذه الفترة.

02- الإسهام في تحقيق الوصل بين المراحل التاريخية التي مر بها النثر الأدبي في الجزائر تأكيدا لأصالة وتجذر الإبداع الأدبي في وطننا من جهة، وحرصا من جهة أخرى على دراسة نثر هذه الفترة، بما يمكن غيري من الباحثين على اعتمادها كحلقة من حلقات الوصل التي تساعد على رصد ومتابعة سيرورة الحركة النثرية قبل هذه الفترة وبعدها.

03- التعريف بأدباء الجزائر في الفترة العثمانية، وما سببه من طمس لكل ما له صلة بهوية الجزائر وثقافتها، فكان من الطبيعي أن تكون الفترة العثمانية أكثر استهدافا باعتبارها الفترة التي سبقت مباشرة فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

04- مظاهر النثر الجزائري من الناحية الفنية، ومن ناحية الموضوعات بالشكل الذي يعبر عن مدى تفاعله آنئذ مع الواقع الجزائري بخصوصياته الاجتماعية والسياسية والثقافية...

05- بالقدر الذي نبحث فيه عن الخصائص الفنية والموضوعاتية التي تصنع الملمح العام للنثر الجزائري، فإنه لا بد من الحرص على إبراز حالات التفرد التي تميز كاتبا ما عن غيره من الكتاب في هذه الفترة من تاريخ الأدب الجزائري.

دواعي اختيار الموضوع:

01 . إفراد دراسة مستقلة للنثر الجزائري- الرسائل والكرامات - في العهد العثماني لما يتميز به من كثافة في المتن، وثراء في المضامين، وتميز في الخصائص الفنية.

02 . يعد المتن النثري مادة توثيقية، يمكن من خلالها التعرف على تلك الفترة من تاريخ الجزائر وما تميزت به على كل الأصعدة.

03 . التأكيد على أصالة الأدب العربي في هذا القطر، ومن ثم ما تعرض له من انتكاسات في مرحلة تاريخية لاحقة كانت بسبب الاحتلال الفرنسي.

04 . الإسهام في بعث التراث الأدبي الجزائري، ووضعه في سياقه التاريخي بالشكل الذي يضمن له الدراسة العلمية الموضوعية، التي تجنبه التعسف في إصدار الأحكام النقدية، التي لا تراعي خصوصية المرحلة التاريخية التي نشأ النص الأدبي في خضمها.

05 . قلة الدراسات الأدبية والنقدية التي تناولت الأدب الجزائري القديم والفترة العثمانية على وجه الخصوص بالبحث الأكاديمي رغم ما لأدب هذه الفترة من قيمة فنية وحضارية.

الدراسات السابقة:

الحديث عن قلة الدراسات الأكاديمية التي تناولت الأدب الجزائري في الفترة العثمانية لا يعني تجاهل بعض الدراسات القليلة التي تم إنجازها وأذكر من ذلك:

- الشعر الجزائري في العهد العثماني، موضوعاته وخصائصه الفنية، من إعداد الباحث "جمال سعادنه".

- الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، من إعداد الباحثة "فاطمة دخية".

- الشعر الصوفي في الجزائر في العهد العثماني دراسة موضوعية فنية من إعداد الباحث "مختار حبار".

ويضاف إلى ذلك ما نجده في كتب التاريخ من إشارات عامة إلى أدب هذه الفترة في الجزائر، كما هو الحال في تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن الجيلالي، وتاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله ... وفي كل الأحوال وانطلاقا مما توفر بين يدي من دراسات، فإن الإضافة التي أود تقديمها لأدب الجزائر في الفترة العثمانية هو أن أفرد دراسة علمية مستقلة لمقاربة نصية للأشكال النثرية الجزائرية على العهد العثماني في موضوعاتها، وخصائصها الفنية.

إشكالية الدراسة:

تركز إشكالية هذه الدراسة على تساؤل محوري يتعلق بواقع النص الأدبي النثري في الجزائر العثمانية، فكثيرا ما قيل عن هذه الفترة من تاريخنا بأنها فترة ضعف مس الحياة الثقافية العامة، والأدبية بشكل خاص، ولتبرير هذا التوصيف يتم إشاعة النصوص الأدبية الرديئة، ومقابل ذلك يتم صرف النظر عن النصوص الجيدة، وعليه تروم هذه الدراسة اعتماد التبرير العلمي في إثبات هذا الحكم، أو في تفنيده من خلال الدراسة العلمية الموضوعية لكل من الرسائل وقصص الكرامات، بعيدا عن الأحكام النمطية الجاهزة، لذلك يطرح البحث تساؤلات حول جدل المتخيل والواقعي في قصص الكرامات ومدى توفر عناصر العمل القصصي في النماذج المدروسة، كما يطرح تساؤلات أخرى بشأن الرسالة ومدى أدبيتها.

وتتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات أهمها:

- هل صور النص النثري واقع المجتمع الجزائري في العهد العثماني تصويرا حرفيا يبقيه على حقيقته كما هي، أم أن تصويره كان تصويرا تفاعليا يعيد إنتاج الواقع من منطلق الإحساس والحلم به، ومن ثم تشكيله في الصورة التي يجب أن يكون عليها؟

- ما هي أهم القضايا التي مثلت الاهتمام المركزي الذي تتمحور حوله موضوعات الرسائل وقصص الكرامات آنئذ؟

- وهل للنص النثري الجزائري في تلك الفترة ما يميزه ويمنحه خصوصيته المحلية في أبعادها الفكرية والفنية؟

- هل استطاعت النماذج المنتقاة أن تبرز خصائصها الفنية؟

- أين تكمن أدبية هذه النصوص؟

منهج الدراسة:

تركز هذه الدراسة على المنهج التاريخي، الموضوعاتي الفني الذي يتيح للباحث إمكانية وضع النص في سياقه التاريخي، ومن ثم دراسته وتفسيره وفق المعطى التاريخي بكل ظروفه، وملابساته السياسية والاجتماعية والثقافية، التي وُلِدَ النص الأدبي في خضمها، وإذ أعتمد المنهج التاريخي فإنه لا مناص من اعتماد آلية التحليل والوصف لفهم النص على ضوء الحقائق التاريخية.

خطة الدراسة:

تمثلت خطة الدراسة في تصور أولي انبنى على مقدمة، مدخل، أربعة فصول، وخاتمة.

بعد **مقدمة** أعرض فيها أهمية الموضوع، ودواعي اختياره، والإشكالية التي قام عليها والمنهج المعتمد في مقاربته، و**مدخل** أتطرق فيه إلى الأدب الجزائري في العهد العثماني حاولت في **الفصل الأول** الحديث عن فن الرسالة من حيث الماهية، النشأة والتطور، مرورا بأنواعها خلال الفترة العثمانية بالجزائر ووصولا إلى أهم موضوعاتها سواء تعلق الأمر بالرسائل الديوانية أو الإخوانية .

وفي **الفصل الثاني** درست فن الرسالة من حيث خصائصها الفنية بدءا ببنيتها والتي تتكون من عناصر ثابتة وأخرى متغيرة، وكذا خصائصها الأسلوبية ممثلة في المستوى الصوتي، المستوى المعجمي والتركيبي، إضافة إلى التصوير الفني من خيال وصورة تشبيهية واستعارية وحسية.

أما **الفصل الثالث** فخصصته لتناول واحد من الأشكال النثرية السردية وهو قصص الكرامات من حيث المفهوم وعوامل الظهور، حيث ركزت فيه على أهم الموضوعات التي دارت حولها خلال العهد العثماني بالجزائر، فضلا عن حضور الواقع والمتخيل فيها.

الفصل الرابع والأخير وهو المخصص للجانب التطبيقي فتناولت فيه الخصائص الفنية لقصص الكرامات إبان الفترة العثمانية وركزت فيه عن بنية الكرامة وخصائصها الأسلوبية بدءا بالمستوى الصوتي ومرورا بالمستوى المعجمي والتركيبي وصولا إلى المستوى الدلالي الذي اقتصر على الصورة التشبيهية والاستعارية والحسية بوصفها أكثر الصور تداولا كما أنها الأصل في بناء النصوص الأدبية.

وفي خاتمة البحث سأعرض جملة من النتائج التي أرجو أن تكون إجابة لما طرحه البحث من تساؤلات، ولما كان يرومه من أهداف أفصحت عنها في مستهل البحث وفي مقدمته.

وختاما فلا بد من التنويه إلى أن هذا العمل ما هو إلا جهد بشري ليس بمعزل عن الخطأ ولا عن الغفلة، وما وصولي إلى هذه المرحلة من البحث إلا بتوفيق من الله أولا وقبل كل شيء، ثم بتوجيهات أستاذي المشرف الدكتور **جمال سعادنه** الذي تعهد هذا الجهد بالرعاية والاهتمام الكبيرين، وأزال عن طريقي الكثير من العقبات التي اعترضت البحث، فله مني كل الشكر والامتنان.

مدخل: في الأدب الجزائري على العهد العثماني

أولا: السياق التاريخي للوجود العثماني في الجزائر

ثانيا: الحياة السياسية والثقافية في الجزائر العثمانية

ثالثا: التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني

رابعا: الكرامة والنص العجائبي

خامسا: الرسالة والنص الواقعي المألوف

أولا: السياق التاريخي للوجود العثماني في الجزائر

إن دراسة النثر الجزائري القديم وبالضبط في الفترة العثمانية والتي امتدت على مدار ثلاثة قرون أو يفوت يتطلب منا الوقوف على السياق التاريخي للوجود العثماني في الجزائر، وكذا إلقاء نظرة على الحياة السياسية والثقافية في الجزائر العثمانية، ونستهلها من الحملة الاسبانية الشرسة على الإسلام والعروبة في الأندلس والتي لم تشف غليلهم بل "تاقت أنفسهم للشمال الإفريقي، فأغاروا عليه، فنزلوا بالسواحل الجزائرية واحتلوا المراكز الإستراتيجية كبجاية وجيجل والجزائر وتدلس ومستغانم ووهران وهنين، وكشفت هذه الإغارات على مدى الضعف الذي كان يسري في جسم المملكة الزيانية إذ لم تقوى على طرد العدد الذي داس أرض الوطن وحرمة البلاد، وتأكد الشعب أنه لا بد من أن يقاوم العدد بنفسه عاملا بقول من قال: ما حك جلدك مثل ظفرك"[1].

إن مقاومة الشعب آنذاك للمد الاسباني لم يكن ذا جدوى كبيرة بحكم نقص الخبرة والقيادة والإمكانات المادية منها والبشرية وهذا ما دفع بالشعب الجزائري آنذاك للاستنجاد بمن يخلصهم ويقف إلى صفهم وهو ما كان فلا "فاستنجد حينئذ الشعب الجزائري بالأتراك فبعثوا إليهم برسائلهم وقصائدهم، فلبوا طلبهم وحاربوا العدو حربا مريرة بجانب الشعب الجزائري الباسل الأبي حتى أرغموه على أن يعرض الصلح على الجزائر، فأبرم في عام 1785، وشرعت اسبانيا في الجلاء يوم 17 كانون الأول 1791 وتم الجلاء النهائي في شهر آذار 1792م رمضان 1206هـ"[2].

وبفضل هذه المساعدة الكبيرة التي قدمها الأتراك للجزائريين استطاعوا تطهير بلادهم من الإسبان وكانت النتيجة أن وقعوا تحت السيطرة التركية هذه الفترة الزمنية والتي امتدت

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 1981، ص 271.
[2] المرجع نفسه، ص 271.

من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري (16-20م) لها ما لها من محاسن وعليها ما عليها من مساوئ.

فهذا أحمد توفيق المدني يصف المرحلة بقوله: "...حين نقول إن عصر الحكم العثماني بهذه البلاد قد ظلم وامتهن، لا نريد بذلك أن نقول: إنه كان خير حكم لها، ولا نريد أن نقول إنه كان عصر مدنية، ورفاهية، وعدل يفوق أو يضاهي عصور أخرى، كلا ! فهيهات لعصر الحكم التركي أن يقارب من حيث ازدهار المدنية، واتساع أسواق العلم والأدب شأو العصر الرستمي أو العصر الحمادي، أو العصر الزياني مثلا"[1].

كما وجب أن نشير إلى أن شعوب المغرب الإسلامي كانت تكن من الاحترام للعثمانيين الشيء الكثير رغم ما صدر في الفترة الأخيرة من تصرفات سيئة كالظلم والقسوة التي تعرض لها الشعب الجزائري من طرف بعض الولاة، وهذا الأمر يعد عاديا بالنظر إلى تاريخ كل منطقة تعاقبت عليها مجموعة من الحكام كلٌ بعقلية تختلف عن الآخر.

غير أن الأمر الإيجابي والذي وجب علينا أيضا أن ننوه إليه هو أن الجزائر قد توحدت إبان الحكم العثماني وتمتعت بالحماية ضد المسيحية كما أن هذه الفترة تشكل حسب ناصر سعيدوني "حلقة الوصل بين العصور الإسلامية والفترة المعاصرة من تاريخ الجزائر"[2].

وعليه فإن السيطرة التركية للجزائر ساعدتها من خلال خضوعها لسلطة مركزية موحدة أن تتمتع بقوة ضد الحملات الإسبانية وأن تضمن بقدر كبير حق الاستقلال، "فالمجتمع الجزائري قد أنهكته المحن التي ألمت به من فتن وثورات في عصر الزيانيين ومن غارات إسبانية فيما بعد ذلك، فلم يتنفس الشعب الصعداء حتى أنهى على السلطة الزيانية

[1] أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، داي الجزائر 1766م-1791م، سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1986، ص 08.

[2] سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص 101.

وأجلى الإسبان عن أرض الوطن إجلاء نهائيا، فصفا الجو ووقع ولاسيما في الحكم التركي كان له الأثر الحسن في الميدانين الاجتماعي والاقتصادي فأمكن الشعب أن يتنفس ويسترجع ما فقده من رفاهية"[1].

كانت هذه إطلالة على حقيقة الوجود العثماني في الجزائر في سياقه التاريخي الذي وجب أن نشير إليها قبل أن نتطرق إلى ما يهمنا في بحثنا هذا وبالضبط في هذا المدخل ألا وهو النثر الجزائري ممثلا في كل من فن الرسائل وأخبار الكرامات إبان العهد العثماني، ولكن قبل هذا أيضا وجب أن نتطرق إلى الحياة السياسية والثقافية في الجزائر العثمانية.

ثانيا: الحياة السياسية والثقافية في الجزائر العثمانية

فسياسيا تطورت الأحداث ما بين (1515-1830م) وأسفرت عن تقسيم العصور منذ بداية التقسيم الإداري للأتراك في الجزائر إلى أربعة وهي:

1- عصر البايرلبايات: "ودام تسعة وستون سنة من (1518م إلى 1587م) فكان العصر الذهبي للوجود العثماني العسكري.

2- عصر الباشاوات (ذوي الثلاث سنوات): ودام اثني وسبعون سنة من (1587-1659) فكان عصر المصلحة الشخصية للباشاوات باعتبارهم معينين من طرف السلطان العثماني لفترة محدودة"[2].

وقد تميز هذان العصران بالطول في المدة بالمقارنة مع:

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 272.

[2] درقاوي منصوري، الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنيين (10هـ-13هـ/16م-19م) بين التأثير والتأثر، مخطوط مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران، 2015م، ص 06.

3- عصر الأغاوات: "ودام اثني عشر عاما من (1659-1671م) وخلال هذه المرحلة كثرت التحرشات والمكائد بين ضباط وقادة الجيش الجزائري من أجل الحصول على هذه المرتبة أو غيرها من الامتيازات والمناصب الحكومية...ولهذا السبب عرفت هذه المرحلة انتشار الرشوة والفساد والاغتيالات السياسية"[1].

أما آخر العصور التركية في الجزائر فقد كان أطولها مدة وتمثل في:

4- عصر الدايات: "ودام مئة وتسعة وخمسون سنة من (1671م- 1830م) إن العصرين السابقين من الوجود العثماني تميزا بالاضطراب في الوقت الذي نجد حكومتي تونس والمغرب تتمتعان بالاستقرار التام في الداخل... ويرجع ابن ميمون أسباب هذه الاضطرابات إلى سوء معاملة الحكام للرعية وإغفالهم لشؤونهم الضرورية وانشغالهم بالركض وراء السلطة وحب الانفراد بالرئاسة واتهامهم بالكراسي والعروش، قد أدى ذلك بهم لقتل جلهم في المناصب"[2].

هذا ما تعلق بالعهود التي مر بها الحكم العثماني في الجزائر في شقه السياسي "أما الموظفون الذين كانوا يديرون أعمال الأيالة فهم على طبقيتين: الطبقة الأولى تضمن الداي والموظفين وهم:

1- الخزناجي: وهو المختص بالإشراف على الخزينة وإيداع مصادر دخل الدولة بشكل نقود ومقتنيات ثمينة، يساعده كاتب الدولة وأمين السكة، فضلا عن أجيرين من اليهود أحدهما

[1] المرجع نفسه، ص 06.

[2] المرجع نفسه، ص 07.

يدعى العيار للتحقق من النقود المشكوك فيها، والثاني الوازن لوزن أنواع النقود التي يتسلمها"[1].

إضافة إلى الخزناجي هذا الاسم الذي لا يزال متداولا إلى يومنا هذا عندما يعرف بقباضة الضرائب المتواجدة على مستوى كل الدوائر في الجزائر، هناك أيضا:

2- بيت المالجي: "وهو المشرف على مصلحة الأملاك وصيانة المقابر، والثروات التي تؤول إلى الدولة بعد موت أصحابها أو استبعادهم أو فقدانهم أو في حالة عدم وجود ورثة شرعيين لهم، يعاونه في تلك المهمة قاض يعرف باسم الوكيل وكاتبان يعرفان باسم العدول"[2].

3- خوجة الخيل: "وهو الموظف الذي يدير أملاك البايلك ويشرف على مواشي الدولة التي يقدمها الأهالي كضرائب عينية تفرض عليهم، كذلك يقوم بالإشراف على تجنيد الفرسان المتعاونين مع السلطة المركزية"[3].

إضافة إلى ما سبق نجد أيضا من موظفي الطبقة الأولى كلا من:

4- وكيل الحرج: "الموظف المسؤول عن مراقبة النشاط البحري وأعمال الترسانة وتوزيع الغنائم.

---

[1] مؤيد محمود حمد المشهداني، سلوان رشيد رمضان، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، م5، ع16، جامعة تكرت، 2013، ص 419.

[2] محمود إحسان الهندي، الحوليات الجزائرية تاريخ المؤسسات في الجزائر من العهد العثماني إلى عهد الثورة فالاستقلال، دمشق، العربي للإعلان والنشر والطباعة والتوزيع، 1977، ص 51-52. نقلا عن: مؤيد محمود حمد المشهداني، سلوان رشيد رمضان، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، م5، ع16، جامعة تكرت، 2013، ص 420

[3] مؤيد محمود حمد المشهداني، سلوان رشيد رمضان، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، م5، ع16، جامعة تكرت، 2013، ص 420.

5- آغا العرب: قائد فرقة الانكشارية وفرسان المخزن الصبائحية المعسكرين خارج مدينة الجزائر وهو من يقوم بمراقبة دار السلطان وملحقاته، وكذلك السهول المعروفة بوفرة إنتاجها الزراعي، والحيواني الذي تعتمد عليه الجزائر"[1].

كان هذا كل ما يتعلق بالموظفين المحسوبين على الطبقة الأولى والتي تعتبر أهم طبقة في الحكم العثماني سياسيا ذلك أنها تحتوي على الموظفين الأكثر كفاءة وخبرة لتسيير شؤون الدولة آنذاك.

أما بالنسبة لموظفين الطبقة الثانية فقد اشتملت على المساعدين مثل: كتاب الدولة وموظفي الخدمات الاقتصادية والاجتماعية ورجال حفظ الأمن والإشراف على تطبيق القوانين والأحكام المعمول بها، وممن يقومون بالإشراف على الديوان المحلي لكل من بايلك الأقاليم الشرق والغرب والتيتري"[2].

هذا من الناحية السياسية للحياة العثمانية بالجزائر، أما ثقافيا فمما لاشك فيه أن قيمة الحياة الثقافية لأي مجتمع تقاس بعدد المؤلفات ومؤلفيها وكذا بالإنتاج الثقافي لذلك المجتمع، وقد عرفت الفترة العثمانية بالجزائر إنتاجا ثقافيا جيدا رغم أنه حسب أبو القاسم سعد الله لا يضاهي ما أنتج في القرن التاسع أي الفترة التي سبقت مباشرة العهد العثماني فيقول: "ويعتبر إنتاج القرن التاسع رغم ذلك، من أوفر إنتاج الجزائر الثقافي ومن أخصب عهودها بأسماء المثقفين (العلماء) والمؤلفات، وفي إحصاء سريع أجريته لأسماء العلماء المنتجين خلال القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر وجدت أن عددهم في القرن التاسع يفوق أعدادهم في القرون الباقية متفرقة"[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص 420.

[2] المرجع نفسه، ص 430.

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، ط1،1998، ص 39.

ولعل هذا من الأسباب الرئيسية التي دفعتنا إلى أن نخصص مدخلا كاملا للأدب الجزائري على العهد العثماني ونركز فيه عن الحياة الأدبية والفنية أو الثقافية بصفة عامة.

"لقد قيل الكثير عن موقف الترك من الثقافة سواء في بلادهم أناضوليا أو في البلاد التي دخلت تحت طاعتهم كالجزائر، وأقصى ما اتهم به الترك حب المال والبربرية والجهل والاهتمام بالأمور العسكرية دون المدنية ونحو ذلك من الاتهامات التي تجردهم جملة وتفصيلا من الحضارة والثقافة، ونحن هنا لا نريد أن نعمق هذا الاتهام ولا أن ندافع عن الترك. وكل ما نريده هو الوصول إلى معرفة الموقف الحقيقي للعثمانيين في الجزائر من الثقافة والعلم والدين ومتطلباته"[1].

إذن هل نستطيع القول فعلا إن الثقافة إبان الفترة العثمانية لم تلق اهتماما كافيا من لدن العثمانيين؟ أم أنها مجرد إشاعات يراد من خلالها إيصال فكرة سيئة عن الأدب الجزائري آنذاك وإلصاق كل ما هو سلبي بهذه الفترة خاصة وأنها الفترة التي سبقت مباشرة الدخول الفرنسي للجزائر.

"إن تدهور الثقافة الإسلامية قد بدأ قبل استيلاء العثمانيين على السلطة بقرون كما أن ظهور الطرق الصوفية الذي كان ظاهرة متصلة بتدهور الثقافة، كان قبل توليهم السلطة أيضا، وتكاد المصادر تجمع على أن الثقافة الإسلامية قد أخذت في التدهور منذ عهد المعتصم بينما ظهرت الطرق الصوفية منذ القرن الخامس الهجري"[2].

إذن يتضح لنا أن الفترة العثمانية، لم تكن فال شؤم على الثقافة الجزائرية ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نسلط عليها الضوء وحدها بل جاءت كتراكمات لعصور قبلها وحتى بعدها "لأن حالة التخلف الحقيقية والفعلية التي لازلنا نعيش أثارها وتداعياتها إلى اليوم

[1] المرجع نفسه، ص 185.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، ط1، 1998، ص 185.

هي من وضع وتدبير الفرنسيين، وهذا الحكم فيه من الوضوح، واليقين، والمطابقة للواقع، ما يجعله مسلمة لا تحتاج توثيقا ولا دليلا لإثبات صحته"[1].

ومن خلال ما سبق ندرك أن "الأتراك ليسوا مسؤولين حينئذ على تدهور الثقافة الإسلامية ولا على ظهور التصوف، ولكن التدهور الثقافي والتصوف المنحرف قد أعانا على ظهور الأتراك، كما أن سياسة الأتراك في الحكم قد أعانت بعد ذلك على نشر الصوف الخرافي والانحطاط الثقافي"[2].

ورغم هذا فنحن لا نحاول أن نزكي العهد العثماني ونجعل منه نموذجا أو قدوة لغيره من العصور خاصة ما تعلق بالشق الثقافي للجزائر آنذاك لأن سنن الحياة، والنظم، والأنفس... أثبتت على مر التاريخ أنه لا تخلو تجربة سياسية ولا جهد بشري من محاسن أو مساوئ ومآخذ، وعليه كان الشأن كذلك بالنسبة إلى تجربة العثمانيين في الجزائر، لذلك ترى أن الباحثين الذين دافعوا عن التجربة السياسية العثمانية في الجزائر هم أنفسهم من يوجه لها ما تستحقه من نقد في هذا الجانب أو ذاك، وفي هذه المرحلة أو تلك من مدة الحكم الذي لا يقيم في شكله السياسي فقط، وإنما يقيم أيضا في أدائه الاجتماعي والثقافي والاقتصادي[3].

وبحديثنا عن الحياة الثقافية وجب علينا أن نتطرق إلى تلك المؤسسات التي أظهرت الجانب الثقافي للجزائريين إبان العهد العثماني وسنحاول في تطرق إلى أهمها: وحسب أبو القاسم سعد الله فإنه "لا تكاد المؤسسات الثقافية في العهد العثماني تخرج عن المسجد والمدرسة والزاوية والمكتبة ومعظم هذه المؤسسات كانت للتعليم أكثر مما كانت للثقافة

[1] جمال سعادنة، الشعر الجزائري في العهد العثماني، موضوعاته وخصائصه الفنية، مخطوط أطروحة دكتوراه في الأدب المغربي القديم، جامعة باتنة، كلية الآداب واللغات، الجزائر، 2010-2011، ص 08.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج1، ص 185.

[3] جمال سعادنة، مرجع سابق، ص 09.

بمفهومها اليوم، ولم يكن من بين هذه المؤسسات جامعة أو معهد عالٍ رغم أن بعض المساجد والمدارس والزوايا كانت تبث تعليما في المستوى العالي"[1].

إذن فهذه المؤسسات المذكورة آنفا هي عبارة عن مراكز علمية وثقافية ساهمت بشكل كبير في تلقين مختلف العلوم للشعب الجزائري وفي زرع الوعي وإخراجه من ظلمات الجهل والأمية إلى طريق النور والعلم وتمثلت هذه المراكز في:

أ- الزوايا: لم يقتصر دورها على أداء الشعائر الدينية فحسب وإنما في تعليم القراءة والكتابة، وما ميز تلك الفترة هو تحرر التعليم من سيطرة الحكام العثمانيين"[2].

وعليه تعتبر الزاوية من أهم المراكز التي ساهمت في نشر العلم وتعليم القرآن الكريم ويجب أن نشير إلى أن لفظ زاوية "يراد بها مأوى المتصوفين والفقراء، والمسجد غير الجامع ليس فيه منبر كما جاء في المعجم الوسيط، وقد أطلق هذا اللفظ قديما على موضع بالبصرة كانت به الوقعة بين الحجاج وعبد الرحمات بن الأشعث... وقد ظهرت الزوايا بمغربنا العربي الإسلامي ابتداء من القرن الرابع الهجري... وفي عنوان الغبريني نجد لفظ الزاوية قد ذكر في ترجمته للعلامة أبي الفضل قاسم بن محمد القرشي القرطبي المتوفي سنة (661هـ) ما يؤكد وجودها في ذلك التاريخ في بجاية"[3].

ومن خلال ما سبق ندرك أن للزوايا بالجزائر تاريخ قديم ودور كبير لو يقتصر على تعليم القرآن والعلم فحسب "فهذا النوع من دور العبادة التي هي في الآن نفسه مراكز علمية، نجدها بالإضافة إلى كونها تتكفل بتعليم الطلبة تتكفل أيضا بإطعامهم، وإيوائهم"[4].

---

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 227.

[2] ينظر: جمال سعادنة، ص 14، فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، رسالة دكتوراه في الأدب الجزائري القديم، جامعة بسكرة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، 2014-2015، ص 21.

[3] صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطاتها، دار البصائر، ط2، 2009، ص 204.

[4] جمال سعادنة، الشعر الجزائري في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 17.

إن من أهم الزوايا التي انتشرت انتشارا كبيرا في ربوع الجزائر الزوايا الرحمانية نسبة إلى العالم الجزائري الشيخ محمد بن عبد الرحمان القشوطي الإدريسي الحسن الأزهري المولود "في قرية بوعلاوة من قبيلة آيت إسماعيل-بجبال جرجرة حوالي (1126هـ)"[1].

وقد أدت هذه الزوايا دورا كبيرا لا يمكن إغفاله وتجلى خصوصا في نشر الثقافة الإسلامية، والحفاظ على القرآن يتلى أناء الليل وأطراف النهار، وبالتالي قد حافظت الزوايا الرحمانية على مقومات شخصيتنا العربية الإسلامية طيلة عقود وعقود من الزمن... وهنا لا بد من التذكير بما قام به شيوخ الطريقة الرحمانية ومقدموها ورجال زواياها في مقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر والتصدي لمحاربته بكل الوسائل وفي مقدمتها تعبئة الجماهير وتوعيتها و... وهي حقيقة تاريخية لا ينكرها إلا مكابر أو مغرض"[2].

ب- المساجد: وقع اختيارنا للمساجد كثاني المراكز العلمية والثقافية بعد الزوايا مباشرة لأنهما يشتركان في الكثير من الخصائص ولأنه أيضا "كثيرا ما يختلط على الباحث اسم الجامع والمسجد والزاوية، ذلك أن بعض الجوامع والمساجد كانت تابعة لزوايا معينة، كما أن بعض الزوايا كانت تابعة لجوامع ومساجد معينة، والتداخل ليس في الاسم فقط بل في الوظيفة أيضا... كما أن حجم هذه المؤسسات له دخل في تحديد وظائفها، فالجامع اصطلاحا أكبر حجما من المسجد... غير أن هناك بعض الباحثين يذكرون "المساجد" فقط ثم يفصلون كبيرها وصغيرها"[3].

إذن فرغم تداخل المصطلحات بعضها ببعض إلا أننا نستطيع القول أن لكل من المسجد والجامع والزاوية دور خاص به وإن اشتركوا في الكثير من هذه الأدوار، والسؤال الذي يحتاج منا إلى إجابة هو: عن دور المساجد الحقيقي آنذاك كمركز علمي ثقافي ومدى

[1] صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، مرجع سابق، ص 103.
[2] صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، ص 105.
[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 245.

تأثيره في طلاب العلم، علما أنها كانت منتشرة وبكثرة في أنحاء الجزائر كافة "لكن الحقيقة كما تؤكدها بعض الشهادات لمن عايش وعاين واقع الجزائر العلمي والثقافي في هذه الفترة، تكشف أن وظيفة المساجد ليست على وتيرة واحدة من الفعالية، والإقبال والتأطير، والحال نفسه بالنسبة إلى الزوايا، ويتضح ذلك جليا حين المقارنة بين بعض المناطق النائية وبعض الحواضر المشهورة"[1].

وعليه فهنالك تفاوت في دور المساجد يختلف من منطقة إلى أخرى وتتحكم فيه ظروف مختلفة لأن "بعض الحواضر الكبرى كمدينة الجزائر، وتلمسان وقسنطينة، وبونة... قد قدر لها لأن تحظى بثقافة العصر، وتحافظ على ما يتسر من التراث العلمي والأدبي، لذلك تُرى مساجدها مراكز ومعاهد لطلب العلم"[2]، وعموما فقد "كانت تخصص بعض أموال الأوقاف لبناء المساجد والزوايا والتي لم تكن مخصصة لأداء الشعائر الدينية فقط، بل وظفت تعليم القرآن"[3].

إن انتشار المساجد بهذه الطريقة في كافة أنحاء المعمورة لدليل قاطع على للاهتمام الكبير الذي كان يوليه الشعب الجزائري أثناء الفترة العثمانية لهذا المركز العلمي الديني بدليل أنهم كانوا يطلقون عليها مجموعة من الأسماء ولعل "أغلب المدن الجزائرية اشتملت على (الجامع الكبير) المشهور إما لقدمه أو لسعته، وهناك أيضا اسم (العتيق) وهو القديم الذي بني وسط المدينة وهو بهذا المعنى (شيخ المساجد)، ورغم شهرة الجامع الكبير فهو لم يتطور إلى جامعة علمية كالأزهر أو الزيتونة، أما عن تشييدها فقد كان عملا فرديا من طرف الأغنياء والدولة لم تكن مسؤولة عن ذلك"[4].

---

[1] جمال سعادنه، الشعر الجزائري في العهد العثماني، ص 14.

[2] جمال سعادنه، الشعر الجزائري في العهد العثماني، ص 16.

[3] فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 21.

[4] ينظر: أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 246، 247.

والملاحظ أنه بالرغم من كثرة المساجد ووفرتها إلا أنها لم تحظى بالرعاية التي تليق بها في الكثير من الأحيان بل وصل بها الحد إلى أن اشتكى منها بعض المؤلفين في مؤلفاتهم ذلك أنها أماكن مقدسة تقوم بدور كبير جدا في تعليم القرآن وزرع الوعي داخل أوساط الأفراد.

وقبل أن نحتم هذا العنصر المتعلق بأحد المراكز العلمية وهو المسجد أردنا أن نستعرض أهم الموظفين والوظائف التي شغلوها داخل المسجد "وعلى كل حال فإن أغلب الجوامع كان له من الموظفين الوكيل والخطيب والإمام (وأحيانا يجمع الخطيب الإمامة أيضا) والمدرس والمؤذن والحزاب وبعض القراء"[1].

ج- المدارس: وهي أحد المراكز العلمية التي كانت تؤدي دور التعليم والتثقيف والتوعية كما هو الحال عند المساجد والزوايا غير أنها لم تكن مثلما منتشرة بكثرة وخاصة الجامعات وفي هذا الشأن يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله "الواقع هو أنه لم يكن في الجزائر كلها جامعة واحدة بالمعنى المعارف عليه فقد خلت الجزائر العثمانية من مؤسسة للتعليم العالي، تولد نظم التعليم وتحافظ على مستواه وتعكس نشاط واتجاه العلماء وتحفظ قدرا معينا من أساليب اللغة والذوق الأدبي العام"[2].

وهذا عن المعاهد العليا أما لو جئنا للحديث عن المدارس الابتدائية مثلا فقد "كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف، بل إنها كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النائية، وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس بها وانتشار التعليم وندرة الأمية بين السكان"[3].

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 256.

[2] نفسه، ص 273.

[3] نفسه، ص 274.

وكما كان الحال بالنسبة للمساجد فيما يتعلق ببنائها الذي اعتبرناه عملا فرديا لا دخل للدولة فيه، كان الشأن نفسه عند المدارس والتي كانت «تنشأ على أيدي المحسنين ولم يكن للدولة العثمانية شأن بها سوى تخصيص بعض مناصب لنفر من العلماء»[1].

إن نقص التمويل من طرف الحكام العثمانيين لم يكن عائقا أمام دور المدرسة الابتدائية آنذاك «فهي تثقف وتربي الأطفال على قواعد الإسلام وعلى نمط جماعي محدد، وهي تقوم بتحفيظ القرآن الكريم الذي هو أساس الثقافة الإسلامية»[2].

ومن هنا نلاحظ أن دور المدرسة قد تداخل مع دور كل من الزاوية والمسجد وخاصة ما تعلق بالجانب الديني من تحفيظ للقرآن وتعليمه.

ولم يقتصر الحال بالنسبة للمدارس كمراكز للتعليم على الابتدائيات فقط وإنما هناك أيضا الثانويات فقد "كانت تلمسان عاصمة الدولة الزيانية، قبل مجيء العثمانيين، قد اشتهرت بوفرة المدارس والعلماء رغم تدهورها السياسي كما عرفنا، فبالإضافة إلى المدارس الابتدائية كان بها على الأقل خمس مدارس ثانوية وعالية...، ولم تكن قسنطينة أقل عناية بالمدارس، فقد كانت مدارسها الابتدائية كثيرة على العهد الحفصي وظلت كذلك في العهد العثماني... أما في العاصمة فالأقوال متضاربة حول عدد المدارس الابتدائية والثانوية العالية"[3].

مما هو متفق عليه أن عدد المدارس كان كبيرا أثناء الفترة العثمانية وخاصة المدارس الابتدائية التي انتشرت في كافة ربوع الوطن، إضافة إلى وجود بعض الثانويات التي كانت

[1] سامي يوسف أبو زيد، الأدب العثماني، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2013، ص 57.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 279.

[3] نفسه، ص 274، ص 275-276.

هي الأخرى تؤدي واجبها كمركز للثقافة والتعليم، ولكن الورتلاني* "قد انتقد تدهور هذه المدارس بتدهور الأوقاف محملا ولاة قسنطينة المسؤولية في ذلك، غير أن صالح باي نهض بها وأوقافها وقد كان في قسنطينة على عهدة ثانويتان (سيدي بوقصيعة وسيدي ابن خلوف)، وقد كان عدد المدارس في قسنطينة عند دخول الفرنسيين حوالي تستعين مدرسة، أما التعليم الثانوي والعالي فقد وجدت سبع مدارس"[1].

وللإشارة فإن الاسم الذي كان يطلق على المدرسة والأكثر انتشارا واستعمالا بين الناس هو (المسيد) نسبة إلى المسجد، كما يجب التنبيه إلى أن هذه المدارس المختلفة كانت "تمول بالأوقاف التي كان يحبسها أصحاب النفوس الخيرة التي ترجو الخير وتسعى إلى وهب ربع عقاراتها لبناء المدارس وغيرها من المشاريع التي تدعم التعليم بشتى أشكاله"[2].

د- المكتبات والكتاب: وجود المكتبات والكتب بكثرة في أي مجتمع دليل قاطع على أن ذلك المجتمع مثقف ومحب للمطالعة والعلم، ونقصانها أو ندرتها دليل على العكس تماما، أما عن الكتاب فهو "أكثر مراكز التعليم انتشارا في العهد العثماني، إذ أقبل عليه الناس في مختلف البلدان التي خضعت للحكم العثماني، وقد وصف بأنه عبارة عن حجرة مفروشة بحصر بالية، بجانبها مراحيض، وأزيار مكشوفة، يشرب منها الأطفال، وفيهم الصحيح والمريض، وقد يكون المريض معديا، فأقرع وأبرص وأجرب ومهموم ينشرون العدوى بين الأصحاء

* هو الحسين بن محمد سعيد الورتيلاني، نسبة إلى بني ورتيلان قبيلة قرب بجاية ولد عام 1125هـ/1713م، رحالة متصوف، من مؤلفاته الرحلة الورتيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، قصيدة من ضمن مائة بيت ميمية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وغيرها من المؤلفات، توفي عام 1193هـ-1780 م (ينظر: صلاح العقبي...ص 463-464).

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 275-276.

[2] فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 21.

باختلالهم في الجلوس على الحصر، والشرب من إناء واحد، وكان فقيه الكتاب لا يحسن غير التهجي والقراءة بطرق ملتوية"[1].

هذا عن المحيط العام الذي ميز الكتاب والمعلمين فيها "أما الدروس التي يتلقاها الأطفال فهي مبادئ القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن الكريم كله أو أجزاء منه، وبعض مبادئ الفقه، فإذا ختم الطالب القرآن أقام له ذووه احتفالا، يحضره شيخ الكتاب الذي يتلقى ما تيسر له من مال أو هدايا"[2]، ورغم صعوبة الظروف فقد كان الإقبال على طلب العلم والتعلم أمرا لا شك فيه عند الجزائريين وهو ما يعكس بالضرورة درجة الوعي والثقافة التي وصل إليها الشعب الجزائري إبان الحكم العثماني.

هذا عن الكتاب أما فيما يخص المكتبات فيرى أبو القاسم سعد الله أن "الجزائر خلال العهد العثماني كانت في طليعة البلدان الكثيرة الكتب والمكتبات. وقد شهد على وفرة المكتبات فيها حتى خصوم العثمانيين كالفرنسيين... وكانت الكتب في الجزائر تنتج محليا عن طريق التأليف والنسخ أو تجلب من الخارج ولاسيما من الأندلس ومصر واسطنبول والحجاز"[3].

وقد كثرت الفنون وتعددت الكتب التي كانت تدرس إبان الفترة العثمانية ومن بينها "جامع الجوامع للإمام السبكي، وألفية العراقي في مصطلح الحديث وتلخيص المفتاح في علم

[1] سامي يوسف أبو زيد، الأدب العثماني، ص 57.

[2] نفسه، ص 57.

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 285.

البيان وجملة من كتب السير، وكتاب الشفاء للقاضي عياض، والبرد بشروحها للإمام البوصيري وعقائد السنوسي بالإضافة إلى كتب أخرى في النحو والصرف والتفسير"[1].

وما هذا إلا قطرة من بحر المؤلفات التي كانت تنجز آنذاك وهذا دليل على وجود ثقافة واسعة وسائدة في ربوع الجزائر التي أنجبت من العلماء الكثير والذين اشتهروا وذاع صيتهم في ربوع الوطن وخارجه من أمثال: عمر الوازن* سعيد المقري** وعبد القادر الراشدي*** وغيرهم كثيرون.

إن كثرة المكتبات وانتشارها وكذا العدد الهائل للعلماء آنذاك عوامل تفند وبشدة أراء من وصف الأدب الجزائري في الفترة العثمانية بأنه عصر للضعف والانحطاط، بل تزيد هذا الأدب قوة وقيمة فنية وجمالية، رغم أن الولاة وكما ذكرنا سابقا لم يشجعوا على تأليف هذه الكتب. كما "يمكننا أن نقسم المكتبات إلى عامة وخاصة فالمكتبات العامة هي الملحقة بالمساجد والزوايا والمدارس وأشهرها إطلاق مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة، ومكتبة المدرسة

[1] منصور درقاوي، الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنيين (10هـ-13هـ/16م-19م) بين التأثير والتأثر مخطوط مذكرة ماجستير، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية قسم التاريخ وعلم الآثار، 2015، ص 42.

* هو أبو حفص عمر بن محمد الكماد الأنصاري المعروف بالوازن من علماء قسنطينة في القرن العاشر هجري متصوف، كرس حياته للتدريس خاصة ما تعلق بالبيان والفقه والأصول توفي سنة 965هـ =

= من مؤلفاته: البضاعة المزجاة، فتاوي في الفقه والكلام وغيرها (ينظر: أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص379-380-383، وعبد الكريم الفكون، منشور الهداية في حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص 35).

** هو أبو عثمان سعيد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمان بن أبي العيش ولد سنة 928هـ عشية بداية الحكم العثماني في تلمسان، أخذ عنه كثيرون من تلمسان وفاس بقي في الفتوى 45 سنة ورغم ذلك لم يعرف منه أنه ترك تأليفا توفي سنة 1010هـ (ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 376-378).

*** هو عبد القادر الراشدي نسبة إلى الرواشد من مداشر فرجيوة موسوعة في علمي الكلام والأصول له قصيدة غاية في البلاغة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، تولى قضاء قسنطينة وفتواها توفي أوائل العشرة الثانية من القرن الثاني عشر، ينظر: الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بير فنتانة، الجزائر، 1906، ص 219-220.

الكتانية التي أسسها صالح باي* بقسنطينة، ومكتبة المدرسة المحمدية، أما الخاصة فيصعب حصرها لكثرتها نذكر منها مكتبة الفكون، مكتبة بيت المذاهب الأربعة لأبي راس وغيرها"[1].

ومن خلال ما سبق ذكره نستنتج أن الجزائر قد احتوت على الكثير من المكتبات وبالتالي المؤلفات، وهذا ما دل أيضا على كثرة المؤلفين من العلماء الجزائريين ممن سبق وأن ذكرناه، وكل هذا لا يلتقي إلا في مجتمع متحضر واع يملك من الثقافة ما ينفي به على الأقل بعض الإشاعات التي روجت لجزائر عثمانية بأدب ضعيف.

ثالثا: التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني

إن الحديث عن فن الرسالة وقصص الكرامات خلال الفترة العثمانية يتطلب منا بالضرورة التطرف إلى التصوف ووجوده في الجزائر خاصة أنه وفي هذا العهد بالذات كثر التصوف والمتصوفون من العلماء والمتثقفين الجزائريين ويظهر ذلك جليا من خلال كتاباتهم المختلفة سواء كانت شعرا أن نثرا، وما يهمنا هو ما بين أيدينا من نماذج لمجموعة من الرسائل بنوعها الإخوانية والديوانية والتي كانت تنتقل بين علماء الجزائر والباشاوات أو الحكام بصفة عامة، كذلك الشأن بالنسبة لأخبار الكرامات هذه القصص التي بينت الحضور الصوفي الكبير لهؤلاء الأولياء الصالحين ولهذا وجب علينا أن نعرج على هذا المصطلح "التصوف".

1- نشأة التصوف ومكانته: «يحتل التصوف مكانة أساسية في تاريخ الإسلام والمجتمعات الإسلامية، ويعتبر ظاهرة إسلامية أصيلة، بنيت على التقوى واستهدفت تنمية القيم الروحية،

* هو صالح باي أشهر دايات قسنطينة أسس مدارس وأنشأ مساجد كثيرة توفي سنة 1207هـ (ينظر: الجيلالي عبد الوهاب، تاريخ الجزائر العام، ج3، ص 278-280).

[1] ينظر : أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 296-297.

وإن التصوف ككل حركة دينية استمد عناصره ونشأ وتطور في ظل التطورات الشاملة التي مر بها تاريخ المسلمين في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وكانت نتيجة مباشرة له، وأصبح مذهبا منظما أثناء الجزء الأخير من القرن الثالث الهجري»[1].

ومن خلال ما سبق ندرك أن التصوف «خرج من رحم الدين الإسلامي، ثم انتشر بين الأقطار الإسلامية خلال الفترتين الوسيطة والحديثة، وتعد الجزائر أحد هذه الأقطار التي هيمنت فيها الإلتزامات الصوفية»[2].

فالجزائر إذن لها تاريخ قديم مع التصوف هذا الأخير الذي «احتل أهمية كبيرة في الحياة الفكرية القديمة منها أو المعاصرة وكموضوع شغل مساحة واسعة في تاريخ الفكر الثقافي والديني، وأغلب الدراسات أكدت أن ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط (الجزائر) بدأت بتصوف النظري بداية من القرن السادس للهجرة ثم تحولت إلى تصوف عملي واختص به النخبة فقط، واقتصر على حواضر كبرى كتلمسان وبجاية، ووهران، ثم مرحلة التصوف الشعبي بداية من القرن التاسع للهجرة وعرف انتشارا كبيرا فتم تصدير تعاليم الطرف الصوفية وأورادها كالقادرية والرحمانية...»[3].

هذا عن نشأة التصوف ومكانته في المجتمعات الإسلامية عامة والجزائر خاصة.

2- في مفهوم التصوف: «يستشهد أحمد أمين بابن خلدون لوضع تعريف للتصوف: «وأصلها -أي طريقة التصوف- العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق

[1] عبد القادر صحراوي، الأولياء والتصوف في الجزائر خلال العهد العثماني 1520-1830م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2016، ص 09.

[2] نفسه، ص 09.

[3] ينظر: مداني حرحيرة، الرمزية الصوفية في الأزمات الاجتماعية الكرامات وتمثلاتها في المغرب الأوسط ق10هـ/ق14هـ، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية قسم الفلسفة، 2012-2013، ص 74-75.

في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية»[1].

كما أن التصوف وفق تعريف السيد سابق* «علم من العلوم الإسلامية، وهو في حقيقة أمره روح الإسلام وجوهره؛ لأنه تصفية القلب وتطهيره من رجاساته عن غير الله، وإخلاص العبودية له، وتحرير الجسد، ونبذ الدنيا، وهجر لذائذها، والخشوع والصمت والتأمل»[2].

كما تجدر الإشارة إلى أن مصطلح التصوف كان محل اختلاف كبير بين العلماء في تحديد أصله، ورغم ذلك سنكتفي بهاذين التعريفين السابقين لنعرج إلى نقطة هامة في بحثنا هذا تتعلق أساسا بالتصوف في الجزائر إبان العهد العثماني.

3- الحركة الصوفية في الجزائر العثمانية: إن أهم ما ميز الفترة العثمانية بالجزائر حقا هو الحضور الصوفي حيث «تبرز مكانة التصوف الأساسية في التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي للجزائر خلال الفترة المدروسة، في مساهمة هذه الظاهرة في انتشار مبادئ الطرقية وتجميع الناس حول المتصوفة والسلطة السياسية العثمانية... وبحكم أن الخلافة العثمانية بنية على أساس تصوف والطرقية فقد شجع الأتراك العثمانيون المتصوفة... إلا أننا نشير إلى أن الحركة الصوفية وجدت بالجزائر قبل العثمانيين»[3]. هذا معناه أن الظاهرة الصوفية في الجزائر قديمة لا ترتبط بقدوم العثمانيين فقد «وجد التصوف وطرقه لأول مرة في بلاد القبائل ببجاية والمناطق المحيطة بها، وكانت بجاية مركز إشعاع طرقي صوفي لعدة قرون

[1] الميلودي شغموم، المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي الحكاية والبركة، منشورات المجلس البلدي مكانس، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط1، 1991، ص 21.

* أستاذ في جامعة الأزهر.

[2] صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، ص 09.

[3] عبد القادر صحراوي، الأولياء والتصوف في الجزائر خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 09-10.

من الزمن»[1]. كما أن التصوف لم يقتصر على منطقة القبائل وحدها بل انتشر فيما بعد إلى باقي المناطق الأخرى حتى عمّ البلاد كلها «وترجع عوامل وأسباب انتشار التصوف وطرقه بالجزائر إلى عدة أسباب منها ما هو فكري وما هو سياسي وما هو اجتماعي»[2].

ولعلها فعلا عوامل وأسباب ساعدت وبشدة رواجه في المجتمع العثماني ذلك أن التصوف «قد انتشر في العصر العثماني وكثر كثرة مفرطة في الزوايا، والخوانق* أو التكايا**، حتى حوت القسطنطينية وحدها في القرن الحادي عشر الهجري خمسا وثمانين ومائتي زاوية للصوفية»[3] وهو رقم كبير يدل على أن هذه الفترة هي الفترة الذهبية للمتصوفة ورجال الدين والتي اتسمت بانتشار الطرق الصوفية "ليبلغ عددها ما يقارب ست عشرة طريقة يرجع معظمها إلى الشاذلية التي كان لها وللطريقة القادرية سيطرت واضحة في الجزائر فسيطرت بذلك على جميع مناحي الحياة السياسية الاجتماعية والروحية بوجه عام»[4].

وكذلك «تعددت فرقة المتصوفة وتباينت طرقهم ومذاهبهم كالقادرية* (الجيلانية) والرفاعية**، والأحمدية*، والشاذلية*، والمولوية*، والنقشبندية*، وغيرها كثير»[1].

---

[1] طيب جاب الله، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، مجلة معارف، جامعة البويرة كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 14، 2013، ص 136.

[2] المرجع نفسه، ص 136.

* الخانقه: كلمة فارسية تعني دار أهل التصوف ومسكنهم (ينظر: سامي يوسف أبو زيد، الأدب العثماني، مرجع سابق، ص 51).

** التكية: كلمة تركية تعني رباط الصوفية وتمارس فيه الشعائر الدينية كالتدريس مثلا (ينظر: سامي أبو زيد، الأدب العثماني، ص 51).

[3] سامي يوسف أبو زيد، الأدب العثماني، مرجع سابق، ص 51.

[4] فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 22-23.

* نسبة إلى عبد القادر الجيلاني المولود في جيلان سنة 470هـ/1077م، نسب إليه معجزات وخوارق يلبس أصحابها الزي الأخضر (ينظر: يوسف أبو زيد، الأدب العثماني، ص 52).

** تنسب إلى السيد أحمد الرفاعي، 578هـ/1182م، ولها فروع عدة، وكانت تتزيا بالزي الأسمر والأبيض، نفسه، ص 52.

والملاحظ أيضا في تلك الفترة أن العثمانيين قد اهتموا "بالتصوف لكونه يخدم سياستهم المعادية للشيعة، وكذلك استخدمه السلطان عبد الحميد سلاحا في مواجهة مفتي الإسلام، فقرب بمشايخ الصوفية وأغدق عليهم الأموال والهبات"[2].

ففي ظل تشجيع السلطة العثمانية للمتصوفة والطرق الصوفية استطاع هؤلاء أن "يساهموا في نشر الإسلام في بلدان إفريقية عدة... كما كان لهم دور سلبي في تحذير الطبقات الشعبية وحمل أتباعه عقائدا، تتناقض مع الإسلام كزعمهم بأنهم أصحاب كرامات وخوارق واستخدامهم للطبول والمزامير وأنواع من الصياح والنواح والتوسل بأشياخهم وفي مقابل ذلك ظهر تيار إصلاحي ومن أبرز هؤلاء المصلحين محمد بن عبد الوهاب* يدعو هذا التيار للعودة إلى الإسلام النقي كما أنزله الله سبحانه وتعالى لمحاربة البدع والأفكار الهدامة»[3]، وهو تيار يلتزم بقواعد التصوف الأساسية وهي: تحسين النية، محاسبة النفس،

---

* نسبة إلى أحمد البدوي 675هـ/1276م، استقر في مصر، وقد زار العراق، وكان ملثما على عادة بدو إفريقيا، وتفرعت إلى عدة طرق، وشاركهم الشبت الأحمر، قدمه أتباعه وعدّ من أكبر الأولياء في مصر.

* تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي (من شاذلة بتونس استوطن الإسكندرية وكوّن مدرسة صوفية خالفت ابن عربي واقتربت من الغزالي المتقيد بالكتاب والسنة، ولها شطحات كثيرة كزعم مؤسسها أنه يرى الله سبحانه، ويتلقى منه خطابا، ويتلقى من الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة.

* تنسب إلى جلال الدين الرومي، أطلق عليه أتباعه اسم (مولانا) وهو شاعر فارسي كبير عرف أتباعه باسم الدراويش، أي الفقراء، وتميزت بعروضها الاحتفالية التي تصاحبها الموسيقا.

* تنسب إلى محمد بهاء الدين نقشبند المولود سنة 717هـ/1317م، من أتباعها المتصوف عبد الغني النابلسي، تمتع أتباعها بدعم وتأييد السلطة في اسطنبول وتقول بوحدة الوجود في جانبها النظري، لكن أصحابها يؤدون العبادات.

[1] سامي يوسف أبو زيد، الأدب العثماني، ص 51-52.

[2] نفسه، ص 52.

* هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد يقال له (المشرفي) نسبة إلى جده مشرف ويقال (الوهيبي) نسبة إلى جده وهيب ولد سنة 1115هـ-1703م، عالم دين نسب على المذهب الحنبلي تعتبر من مجددي الدين الإسلامي وشرع في دعوة المسلمين للتخلص من الخرافات البدع أخذ عنه كثير من تلاميذه، وله مؤلفات كثيرة منها: كتاب مختصر الاتصاف والشرح الكبير، كتاب مختصر زاد المعاد كتاب الأصول الثلاثة...توفي عام (1206هـ-1791م، (ينظر: www.ar.wikipedia.org محمد بن عبد الوهاب /wiki/بتاريخ 2017/07/14 على الساعة 16:30.

[3] ينظر: سامي يوسف أبو زيد، الأدب العثماني، ص 52-53.

التوبة النصوح، الزهد في الدنيا دوام الذكر، محبة المؤمنين والرحمة بهم، التحلي بمكارم الأخلاق"[1].

إذن يمكن القول أن الحركة الصوفية «قد ساهمت بشكل كبير خلال العهد العثماني في تنمية الحس الروحي الذي كان يجمع شتات القبائل ورغم تفرقهم من أجل توسيع نفوذهم إلا أنه سرعان ما توحدهم كلمة الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام وأن الصوفية هم المغذون لتلك الوطنية الدينية وما يمكن تسميته سلطة الصوفية وقد أعطى التجاوب بين السلطة العثمانية والصوفية نتاجا ثقافيا غزيرا مشوبا في أغلبه بالتصوف وقلما نجد نتاجا ثقافيا يعود إلى هذه الفترة قد نجا من "حمى" التصوف»[2].

إذن يمكن القول "عن الوضع الثقافي في الجزائر إبان الحقبة العثمانية أنه الأبرز في جميع الميادين لبروز الطرق الصوفية بكثرة وكذا تشجيع السلطة العثمانية لهذا الجانب وبالتالي فقد ساهم المتصوفة في نشر الإسلام في الجزائر وعدة بلدان إفريقية وفي بلاد الهند والصين وماليزيا وغيرها، فللوجود العثماني الأثر البالغ في الحياة الثقافية خاصة ويظهر من خلال بروز الطرق الصوفية، وبناء الزوايا والكتاتيب القرآنية حفاظا على تماسك المجتمع روحيا وثقافيا"[3].

وكخلاصة لهذا العنصر يمكن أن نقول أن التواجد العثماني بالجزائر كان له من الأثر الإيجابي الكثير على كل القطاعات، وخاصة منها الجانب الثقافي لتشجيعهم للعلم والعلماء وللمتصوفة، ضف إلى ذلك أن العثمانيين لم يحاربوا أبدا مقومات الشعب الجزائري وكان موقفهم دائما إيجابيا في هذا الخصوص، دون أن ننسى أنهم وقفوا مع الشعب الجزائري

[1] صباح بعارسية، حركة التصوفية الجزائر خلال القرن العاشر الهجري، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2005، 2006، ص 40.

[2] ينظر: الطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني، www.alg17.com تاريخ الإطلاع: 2017/07/14، على الساعة 23:47.

[3] ينظر: فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، مرجع سابق، ص 23-24.

في حربه ضد الإسبان وأوقفوا هذا المد الرهيب وساهموا بطرق عديدة في بناء الزوايا والمساجد والمدارس وبالتالي فقد خدموا الجانب الثقافي بطريقة مباشرة، وكل هذا يدل على أن الفرد الجزائري إبانة تلك الفترة كان واعيا ومثقفا وهذا ما ينعكس إيجابا على أدب تلك المرحلة.

رابعا: الكرامة والنص العجائبي

لقد وقع اختيارنا لهذا العنوان كعنصر هام جدا من عناصر المدخل فبعد الحديثنا عن السياق التاريخي للوجود العثماني بالجزائر وتطرقنا إلى الحياة السياسية والعصور التي مرت بها الجزائر ثم عرجنا على الحياة الثقافية وكان تركيزنا فيها كبيرا جدا على الجانب التعليمي والديني والثقافي بصفة عامة وكيف لعبت السلطة العثمانية دورا كثيرا في هذا المجال من خلال تشجيع العلماء والمتصوفة.

ولأن بحثنا هذا يتركب أساسا من نقطتين جوهريتين أساسيتين ألا وهما الكرامات والرسائل كفنين نثريين إبان العهد العثماني فلامناص من الحديث عن العلاقة بين هاذين الفنين ولابد من التطرق أيضا إلى قصص الكرامات كسرد عجائبي يقسم بالغرابة واللامألوف ثم الحديث أيضا في فن الرسالة كنص واقعي مألوف وبالتالي الموازنة بين النصين والخروج بنتائج معينة.

فلو جئنا للحديث عن العجيب لوجدنا أنه "الأمر النادر الحدوث الذي يثير في نفس الإنسان الدهشة والاستغراب"[1].

وهناك تداخل كبير بين المصطلحات ويرجع الإشكال في ذلك إلى الترجمة والتعريب "فكان لمصطلح الأجنبي المنقول عنه (Fantastique) زهاء عشرين مصطلحا... على نحو: العجائبي، العجائبية، الفونتاستيك... الخارق، الوهمي وكذلك العجيب والغريب، والخيالي وغيرها"[2].

ولكننا سنحاول استخدام مصطلح العجائبي لأنه الأقرب لإيصال المعنى خاصة إذا ما تعلق الأمر بقصص الكرامات وما تحتويه من خوارق سنتطرق إليها لاحقا.

فقد ورد في لسان العرب "لابن منظور" أن «عجب: العجب والعجب: إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده؛ وجمع العجب: أعجاب؛ قال:

يـــا عجبـــا للـــدهر ذي الأعجـــابي الأحـــدب البرغـــوث ذي الأنيـــاب[3]

كما ورد في قاموس محيط المحيط لبطرس البستاني أن: "العجب: إنكار ما يرد عليك واستطرافه وروعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء... أو هو انفعال النفس لزيادة وصف في المتعجب منه»[4].

[1] سميرة بن جامع، العجائي في المخيال السردي في ألف ليلة وليلة، مخطوط مذكرة ماجستير، جامعة باتنة، قسم اللغة العربية وآدابها، 2009-2010، ص 10.

[2] ينظر: عبد القادر عواد، العجابئي في الرواية العربية المعاصرة آليات السرد والتسلسل، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، قسم اللغة العربية وآدابها، 2011-2012، ص 24.

[3] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، مج1، د ت، د ط، بيروت، لبنان، ص 580.

[4] بطرس البستاني، محيط المحيط، قاموس مطول اللغة العربية، د ط، د ت، ص 576.

أما في قاموس المنجد في اللغة والأعلام فنجد "العجب: إنكار ما يرد عليك العجب: جمع أعجاب: انفعال نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه أو استطرافه أو إنكاره ما يرد عليه"[1].

ومنه "فالمعاجم الحديثة لا يختلف مفهومها للعجيب عن المعاجم القديمة كثيرا وما يميزها حصر مفهوم العجيب في نطاق الإنفعالات النفسية للإنسان"[2].

هذا، وعند ربط الأدب بالعجائبية ينتج لدينا ما يعرف بالأدب العجائبي الذي «يستند إلى تداخل الواقع والخيال، كما ينقسم إلى لحظتين تخيليتين:[3]

أ- التعجيب (حالة إيجابية): ويتم عندما نكون بصدد حدث يترك أثرا إيجابيا على نفسية المتلقي.

ب- الغريب: ويتم عندما نكون أمام حدث يترك أثرا سلبيا على نفسية المتلقي إما لغرابته وإما لما يبثه من هلع وخوف كتحول الشخصية العدائية إلى شيطان أمرد.

إذن فقصص الكرامات ترتبط أساسا بما هو غير مألوف "فهي نص متلقي دون علاقة بالواقع والرؤيا ونمط مجتمعي عقلي روحي لأنها ليست صادرة عن مبدعي، وإنما سلوك عام يصدر عن أفراد يكونون مؤسسات اجتماعية دينية"[4]. وهذا هو السبب الذي يجعلها "تبدوا معقدة من حيث مصدرها إذ تشل حركة الفكر وقدرة تأويل الإنسان، مما يدفع -أحيانا- إلى

[1] كرم البستاني، المنجد في اللغة العربية والأعلام، دار المشرق، ط20، بيروت، 1983، ص 488.

[2] سميرة بن جامع، العجائبي في المخيال السردي في ألف ليلة وليلة، مرجع سابق، ص 11.

[3] ينظر: جميل حمداوي، الرواية العربية الفانطستيكية، عبر موقع: www.arabicnadwab.com/articles/fantasia-handoui تاريخ الإطلاع: 2017/07/15، على الساعة 16:20.

[4] حياة مستاري، قصص الأولياء في الأوراس منطقة كيمل نموذجا جمع ودراسة وتوثيق، مخطوط مذكرة ماجستير في الأدب الشعبي الجزائري، جامعة باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، 2006، 2007، ص 06.

لهب الشك وبخاصة حين تقف على كرامات العارفين؛ الذين كشفت لهم حجب الغيب كما يقولون مما يزيد المؤمن حيرة ويجعله بين التواصل واللاتواصل"[1].

بما أن قصص الكرامات فن نثر سردي يرتبط كما ذكرنا آنفا بما هو غير واقعي فهي تندرج ضمن ما يعرف بالسرد العجائبي ولعل هذا ما ميز هذا الفن عن بقية الفنون الأخرى فن "أكسب العجائبي بوظائفه الأدبية السرد سمات وميزات جعله يتفرد عن باقي السرود وأقرنه بكلمة "عجائبي" فأصبح يدعى بالسرد العجائبي أو السرد الفانتاستيكي عند بعضهم"[2].

ضف إلى ذلك "أن السرد العجائبي يملك مرونة تعز في السرد التقليدي تمكنه من حمل الكثير من المغازي وصهر الأسطوري والحكائي والخرافي في بنية جديدة تعرض الحقيقة كما يراها الكاتب أو كما يشعر بها أو كما تلقاها لا كما وقعت"[3].

وقد سار السرد العجائبي نمطا سرديا لا يستطيع أحد إخفاء وجوده في قصص الكرامات سيما وأن هذه الأخيرة ارتبطت ارتباطا وثيقا بالأولياء الصالحين وما يعرف عنهم أثناء سرد قصصهم.

كما هي الأدب العجائبي "يعتمد لغة تتخطى الواقع إلى المتخيل؛ لتكتب سردا مترددا بين عوالم الحقيقة والمجاز يندهش أمامها العقل والمنطق ويقفان أمامها حائرين وهذه الخاصية هي التي تجعل الأدب العجائبي يتفرد كليا عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى، ويصبح جنسا وسيطا بين جنسين أدبيين في نظر تودوروف هما الغريب والعجيب"[4].

---

[1] نفسه، ص 06.

[2] سميرة بن جامع، العجابئي في المخيال السردي في ألف ليلة ولية، ص 27.

[3] سناء شغلان، السرد الغرائبي والعجائبي، نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي، الأردن، د ط، 2007، ص 205.

[4] جميل حمداوي، الرواية العربية الفانطاستيكية، موقع سابق.

إذن فالكرامات كفن نثري سردي له علاقة وطيدة بالسرد العجائبي الذي تحدثنا عنه في الأسطر الماضية، وللعجائبي حضور قوي في مثل هذه الفنون والذي سنتحدث عنه في بحثنا هذا.

خامسا: الرسالة والنص الواقعي المألوف

أما فيما يخص فن الرسائل وهو الفن النثري غير القصصي (غير سردي) والذي سيكون محور اهتمامنا أيضا إضافة إلى قصص الكرامات فهو –فن الرسائل– على عكس الأول نص واقعي مألوف لا غريب ولا عجيب يكتنفه إنما موضوع من مرسل إلى مرسل إليه يحمل في طياته أمرا معينا، وقد تم التركيز عليه أيضا لكشف النقاب وإماطة اللثام عن هذا الفن في الفترة العثمانية واكتشاف خصائصه التي سنتناولها لاحقا بالتفصيل.

وتجدر الإشارة إلى أن الفرق بين فن الرسائل كنص عادي واقعي وقصص الكرامات كفن مرتبط بالسرد العجائبي أن الأول شرع يحدث في الحياة في حين أن الثاني بعيد الحدوث وربما هو السبب الذي يزيد من قصص الكرامات تشويقا وحبا عند القارئ.

فيما يلي جدول يبين الفرق بين الإبداع الواقعي والإبداع العجائبي[1]:

[1] ينظر: جميل حمداوي، الرواية العربية الفانطاستيكية، موقع سابق.

مميزات الإبداع	
العجائبي (الكرامات)	الواقعي (الرسائل)
– الخيال.	– الواقع.
– الوهم والخارق.	– الحقيقة.
– قوانين فوق الطبيعة.	– قوانين طبيعية.
– التخييل.	– الواقعية.
– المحتمل.	– الممكن.
– التردد والشك.	– التكييف.
– زمن متعال.	– زمن واقعي محدد.
– أفعال عجيبة وغريبة.	– أفعال يومية/عادية مألوفة.
– غير المرئي.	– المرئي.
– التصور/ الافتراض.	– العقل المنطق.

شكل 01: خصائص ومميزات الإبداع

نستنتج من خلال الجدول المبين أعلاه أهم الفروق بين الشكلين النثريين وما يميز الكرامة كنص عجائبي يتسم بالغرابة من خيال ووهم وقوانين فوق الطبيعة... وما يقابلها من

المألوف في الرسالة كالواقع والحقيقة وقوانين الطبيعة... هو ما شكل لنا إبداعا من خلال دراسة خصائصهما واستنتاج مكمن الجمال والأدبية فيهما.

كما نلاحظ من الجدول السابق مميزات كل من قصص الكرامات كسرد عجائبي وفن الرسائل كنص مألوف ورغم التباين الواضح بينهما إلا أن كلا من الفنيين يظهر الإبداع بطريقته الخاصة، وما يهمنا بدرجة أكبر هو أن نبين مدى ارتباط قصص الكرامات بالعجائبية وعلاقتها الوثيقة بها، ومدى اتصال فن الرسائل بالواقع وابتعادها عن اللامألوف.

الفصل الأول: الرسائل وموضوعاتها

أولا: في مفهوم الترسل

ثانيا: أنواع الرسائل

ثالثا: موضوعات الرسائل في النثر الجزائري على العهد العثماني

تمهيد:

مما لاشك فيه أن الأدب الجزائري القديم لم يلق من حيث النشر والدراسة والحضور في فضاءات الثقافة والنقد داخل الوطن وخارجه الإقبال الكبير، وهو ما لاحظناه في عموم الأدب الجزائري الحديث من اهتمام ودراسة –وبخاصة النثر منه– مع أن هذه الفنون في عمومها لها من الأدبية ما يغري دارسي الأدب ويحفزهم على الدراسة، والبحث فيها كما لها من الواقعية ما يجعلها تعكس الواقع الحضاري العام بكل جوانبه الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، لتقدم في نهاية المطاف صورة العصر بظروفه وملابسات أحداثه وكلما يتعلق بحيثيات السياق التاريخي للمنجز الثقافي والأدبي.

وأمام صعوبة دراسة الأدب العربي القديم في الجزائر بكل فنونه وأشكاله وعبر كل المحطات التاريخية التي مر بها كان لزاما حصر الدراسة وبالضبط هذا الفصل الأول في أحد هذه الفنون ألا وهو "فن الرسالة" وفي الفترة العثمانية تحديدا بوصفها حلقة وصل بين تراثنا الأدبي القديم والحديث، كما أنها فترة قيل عنها الكثير من حيث ضعف الأدب عامة والنثر بصفة خاصة لأنها وببساطة الفترة التي سبقت الدخول الفرنسي للجزائر وهو ما سنحاول التعرف عليه في هذا الفصل.

والرسائل جزء من الكتابة التي رغم اتسامها بمجموعة من الخصائص "منها الملائمة بين الموضوع والأسلوب والعناية بالصياغة وبالسجع بوجه خاص ومراعاة الفواصل بهدف أحداث المتعة الأدبية وإظهار البراعة اللفظية"[1]. إلا أنها حسب الركيبي* "مالت إلى إظهار

[1] عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2009، ص 41.

* عبد الله، خليفة الركيبي، أستاذ بجامعة الجزائر، قسم اللغة العربية، أسهم في تأسيس اتحاد الكتاب الجزائريين، له مؤلفات كثيرة في الأدب.

البراعة اللفظية، كما كثر البديع بشتى أنواعه في أساليب الكتاب وتحجر طرق البيان وتجمد الأدب العربي حتى بلغ نهاياته في عصر الأتراك، من قبله عصر ما يسمى بالانحطاط"[1].

ومن هذا المنطلق قامت إشكالية هذا الفصل على التساؤل المحوري يتعلق أساسا بواقع النص الأدبي النثري (فن الرسائل) في الجزائر العثمانية واندرج عنه تساؤلات فرعية أهمها:

- ما موقع هذا الفن ضمن فنون الأدب العربي القديم؟

- كيف برز هذا الفن خلال الفترة العثمانية؟

وهي التساؤلات التي سنحاول الإجابة عنها في فصلنا الأول الذي خصصناه. للرسائل من حيث موضوعاتها وخصائصها الفنية خلال المرحلة من عمر الأدب الجزائري القديم.

1- وقفة أمام مصطلح النثر: "نتجاوز في هذه الوقفة عن الدلالات اللفظية لكلمة نثر التي وردت في المعاجم المعتمدة مثل لسان العرب وغيره لكن نتوقف أمام تعريف ابن البناء العددي* للأدب والذي يقسمه إلى قسمين: شعر ونثر"[2]، وفي هذا الصدد يقول: وينقسم القول إلى موزون مقفى وهو المنظوم، وإلى غير ذلك وهو المنثور، ويستعمل كل واحد منهما في المخاطبات"[3].

---

[1] عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 41.

* هو العلامة الفلكي المشهور، أتقن العربية وآدابها وبرع في العلوم الفلسفية، ولاسيما الرياضية، توفي بمراكش سنة 721هـ، ينظر: الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1993، ص 25.

[2] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي من القرنيين السابع والثامن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1993، ص 25.

[3] ابن البناء، الروض المريع في صناعة البديع، تحقيق رضوان بن شقرون، دار النثر المغربية الدار البيضاء، د ط، 1985، ص 81.

وهو لا يختلف في تعريفه للنثر عن المفهوم الذي أعطاه ابن خلدون في مقدمته حيث يرى بدوره أن الكلام ينقسم أيضا إلى شعر ونثر فيقول: "وهو (الشعر) الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية، وفن النثر وهو الكلام غير الموزون"[1].

ومن خلال التعريفين السابقين ندرك "أن كل من مفهوم ابن البناء وابن خلدون للنثر واحد، إذ إن الشعر في رأيهما هو القول أو الكلام الموزون المقفى وما تبقى فهو النثر"[2].

ولكن يبقى عدم الاهتمام الكبير من طرف القدامى للنثر يحول دون الحصول على تعريف دقيق له، أما من الكتاب المحدثين فنجد أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي يتحدث عن الموضوع فيقول: «نعني بالنثر هنا النثر الفني أو الأدبي، وهو يشمل المقامات والرسائل الرسمية (الديوانية) والإخوانية، والوصف، والتقاريظ، والتعازي، وعقود الزواج، التي تفنن فيها أصحابها، والإجازات المنمقة، والشروح الأدبية، والقصص، والخطب. وقد كان الأدب الجزائري في العهد العثماني غنيا ببعض هذه الفنون كالرسائل والتقاريظ، ولكنه كان فقيرا في بعضها كالخطب والقصص»[3].

ونجد هنا أن التعريف اقتصر على التقسيم والتصنيف، وكل هذا لا يعني عدم القدرة على تحديد تعريف للنثر بل هنالك تعاريف عدة سنحاول أن نختار من بينها ما هو أنسب لبحثنا هذا وما يخدم الموضوع أكثر.

2- النثر الفني عند العرب: قبل الخضوع في تعريف النثر بصفة عامة والنثر الفني بصفة أخص نحاول أن نتطرق إلى بعض الفروق بين النثر الفني والشعر ذلك أن النثر الفني هو الذي يهمنا في دراستنا أكثر من النثر العام.

[1] تاريخ ابن خلدون (المقدمة)، ص 1093.

[2] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، مرجع سابق، ص 25.

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 178.

«إن الفروق هنا تكاد ألا توجد بين هذا النثر والشعر باستثناء الوزن، وهذا ما لاحظه ابن خلدون على الكتاب في عهده، ومن هنا اقترب النثري الفني من الشعر بل أصبح فيما يسمى بالنثر الشعري، كما أن بعض الفنون كالرسائل الوجدانية يقترب جدا من الشعر الغنائي في التأثير والتصوير، وأن كل منهما يتناول الحياة بطريقة فنية تدخل فيها العاطفة والخيال، ومن هنا نستطيع القول أن النثر هو القول الذي يصور العقل والشعور ودون تقييد بالوزن»[1].

ومن هنا يظهر جليا مدى التقارب الواضح بين النثر الفني والشعر من خلال استخدام الأساليب الشعرية من طرف الكتاب وكذا كثرة الشبيهات والاستعارات وغيرها من الصور التي ترد بكثرة في القصائد الشعرية.

نأتي الآن إلى تعريف النثر باختصار:

أ-**لغة:** "النثر نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللوز والسكر، وكذلك نثر الحبّ إذا بُذِرَ، وهو النثار، وقد نثره ينثره، وَيَنْثِرُهُ، نثرا ونثارا ونَثَّرَهُ فانتثر وتناثر... وقيل: نثارةُ الحنطة والشعير ونحوهما ما انتثر منه، وشيء نثْرٌ: مُنْتَثِرٌ وكذلك الجمع"[2].

ب- اصطلاحا: "هو الكلام الذي لم ينظم في أوزان وقواف، وهو على ضربين: أما الضرب الأول فهو النثر العادي يقال في لغة التخاطب وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجري فيه أحيانا من أمثال وحكم، وأما الضرب الثاني فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة وهذا الضرب هو الذي يعني النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ودرسه ... ويسميها بعض الباحثين باسم النثر الفني"[3].

---

[1] ينظر، الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، في القرنين السابع والثامن، مرجع سابق، ص 30.

[2] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للنشر، بيروت، لبنان، د ت، د ط، ص 191.

[3] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، د ت، ط11، ص 15.

ومن خلال التعريف السابق نستنتج أن للنثر نوعان:

***نثر علمي:** "وميدانه الحقائق العلمية، والأفكار الخالصة كالفلسفة وغيرها من العلوم اليقينية أو الدقيقة، والقريبة منها كالرياضيات والكيمياء والطبيعيات وما شابه ذلك، ومنه المقالات، والبحوث... ومن عناصره الفكرة واللفظ، وإن خالطه تشبيه أو تمثيل فهو لهدف أو لغرض التوضيح لا غير"[1]. هذا عن النوع الأول أما النوع الثاني فهو:

***النثر الفني:** "وميدانه بعث العواطف، والتأثير الوجداني كالرسائل الوجدانية والخطابة، والوصف الأدبي، ومن عناصره الفكرة، والعاطفة، واللفظ، والخيال وهو أيضا أنواع: منه المرسل، والمسجع الذي ننتهي جمله بألفاظ تكون متقاربة في الروي، وهي شبيهة بالقافية في آخر البيت الشعري، ومنه النثر الشعري الذي يقرب من الشعر؛ وهذا لكثرة الصور، والتشابيه، وشيوع الإيقاع في تركيبه"[2].

وما يمكن ملاحظته هو "أن النثر المسجع والشعر جزآن لا يتجزآن من النثر الفني، إذ بهما يتشكل، وهذا على الأقل من الناحية الشكلية"[3] ونكون بهذا قد تعرفنا على النثر عامة والفني منه بصفة أخص وهو موضوع ومحل اهتمامنا ذلك أن فن الرسائل ينتمي بدوره إلى النثر الفني.

أولا: في مفهوم الترسل

تمهيد: تعد الرسائل "فن أدبي قديم ازدهر وانتشر في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وهو فن نثري جميل يظهر مقدرة الكاتب وموهبته الكتابية وروعة أساليبه البيانية المنمقة القوية"[4].

---

[1] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ص 31.

[2] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ص 31.

[3] نفسه، ص 31.

[4] الموسوعة العالمية العربية، حرف الراء، مج11، ط2، ص202.

وهو عند العرب فن أدبي قديم ازدهر في القرنين الثالث والرابع الهجريين ولفظ الكتابة يدل على "الحرفة الخاصة بالكتاب كما يدل أيضا على، العلم والعالم، وهذا طبيعي إذ أن الكاتب يحتاج في مهنته إلى علوم شتى وذلك ليتمكن من آداء مهامه على أتم وجه"[1].

وفي المعنى ذاته يتحدث أبو العباس القلقشندي عن الكتابة فيقول: "بأنها صناعة روحانية تظهر بآلة جثمانية دالة على المراد بتوسط نظمها ومعنى الروحانية هي الألفاظ التي يتخيلها الكاتب في أوهامه ويصور من ثمّ بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه، والجثمانية هي الخط الذي يخطه القلم وتقيد به تلك الصورة، وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة"[2].

إن مجيء الإسلام كان له من الأثر الإيجابي الكثير حيث ازدهرت الرسائل وعرفت تطورا كبيرا، وقد كانت بمثابة أول اتصال بالعالم الخارجي ورغم ما للخطابة من قيمة فنية وما للشعر من مكانة عالية آنذاك إلا أنهما لم يكونا قادرين على أداء الدور العلمي الذي كانت تقوم به الرسالة، وهي الفرصة التي سمحت للكاتب المترسل بأن ينافس كلا من الخطيب والشاعر، حيث كانت الرسالة تستهل بالبسملة ثم يأتي بعدها مجموعة من التعابير من قبيل: من محمد رسول الله، أو من خليفة رسول الله، أو من أمير المؤمنين، هذا إن كانت موجهة إلى المسلمين أما لو كانت لغير المسلمين فإنها تبتدئ بـ: السلام على من اتبع الهدى... وبعد السلام تأتي مباشرة التحميدات نحو: فإني أحمد الله كما "قد يرد فيها التشهد أيضا، أو يكتفي بعبارة: أما بعد"[3].

وتجدر الإشارة إلى أن العصر الذهبي لفن الترسل هما القرنان الثالث والرابع الهجريين أين وصل فيهما إلى قمة ازدهاره وذروة عطائه.

---

[1] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ص 62.

[2] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ص 62.

[3] عمر عروة، النثر الفني أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة للنشر، د ط، د ت، ص 33.

فالرسالة إذن فن نثري قديم استخدمها الكتاب العرب كأداة للتواصل فيما بينهم والنقل الانشغالات وتبادل الأفكار والآراء، أما في الجزائر وبالضبط في الفترة العثمانية فقد أقبل الكتاب عليها إضافة إلى فنون نثرية أخرى على غرار الخطابة والمقامة رغم اللااستقرار الذي عاشه الجزائريون من الناحية السياسية والاجتماعية في الكثير من الأحيان وهو الذي أثر سلبا على الأدب عامة وعلى النثر خاصة، إلا أنه وكما أسلفنا الذكر كان للرسالة دور هام لا يمكن بأي حال من الأحوال إنكاره أو إغفاله.

1- تعريف الرسالة:

أ- **لغة:** "رسل يرسل رسلا بعث رسولا... وراسله فيه وعليه وبه مراسلة بعث إليه لأجله رسالة فهو مراسل ورسيل، وأرسل القوم كثر رسلهم وصاروا ذوي إرسال أي قطائع... وتراسل القوم أرسل بعضهم إلى بعض، وفعل بعضهم مثلما يفعل البعض الآخر على وجه التتابع"[1].

- ونجدها في قاموس المنجد في اللغة والأعلام لكرم البستاني بمعنى: "راسله في وعلى وبالأمر: بعث إليه رسالة لأجله... أرسله: بعثه... ترسل: أنشأ الرسالة، ادعى أنه رسول. تراسل القوم: أرسل بعضهم إلى بعض وفعل بعضهم مثلما يفعل البعض الآخر على وجه التتابع... الرِّسَالَةُ، والرَّسَالَةُ جمع رسائل ورسالات: الاسم من أرْسل: الصحيفة التي يكتب فيها الكلام المرسل"[2].

- وجاء في كتاب نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر: "والترسل من ترسلتُ أترسل ترسلا وأنا مترسل... ولا يقال ذلك إلا لمن يكون فعله في الرسائل قد تكرر... ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة أرسل يرسل إرسالا وهو مرسلْ، والاسم الرسالة، أو راسل يراسل مراسلة فهو

[1] بطرس البستاني، محيط المحيط، قاموس مطول اللغة العربية، ص 334.

[2] كرم البستاني، المنجد في اللغة والأعلام، ص 259.

مراسل، وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا في المراسلة، وأصل الاشتقاق في ذلك أنه كلام يراسل به من بعد أو غاب فاشتق له اسم الترسل، والرسالة من ذلك"[1].

– أما صاحب اللسان فيقول في معنى الترسل: "أنه من الرسل في الأمور والمنطق كالتمهل والتثبت.... والترسل في الكلام التوقر والتفهم والترفق من غير أن يرفع صوته شديدا"[2].

– وفي القرآن الكريم ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾[3] "ولم يقل رسولا رب العالمين لأن فعولا وفعيلا يستوي فيهما المذكر والمؤنث والواحد والجمع مثل: عدو وصديق"[4].

– كما جاء أيضا في مختار الصحاح للرازي: "راسله مراسلة فهو مُرَاسِلٌ وَرَسِيلٌ وأرسله في رسالة فهو مُرْسَلٌ ورسولٌ والجمع رُسْلٌ وَرُسُلٌ والمرسلات الرياح وقيل الملائكة، والرسول أيضا الرسالة"[5].

– أما في كتاب أساس البلاغة للزمخشري فنجد: "راسله في كذا، وبينهما مكاتبات ومراسلات، وتراسلوا، وأرسلته برسالة وبرسول، وأرسلت إليه أن افعل كذا، وأرسل الله في الأمم رسلا"[6].

إذن فالرسالة هي كل ما يرسل من مرسل إلى مرسل إليه، وقد تكون مكتوبة أو ملفوظة.

---

[1] قدامة بن جعفر، نقد النثر (باب فيه المنثور وما جاء فيه) ، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، 1982، ص 95.

[2] ابن منظور، لسان العرب، مج1، ص 1644.

[3] سورة الشعراء، الآية، (16).

[4] الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، د ط، 1986، ص 102.

[5] نفسه، ص 102.

[6] الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج1، 1998، ص 353.

أي "أن الترسل أو المراسلة أو المكاتبة ألفاظ مترادفة إذ أنها جميعا تدل على معنى واحد وهو التخاطب بالكتابة أو بلسان القلم"[1]. هذا عن التعريف اللغوي للرسالة أما:

ب- اصطلاحا: الترسل مصطلح أدبي يقوم أساسا على ترجمة ما يدور في عقل الإنسان من كلام حول مواضيع معينة على شكل رسائل، قد تكون رسمية أو إخوانية أو أدبية تصدر عن كاتب يحاول من خلالها بسط ما يريد على شكل أفكار متسلسلة يترجمها لكلمات يؤلف بينها لتصبح جملا وفقرات بأسلوب يمتاز بالسهولة والرفق من المرسل إلى المتلقي.

وعليه فيبدوا واضحا أن "لفظ المُترسل يدل على من أصبحت الكتابة حرفة له أو هو على اقتراب منها؛ إذ إن التكرار لكتابة الرسائل يدل على الاحتراف على حسب صاحب نقد النثر*: ومن جهة أخرى فإن المراسل هو من اشترك في المراسلة مع آخر يكون بعيدا أو غائبا عنه"[2].

لقد تبين لنا أن الترسل يأخذ معنى كتابة الإنشاء وفي ذلك يقول القلقشندي: "فأما كتابة الإنشاء فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني: من المكاتبات والولايات والمساحات والإطلاقات ومناشير الإقطاعات والهدن والأمانات والإيمان وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها"[3].

كما أن مدلول الرسالة "يراد به أيضا ما يرد عن طريق رواية الخبر والإبلاغ الشفوي مما جعله يقترن غالبا بكلمة (أبلغ) وما يشتق منها، والذي يدل على النقل الشفوي والرواية...

---

[1] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ص 70.

*هو قدامة بن جعفر، وهناك من يقول أن كتاب نقد النثر هو لابن وهب الكاتب.

[2] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، مرجع سابق، ص 69-70.

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، ج1، القاهرة، د.ط، 1992، ص 54.

لقد استمر هذا اللفظ (أبلغ) طيلة العصر الجاهلي والإسلامي، وكان يطلق على التبليغ الشفهي ونقل الخبر عن طريق الرواية الشفوية"[1].

ونجد هذا في القرآن الكريم ذلك أن لفظ رسالة ورد هنالك ودلّ على الإبلاغ والنقل الشفوي عن طريق الرسل والأنبياء ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾[2].

- ﴿الذِّينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ الله﴾[3].
- ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي﴾[4].
- ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[5].

وما ورود مصطلح رسالة في القرآن الكريم إلا دليل قاطع على أهميتها في نقل الكلام من الرسل إلى المرسل إليه، و"ما نستقيه من آيات الكتاب الحكيم أن ألفاظ رسالة الواردة في هذه الآيات تدل أدق الدلالة على الإبلاغ والنقل الشفوي عن طريق الرسل والأنبياء الذين حملوا رسالات ربهم إلى البشر عن طريق التبليغ ثم تطور مدلول هذا اللفظ وأخذ يدل على الكتابة والتقييد وذلك منذ العصر الراشدي"[6].

ونجد أن الرسالة قد أخذت حيزا كبيرا من اهتمام الكتاب والأدباء سواء القدامى منهم أو المحدثين، فنجد مثلا حسين علي محمد في كتابه التحرير الأدبي يعرفها فيقول: "هي فن

[1] فاطمة دخيه، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 241.
[2] سورة الأعراف، الآية (62).
[3] سورة الأحزاب، الآية (39).
[4] سورة الأعراف، الآية (144).
[5] سورة الأعراف، الآية (68).
[6] فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 242.

من فنون النثر القولية، عرفها العرب منذ القدم، وهي مثل فنون النثر الأخرى (القصة، المسرحية، السيرة الذاتية...) لها خصائصها المميزة التي تجعلها فنا قائما بذاته"[1].

ولا يقتصر الحضور في فن الرسالة على العرب فقط وإنما هو "معروف عند الأمم الأخرى أيضا وهو قديم كذلك وحسب ما جاء في الموسوعة العربية فإن أعتق الرسائل التي وصلت إلينا بابلية كتبت على لوح آجري محفوظ ضمن غلاف من آجر أيضا، كذلك نجد أن الآداب غير العربية هي الأخرى تناولت أدب الرسائل، واهتمت بتعريف الرسالة... منها: الرسالة تواصل مع الآخر وتعبير عن الذات الكاتبة، مغالبة منها للبعد والغياب. ومنها: الرسالة وسيلة اتصال طبيعية بين صديقين غائبين"[2].

وهنالك تعاريف أخرى للرسالة نأخذ منها ما قاله جبور عبد النور في كتابه المعجم الأدبي: "ما يكتبه امرؤ إلى آخر معبرا فيه عن شؤون خاصة أو عامة، وتكون الرسالة بهذا المعنى موجزة لا تتعدى سطورا محدودة وينطلق فيها الكاتب عادة على سجيته، بلا تصنع أو تأنق، وقد يتوخى حينا البلاغة والغوص على المعاني الدقيقة فيرتفع بها إلى مستوى أدبي رفيع"[3].

ومن خلال كل التعريفات السابقة للرسالة سواء كانت للقدامى أو المحدثين عربا أم غربيين نجد أن الهدف الأول منها هو التواصل بين الأفراد سواء كان الأمر مشافهة أو كتابة.

2- نشأة وتطور أدب الرسائل: تعود نشأة الرسالة إلى العصر الجاهلي أين نجد أن العرب قد وظفوها لأغراض ليست أدبية، وإنما للتجارة أو الحروب أو ما شابه ذلك، كما أفهم اهتموا

[1] حسين علي محمد، التحرير الأدبي دراسات نظرية ونماذج تطبيقية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط7، 2011، ص 151.

[2] ناصر بوصوري، فن الترسل في العهد الرستمي مقاربة أسلوبية، مخطوط مذكرة ماجستير، أدب جزائري قديم، جامعة ورقلة، قسم اللغة العربية وآدابها، 2007، ص 27-28.

[3] عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص 122.

كثيرا بالخطابة كفن نثري أول باعتباره يخدم أهدافهم كالتأثير في الناس خاصة أثناء الحروب، إضافة إلى اهتمامهم بالشعر الذي كان يعتبر ديوانهم.

ويمكن أن نعتبر أن "العامل الأساسي الأهم، والذي كان وراءه نشأة أدب الرسائل وتطوره تطورا كبيرا إنما هو الإسلام، وما تبعه من الفتوحات والتي أدت بدورها إلى إحداث تطورات في الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها وذلك نتيجة الامتزاج بين الشعوب المجاورة للعرب وغيرها[1].

فللإسلام دور كبير في تطور الفنون النثرية التي من بينها فن الرسائل، إضافة إلى أن "وجود الكتابة الفنية وتطورها ومن ضمنها أدب الرسائل إنما هو ثمرة من ثمرات الإسلام وحضارته... فهذا النبي يراسل أولي الأمر في الداخل والخارج للدخول في الدين الجديد وكان من الطبيعي أن يستخدم كتابا يملي عليهم ما يوحى إليه، وحسب إحصاء جديد فإنه استخدم قرابة خمسة وأربعين كاتبا"[2].

وقد ظهر تأثير الإسلام في الكتابة النثرية بصفة عامة والرسائل بصفة خاصة بسبب توظيف الألفاظ القرآنية التي زادت من بلاغة وفصاحة هذه الرسائل إضافة إلى قدرتها على التأثير في المتلقي وإقناعه بالمطلوب.

أما لو جئنا للعصر الأموي فنجد أن الكتابة قد تطورت بشكل لافت ويعود السبب في ذلك لاهتمام الخلفاء بها وتشجيعهم للكتاب فكثيرا ما اعتمدوا عليها في تواصلهم مع الحكام والملوك.

[1] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ص 73.

[2] عزالدين إسماعيل، المكونات الأولى للثقافة العربية، ص 104، ص 119، نقلا عن: الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ص 73.

ولأهمية الرسائل آنذاك أسس الأمويون ديوانا خاصا بالرسائل في عهد معاوية بن أبي سفيان يعنى بكتابة الرسائل والرد عليها، ولذلك عرفت هذه الدواوين تطورا كبيرا وتطور معها أدب الرسائل، وقد خصص لذلك خيرة الكتاب "فلا يستطيع كتابة الرسائل إلا الأدباء المجيدون الذين يتفننون في ضروب القول ويدورون في فلك الفن إذ أن معالجة هذا الفن ليس بالأمر اليسير، كما يظنه بعض الناس فهو يتطلب بادئ ذي بدء، أصالة أدبية ومقدرة بارعة على التعبير مع سعة الإطلاع في المعارف، يرفد ذلك ذوق سليم"[1].

ومن هنا يتضح أن "كتابة الرسائل تتطلب من كاتبها أن يستخدم الطاقات الفنية التي تتعلق بدقة اختيار الألفاظ، وحلاوة تركيب الجمل، وصياغة العبارات في تأليف المعاني، والموازنة بينها وبين الكلمات التي تعبر عنها إلى جانب توفير الإمتاع الفني للقارئ أو المتلقي"[2].

وقد تميزت الرسائل في العصر الأموي بتنوع مواضيعها وثرائها ثم ننتقل إلى العصر العباسي الذي وصلت فيه الرسالة إلى ذروتها وأوج عطائها فهو عصر ذهبي بامتياز، فقد أقبل عليها جميع الفئات –المهتمة بهذا الفن طبعا– وكذا حظيت بتشجيع الحكام لها وبرزت فيها الرسائل الديوانية (الرسمية) والإخوانية والتي يسميها البعض بالاجتماعية وقد نافست الكثير من الفنون الأدبية على غرار الخطابة بل استطاعت أن تنافس الشعر أحيانا لاحتوائها على المعاني المؤثرة والصياغة الجميلة والكلام المسجوع.

3– الرسالة والخطابة: لا شك في أن الخطابة كانت محور اهتمام الأدباء في شتى العصور الأدبية بدء بالإسلام ومرورا بباقي العصور، لما لها من أهمية بالغة آنذاك في شحذ

[1] محمد محمد الغرباوي، رسائل الفقهاء والزهاد ومواعظهم إلى الخلفاء الأمويين والعباسيين، جامعة الأزهر، ط1، 2006، ص 38.

[2] نفسه، ص 38.

الهمم خاصة أثناء الحروب، ولعل هذا هو السبب الرئيسي الذي دفعنا لتخصيص عنصر من عناصر بحثنا هذا للحديث ولو باختصار عن أوجه التشبه والاختلاف بين الفنين.

فالخطابة تعتبر "من أبرز فنون النثر في الأدب العربي، وكانت ميادينها وأغراضها متعددة، تشمل الدين والسياسة والاجتماع والعسكرية ونحو ذلك وقد ألفت في ذلك الكتب مع وصف دقيق للخطيب وشروطه وفن الخطابة وشروطها أيضا"[1].

فمن ضمن ما يتشاكل فيه كل من الرسائل والخطب "أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، كما يشابهان في سهولة الألفاظ وعذوبتها، إضافة إلى أنهما مختصتان بأمر الدين والسلطان وكليهما موجه إلى متلق فهما يلتقيان في مسألة الإبلاغ. ولكنهما يختلفان في: أن الخطبة غالبا ما تكون ارتجالية بينما الرسالة تتطلب الإعداد والمراجعة، كما أن عنصر الفكرة في الرسالة يكون أقوى منه في الخطبة إضافة إلى أن الرسائل أدل وأصدق في التقييم الفكري وأقدر على تحديد ملامح صاحبها من الخطبة"[2].

إذن فقد استطاعت الرسالة أن تنافس فن الخطابة الذي يعتبر من أقوى الفنون الأدبية خاصة في العصور القديمة، وهذا دليل على المكانة التي كانت تحتلها الرسالة من بين سائر الفنون النثرية الأخرى على مر العصور.

ثانيا: أنواع الرسائل:

كان للرسائل دور هام وبارز على مر العصور كما كان لها أيضا نصيب كبير من اهتمام الأدباء والموظفين والأصدقاء والأحباء، ومن العادة أن تقسم الرسائل إلى رسمية (ديوانية) وإخوانية"[3]، وبالتالي فإن طبيعة الموضوع هي التي تفرض نوع الرسالة فهي تختلف

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائري الثقافي، ج2، ص 211.

[2] ناصر بوصوري، فن الترسل في العهد الرسمتي مقاربة أسلوبية، ص 28-29.

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 196.

باختلاف الموضوع المراد إيصال للمرسل إليه، فإذا كانت الجهة المرسلة مثلا تحمل صفة الرسمية كأن تكون الرسالة موجهة من أمير المؤمنين إلى أحد ولاته وموضوعها عزل من المنصب أو تغييره، أو كانت الرسالة بين الحكام أو الملوك وموضوعها مثلا عقد اتفاقيات أو إبرام معاهدات فهي رسائل رسمية أما إن كان الموضوع اجتماعيا بحتا كتهيئة أو عزاء أو دعوة لحضور فرح أو شوق أو ... فهي رسائل إخوانية بغض النظر عن الجهة المرسلة.

هذا باختصار فقط عن دور الرسائل ومكانتها الكبيرة وكذا عن تقسيمها الذي سنتناوله في هذا المبحث.

كما نجد أيضا من يقسمها باعتبار الموضوع على غرار أحمد الهاشمي في كتابه جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب فيقول: "تنقسم الرسائل باعتبار موضوعها إلى ثلاثة أقسام: الأول الرسائل الأهلية والثاني الرسائل المتداولة، والثالث الرسائل العلمية"[1].

وعلى العموم وجب علينا أن نتساءل حول هذا الموضوع حتى وإن كان تساؤلنا بديهيا، إلا أننا يجب أن ننطلق من سؤال معين وهو: ما هي أنواع الرسائل الأكثر شهرة وانتشارا في الأدب العربي بصفة عامة؟ وفي الفترة العثمانية بالجزائر بصفة أخص.

"بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت باب العميد" مقولة مشهورة جعلت من الكثيرين يعتقدون أن الرسالة قد ظهرت بعد مجيء الإسلام بفترة طويلة ولكن هذا ينطبق عن الرسائل التي تتميز بخصائص فنية معينة، أما باقي الرسائل فقد ذكرنا سابقا أنها عرفت منذ العصر الجاهلي مرورا بصدر الإسلام وما تلاه من عصور وفي هذا الشأن يقسم حسين علي محمد الرسائل إلى ثلاثة أنواع:

[1] أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، المكتبة التجارية الكبرى، ج1، مصر، ط27، 1969، ص 45.

أولها: الوصايا: "وهي تلك الرسائل التي أرسلها الخلفاء الراشدون إلى من ولّوهم على الأمصار يطلبون منهم السير في الحكم والحرب والقضاء على طرق معينة، ومنها ما يكتبه الآن حكام الدول إلى سفرائهم أو من يقومون بمهام معينة لهم"[1].

أما **ثانيها** فهي: الرسائل الشخصية وتنقسم إلى:

أ- **الذاتية:** "وهي التي يكتبها الشخص إلى صديقه، أو قريبه، أو زميله وتسمى بالرسائل الأهلية، ويعبر فيها الكاتب عن نفسه تعبيرا حرا بلا قيود[2] والتي يتفق فيها مع أحمد الهاشمي الهاشمي في قوله "الرسائل الأهلية -وتعرف برسائل الأشواق- هي ما دارت بين الأقارب والأصدقاء وأسفرت عن مكنون الوداد، وسرائر الفؤاد، ولا حرج على الكاتب إذا بسط فيها الكلام على سجيته، أخفى السؤال في أحوال أصحابه، وتنفرد هذه الرسائل بأن يطلق الكاتب فيها العنان للقلم ويتجافى عن الكلفة ويعدل عن الانقباض...آخذا بقول أبي الأسود الدؤلي:

لا ترسلن رسالة مشهورة لا تستطيع إذا مضت إدراكها[3]

ب- الأدبية: "وهي تلك التي يرسلها أديب إلى أديب آخر مناقشا إياه، أو متحدثا في قضية أدبية، أو عن خبرته في عصر من العصور، وهذه يجب نشرها بعد وفاة صاحبها، خدمة للأدب بعد استبعاد ما يسوء منها"[4].

أما النوع الثالث فيسميها بالرسالة الرسمية (الإدارية): "وهي التي ترسلها إدارة من الإدارات، أو هيئة من الهيئات إلى فرد من الأفراد أو العكس"[5].

---

[1] حسين علي محمد، التحرير الأدبي دراسات نظرية ونماذج تطبيقية، ص 151.

[2] نفسه، ص 752.

[3] أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ص 45.

[4] حسين علي محمد، التحرير الأدبي دراسات نظرية ونماذج تطبيقية، ص 152.

[5] نفسه، ص 152.

– أما أحمد الهاشمي فيقسم الرسائل باعتبار موضوعها إلى ثلاث أقسام أولها: الرسائل الأهلية وقد ذكرناها سابقا وإلى هذا النوع "ترجع مكاتبات الشوق، والتعارف قبل اللقاء، والهدايا، والاستعطاف والاعتذار"[1].

وثانيها: الرسائل المتداولة: "ويدخل في هذا النوع من الرسائل: رسائل حسن التقاضي والطلب، رسائل الشكر، رسائل النصح والمشورة رسائل الملامة والعتاب، رسائل الشكوى، رسائل العيادة، رسائل التهاني، رسائل التعازي والتأبين، رسائل الأجوبة، رسائل الوصايا والشفاعات، رسائل التنصل والتبرؤ"[2].

أما ثالثها فهي الرسائل العلمية: "وهي مقالات في المطالب العلمية أو المسائل الأدبية، وإنما سميت بالرسالات، لأن أصحابها يرسلونها إلى من اقترحها عليهم، ويسلك فيها صاحبها مناهج الاسترسال، والمخاطبات البليغة"[3].

كانت هذه بعض الأنواع للرسائل التي أردنا أن نشير إليها من باب الإطلاع أكثر قبل أن نتطرق إلى أكثر الأنواع شهرة وانتشارا في الأدب العربي عامة وفي أدب الجزائر العثمانية خاصة فيما يلي من عناصر.

1– أدب الرسائل في الجزائر العثمانية: عرف الأدب الجزائري خلال هذه الفترة نوعا من الركود للعديد من الأسباب ولعل أهمها "أن معرقلات نمو اللغة وانتشار الأدب كانت أقوى من المشجعات، فالولاة كانوا لا يفقهون العربية ولا يتذوقون أدبها بالإضافة إلى ضعف مستوى الثقافة، وإلى منافسة اللغة التركية (بل واللغات الأوروبية الأخرى التي كان بعض الباشاوات يتكلمونها لأنها لسانهم الأم) للغة العربية في الدواوين وفي المجالس الرسمية...

[1] أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ص 46.
[2] ينظر: للمرجع نفسه، ص 99– ص 191.
[3] نفسه، ص 223–224.

يضاف إلى ذلك أن الفئة المثقفة، كما عرفنا، قد انحصر نشاطها في بعض الوظائف الرسمية التي لا علاقة لها بالأدب وتذوقه وتشجيعه"[1].

فهذه الأسباب حالت دون نشاط الحركة الأدبية في تلك المرحلة ورغم ذلك فإن أدب الرسائل قد احتل مكانة لا بأس بها بالمقارنة مع ما سبق ذكره من معوقات وعراقيل جمة، والرسائل التي كتبت خلال العهد العثماني والتي سنتناول عينات ونماذج منها في هذا الفصل تؤكد ذلك، "ومن العادة أن تقسم الرسائل إلى رسمية (ديوانية) وإخوانية، وقبل الخوض في كل نوع نود أن نذكر بأن بعض الجزائريين كانوا مكثرين في كتابة الرسائل وبعضهم كانوا مقلين... فعبد الكريم الفكون* مثلا كانت له علاقات كثيرة ومراسلات تبعا لذلك، وكذلك كان الأمر مع أحمد المقري وسعيد قدورة وأحمد بن عمار، ومن حسن الحظ أن الوثائق تحفظ لنا نماذج من هذه الرسائل"[2] سواء الإخوانية منها أو الديوانية والتي لاحظنا من خلال إطلاعنا على بعضها أنها كانت متميزة حقا بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

2- أنواع الرسائل: إن موضوع الرسالة هو الذي يفرض نوعها بالضرورة وقد شاع في عهد العثمانيين نوعان من الرسائل حسب تقسيم النقاد العرب: قسم رسمي (ديوانية)، وقسم خاص (إخوانية، شخصية، اجتماعية)، ولكن قبل التطرق إلى هذين النوعين نشير ولو بإيجاز إليهما في عصر صدر الإسلام، وعهد الخلفاء الراشدين أين عرفت الرسائل – كفن نثري- تطورا كبيرا من خلال توظيف المعجم القرآني ما زادها قوة وبلاغة وفصاحة وقدرة على التأثير، ولقد أصبحت الرسائل وسيلة مهمة لأداء حاجات الرسول السياسية والدينية، فاتخذها

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 178-179.

* هو عبد الكريم الفكون بن محمد بن عبد الكريم الفكون التميمي القسنطيني، ابن عائلة ذات تاريخ عريق منها شعراء بارعين، علماء، ومتصوفة، وقضاة، ولد في قسنطينة (1580م/988هـ) وأبوه أحد كبار المدرسين أخذ العلم على كثير من الشيوخ منهم، يحيى الأوراسي، سليمان القشي، عبد العزيز النقاتي...داهمه مرض خطير توفي على إثره سنة 1662 (ينظر: الفكون، منشور الهداية، ص7، أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986، ص57-58، ص 61، ص 68.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 196.

منهجا قديما واعتمدها أسلوب صحيحا لنشر مبادئ دعوته، فشرع يكتب الرسائل إلى العرب في الجزيرة وما جاورها يدعوهم إلى الإسلام كما راسل الملوك الأعاجم، وكانت الرسائل النبوية تعالج موضوعات تشريعية وتوجيهية لها صلة بالدين الجديد، فشرع النبي صلى الله عليه وسلم يبعث الرسائل المختلفة يشرح فيها الأصول والأحكام والسنن"[1].

إذن فيمكن تصنيف الرسائل النبوية حسب موضوعاتها إلى:

"أ- رسائل الدعوة إلى الإسلام.

ب- رسائل تشريعية توجيهية توضح الفرائض والأحكام.

ج- رسائل النبي إلى بعض أصحابه في الأمور شخصية وإلى غيرهم في أمور مختلفة"[2].

وهو تقسيم لا يختلف عن التقسيم الذي عرف عند معظم النقاد والأدباء حيث قسموا الرسائل في العصر الإسلامي وعهد الخلفاء إلى:

أ- **رسائل ديوانية:** نسبة إلى ديوان الرسائل التي تصدر عنه، وفي هذا يقول عبد العزيز عتيق[3]: "وهي الصادرة عن ديوان الخليفة، والأمير يوجهها إلى ولاته وعماله وقادة جيوشه، بل إلى أعدائه أحيانا منذرا متوعدا... وتتنوع هذه الرسائل فهي تشمل: الرسائل التي تصدر مشتملة على تولية العهد، وتولية القضاء، والولاة، وما يتصل بأمور الرعية، كما أنها تشمل أيضا الرسائل التي تكتب عن الخليفة أو الملك أو الوزير إلى من هو مثله من أجل التهنئة أو البشارة أو المتابعة أو التعزية وما شابه ذلك.

[1] جعفر أجورلو، الترسل في العصر الجاهلي والعصر الأموي، www.diwanalarab.com تاريخ الإطلاع: 2017/07/24، الساعة 13:50.

[2] نفس الموقع.

[3] عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1972، ص 223.

وقد تناولت الرسائل الديوانية آنذاك "موضوعات عدة على غرار: رسائل الجهاد والفتن والاضطرابات الداخلية التي شهدتها الدولة الإسلامية بعد التشتت والتمزق الذي أصابها"[1].

ويتحدث في هذا الشأن فوزي سعد عيسى فيقول: "كانت مبايعة الخلفاء من الموضوعات التي تناولتها الرسائل الديوانية، وقد مالت كتب المبايعات إلى الإطناب والتطويل، وكان الكاتب يستهلها بالتحميد، وكثيرا ما يطيل في تحميده حتى يشبه خطبة دينية قائمة بذاتها"[2] ومن الموضوعات التي تتصل أيضا بهذا النوع من الرسائل "ما كان يكتبه الكاتب إلى الولاة بتوجيهاتهم من خلفاء يذكرونهم فيه بمسؤوليتهم في المحافظة على الأمن ومتابعة شؤون وأحوال الرعية والعمل على استقرار الأمور"[3].

ونلمس مما سبق أن للرسائل الديوانية آنذاك خصائص معينة كالتزام الكاتب في صدر الرسالة بالتحميدات خاصة في مواضيع التولية أو رسائل الجهاد، أيضا تضمنت آيات قرآنية لتدعيم الآراء والحجج وهذا ليس بالغريب على الكتابة في عصر صدر الإسلام وما شهدته من تأثير للإسلام كان واضحا وكبيرا في كل أنواع الكتابة وخاصة الرسائل منها.

ب- رسائل إخوانية: يطلق على جميع الرسائل غير الديوانية وهو "الذي يكتبه الناس بعضهم إلى بعض في موضوعات إخوانية كالتهنئة والتعزية والبشارة والعتاب، وغير ذلك من أمور الحياة يعبر بها كاتبها عن الشوق والحنين للأهل والأصحاب"[4].

وفي هذا النوع من الترسل يقول القلقشندي: "الإخوانيات: وهي جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان، جمع أخ، والمراد المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء وفيه طرفان"[5] وما يلاحظ عن

[1] ينظر: ناصر بوصوري، فن الترسل في العهد الرستمي، ص 31.
[2] فوزي سعد علي، الترسل في القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية، 1991، ص 18.
[3] نفسه، ص 26-27.
[4] ناصر بوصوري، فن الترسل في العهد الرستمي، مخطوط مذكرة ماجستير، ص 33.
[5] القلقشندي، صبح الأعشى في كتابه الإنشاء، ج8، ص 126.

عصر صدر الإسلام أن الرسائل الإخوانية فيه كانت قليلة جدا بالمقارنة مع الرسائل الديوانية، وهذا قد يرجع لطبيعة ظروف المرحلة التي كان يعيشها المسلمون آنذاك وما سادها من جدية في العمل على إعلاء راية التوحيد ونشر الإسلام والحروب والفتوحات.

ولم نكد نجد في هذا العصر شيئا من هذه الرسائل و"ما وصلنا منه رسالة إخوانية واحدة للنبي – صلى الله علية وسلم– يعزي فيها معاذ بن جبل –رضي الله عنه– في ابن له مات، وقد ضاع أكثر رسائل العهد الأموي من هذا النوع وما بقي منها فهو في النصح والإرشاد والعتاب والتعزية والاعتذار والشفاعة، والرجاء وتبادل الآراء"[1].

وقد عدد القلقشندي أنواع الرسائل الإخوانية حتى أوصلها إلى سبعة عشر نوعا في مؤلفه صبح الأعشى في صناعة الإنشا وهي: "التناهي التعازي، التهادي والملاطفة، الشفاعات والعنايات، الشوق، في الاستزارة في اختطاب المودة وافتتاح المكانية، في خطبة النساء، في الاسترضاء والاستعطاف والاعتذار، في الشكوى، في استماحة الحوائج، في الشكر، في العتاب، في العيادة والسؤال عن حال المريض، في الذم، في الأخبار، في المداعبة"[2].

ويتبين مما سبق ذكره من أنواع للرسائل الإخوانية أنها مواضيع تصب كلها في الجانب الاجتماعي الإنساني وما يعيشه الفرد من أحداث يومية ترجمها على شكل رسائل يفصح فيها عما يجول بقلبه وفكره عن مشاعر وأحاسيس متنوعة.

أما عن موضوعات الترسل الإخواني فتدور أغلبها "حول الجانب الإنساني وما له علاقة بالصداقة والأخوة، والعواطف النبيلة، ويبقى موضوع الصداقة أبرزها على الإطلاق وأكثرها جذبا للكتاب ومن الجوانب التي تطرقت لها:

[1] ناصر بوصوري، فن الترسل في العهد الرستمي، ص 34.

[2] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، ج9، ص 5– ص225.

– الجانب الاجتماعي: اتسع مجال الرسائل الإخوانية لتصل إلى حد الرغبة في التلاقي والمسامرة، والجدير بالذكر أنه لم يشترط فيها النقاد أثناء صياغتها شروطا دقيقة وملزمة لأنه ليس بين الإخوان ما يدعو إلى التكلف في الخطاب"[1].

– الجانب الوعظي: ويعتبر من الجوانب المهمة جدا والتي تطرقت إليها الرسائل الإخوانية كونه يخدم الجانب الديني وبالتالي الجانب الإنساني وهي رسائل "يكتبها بعض الأتقياء إلى الخلفاء والسلاطين والأمراء يحثونهم على الصلاح والتقوى والرأفة بالرعية، والاستعداد للموت، وما أشبه ذلك"[2] كان هذا فيما يتعلق بالرسائل الديوانية والإخوانية في عصر صدر الإسلام وعهد الخلفاء من بعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو كما ذكرنا آنفا عصر تأثرت فيه الكتابة بالإسلام والقرآن الكريم، وكان بمثابة الانطلاقة الفعلية والقوية للنثر الفني بصفة عامة والرسائل بصفة أخص.

وسنحاول فيما يلي من عناصر التحدث عن هذين النوعين من الرسائل في أدب الجزائر العثمانية، من خلال الموضوعات التي تناولتها هذه الرسائل والتي كانت تدور بين علماء الجزائر والباشاوات والحكام آنذاك والعديد من الشخصيات الأخرى.

3- أنواع الرسائل في الجزائر خلال العهد العثماني

لا تختلف أنواع الرسائل في الأدب الجزائري خلال العهد العثماني عن نظيراتها في العصور التي تطرقنا إليها سابقا، ذلك أن موضوع الرسالة هو الذي يفرض نوعها، كما لا يفوتنا أن الرسائل خلال هذه الفترة قد لعبت دورا كبيرا سواء من جانب التواصل وهذا أمر لا بد منه، أو من الجانب الفني الأدبي وهو ما يهمنا أكثر، ذلك أن فن الرسائل هو جزء لا يتجزأ من النثر الفني الذي هو "ذلك التراث العربي الذي آل إلى أبناء هذا القرن الذي اتسم

[1] ينظر: ناصر بوصوري، فن الترسل في العهد الرستمي، مرجع سابق، ص35، ص37.
[2] نفسه، ص 38.

بالحرص عليه، حرص إعجاب به، وعجز عن الإتيان بخير منه... ولكن المصادر لم تنقل لنا إلا القليل من هذا النثر على أن في هذا القدر اليسير نماذج مختلفة من أكثر فنونه التقليدية: الفني الذي تندرج تحته الرسائل، ومنها ضرب قد نسميه تجوزا بالإخوانيات، والمقامات والنثر الديواني، والترجمة والنقل إلى العربية، والخطابة، والأمثال، وفنون أخرى متفرقة"[1].

كما أن الرسائل عرفت تطورات وتغييرات وإن لم تكن كبيرة إلا أنها "مست أصنافها وأشكالها ومكوناتها؛ ولعل أبرز تحول نوعي عرفه فن الرسالة هو كتابة الرسائل شعرا لا نثرا... والملاحظ أن التغيرات والتجديدات التي حاول بعض الأدباء إدخالها على فن الرسالة النثري لم تجد آذانا صاغية، إذ ظلت فنا نثريا بامتياز"[2]، وكيفما كان الحال فإن الرسالة في العهد العثماني تفرعت إلى فرعين أساسيين هما: الرسائل الديوانية (الرسمية)، والرسائل الإخوانية وقد سبق وأن عرفنا كلا منهما وذكرنا الموضوعات التي تنتمي إلى كل نوع.

وعليه "فإذا كانت الرسائل الديوانية –التي يسميها بعضهم بالرسائل السياسية أو السلطانية أو الرسمية– تعالج شؤون الإدارة، فإن الرسائل الإخوانية تصور عواطف الناس ومشاعرهم في الخوف والرجاء والرهبة والمديح والهجاء والتهاني والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية"[3].

وقبل أن نختم هذا العنصر نود فقط أن نذكر بأن سيطرة اللغة التركية على الإدارة في الجزائر قد جعل الرسائل العربية لا تظهر إلا في النادر... وبذلك أضرت باللغة العربية

[1] قصي الحسين، الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني، المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون، لبنان، ط1، 2006، ص 383.

[2] حسن بنيخلف، الرسالة في النثر العربي: البناء والخصائص، www.nayassir.wordpress.com تاريخ العودة إلى المقال 2017/07/25، على الساعة: 15:30.

[3] المرجع السابق.

إضرارا شديدا، وحرمتها من ميدان هي به أولى، ولذلك لا نجد من الرسائل الديوانية العربية إلا القليل"[1].

ورغم ذلك فهذا لم يمنعنا من البحث في الرسائل بنوعيها في تلك المرحلة وسنتناول موضوعات بعض منها في قادم فصولنا.

ثالثا: موضوعات الرسائل في النثر الجزائري على العهد العثماني

لكل رسالة موضوع معين يختلف باختلاف الهدف المقصود من وراء إرسالها، وباختلاف نوعها ومرسلها، وباختلاف زمانها ومكانها أيضا دون أن نغفل الظروف التي كانت وراء كتابتها، كما أن "هناك أنواعا عديدة من الرسائل منها ما هو رسمي، ومنها ما هو أدبي ودبني وعلمي.... إلا أننا نحاول وبقدر الإمكان الاقتصار على النوع الديواني والإخواني، وهذا لتشعبها"[2]، إضافة إلى ذلك فإن تركيزنا على هذين النوعين يساعدنا في تحليل الرسائل بشكل أفضل، والتعرف على موضوعاتها بشكل أحسن.

لقد اهتم القدامى بهذين النوعين اهتماما كبيرا "ومما لا ريب فيه أن الداعي لهذا يقود إلى ضرورة ملحة كانت تتمثل في الضرورة الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والحضارية التي كان قد أوجدها الإسلام في مجتمعاته، والدليل على ذلك أن تعريفهم كان ينصب أو يتركز بصفة خاصة على الغرض، والموضوع"[3].

والرسائل الرسمية مثلا تحتوي على مواضيع جادة تخلوا تماما من الهزل أو السخرية أو الفكاهة لأنها تعنى بالمصلحة العامة وفي هذا الشأن يقول القلقشندي: "والترسل مبني على مصالح الأمة وقوام الرعية لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وتراه الناس في مهمات

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 198.
[2] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ص 81.
[3] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ص 81.

الدين وصلاح الحال وبيعات الخلفاء وعهودهم، وما يصدر عنهم من عهود الملوك، وما يلتحق بذلك من ولايات أرباب السيوف والأقلام الذين هم أركان الدولة وقواعدها. إلى غير ذلك من المصالح التي لا تكاد تدخل تحت الإحصاء ولا يأخذها الحصر"[1].

وهذا ما يميز الرسائل الديوانية عن الإخوانية كونها تتسم بالجدية وتعتبر هادفة وبالعودة إلى موضوعات هذا النوع من الرسائل فهي عديدة نحاول أن نذكر أهمها على الإطلاق، والتي سنأتي عليها بنوع من التمثيل والتحليل وهي مشتركة بين أغلب الرسائل المكتوبة إبان العهد العثماني ونذكر منها:

1- الإشادة بفضل العلماء واحترامهم.

2- طلب المساعدة من العلماء.

3- النصح والدعاء.

4- الوفاء بالعهود.

5- الصرامة والجدية في المعاملة.

6- طاعة ولي الأمر.

7- تفقد أحوال الرعية.

هذا، وهناك مواضيع أخرى وردت من خلال الرسائل الديوانية ولكنها لم تكن مشتركة في جل الرسائل ونخصها بالإشارة لا أكثر وهي:

1- الجهاد ضد الإسبان.

2- تقديم النصائح للرعية.

[1] القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج1، ص 60.

3- المحافظة على الأمن.

4- المحافظة على استقرار الأمور.

وتعتبر هذه المواضيع من أهمها على الإطلاق بالنسبة للرسائل الديوانية، أما عن النوع الثاني وهو الرسائل الإخوانية فهي تختلف من حيث موضوعاتها عن الديوانية وأيضا من ناحية الجدية لغلبة العاطفة عليها أكثر من العقل فهي تصوير لحالة نفسية يجتاحها إما الشوق أو الفرح أو الحزن، أو الرضا، أو الغضب وغيرها من الحالات الأخرى، وكانت مجالا للتنافس بين الكتاب لإظهار البراعة والإبداع فوفروا لها عناصر المتعة الفنية من تصوير وصياغة وموسيقى، فجمعت بين المتعة الوجدانية، والمتعة الفنية، وأحدثت بذلك تأثيرا قويا في نفوس الناس، مما جعل بعض الشعراء ينجذبون إليها ويتخذونها وسيلة لتصوير عواطفهم بعد أن أصبح كثير من الناس يفضلون المنثور على المنظوم"[1]، ورسائل العهد العثماني لا تخلوا من هذه البراعة ولا من المتعة الفنية، وقد تناولت هي الأخرى مجموعة من المواضيع لا تقل أهمية عن سابقاتها من مواضيع الرسائل الديوانية والتي اشتركت فيها الكثير عن رسائل ذلك العهد ولعل أهمها:

1- المدح والثناء.

2- الدعاء للمرسل إليه وطلب الدعاء منه.

3- إبداء مشاعر الشوق والحنين.

4- النصح والموعظة.

5- السؤال عن حال العلماء الجزائريين وعن حال الحكام العثمانيين.

6- التنويه بفائدة الرسائل (التراسل).

[1] فوزي سعد علي، الترسل في القرن الثالث الهجري، ص 35.

كما أن هناك أيضا مواضيع أخرى تناولها الكتاب في رسائلهم ولكنها ليست مشتركة بكثرة بين هذه الرسائل التي هي محل بحثنا نذكر منها:

1- الاستعطاف.

2- شكوى الحال.

3- مدح الباشاوات.

4- الإشادة بأصل الأتراك.

5- التنويه بفضل الأتراك.

وكلها موضوعات تندرج تحت فن الترسل الإخواني، وفيما يلي سنحاول التطرق لكل الموضوعات المذكورة آنفا مع شيء من التحليل والتمثيل.

1- موضوعات الرسائل الديوانية:

يتبين لنا من خلال الرسائل الديوانية (الرسمية) إبان الفترة العثمانية بالجزائر والتي دارت بين العلماء والباشاوات وغيرهم من الشخصيات أنها اشتركت في العديد من الموضوعات الهامة والتي اتسمت بطابع الجدية والابتعاد عن التصنع والتكلف لما تقتضيه الحاجة منها ونذكر على سبيل المثال لا الحصر:

أ- **الإشادة بفضل العلماء واحترامهم:** لقد حظي العلماء بمكانة كبيرة عند الحكام الأتراك ومنزلة رفيعة بينهم لما أدوه من دور كبير ما جعل هؤلاء الحكام يشيدون بفضلهم وبدورهم الكبيرين ونلحظ ذلك في رسالة وجهها يوسف باشا* إلى الشيخ محمد ساسي البوني** حيث

* يوسف باشا: تولى حكم الجزائر عدة مرات بين 1044 و1064 وجه ثورة عظيمة كادت تعصف بالنظام العثماني كله وهي الثورة المعروفة باسم (ثورة ابن الصفري)، وقد عرف عنه أنه كان ممن يقرب إليه العلماء الجزائريين (ينظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، الجزائر، 1983، ص 46-47).

قال فيها "الدوحة التي طابت فروعها وأصولها، والنبعة التي زكت أجناسها وفصولها والسيادة التي أسست على قواعد الولاية مبانيها... سيادة الولي الصالح البركة العارف بالله المسارع في مرضات الله، أبي عبد الله سيدي محمد ساسي، ... هذا ولقد انتهى إلينا كتابكم البهي وخطابكم الشهي وما احتوى عليه من طلب العفو عمن ظلم... فالآن الأمر هو ما شفهناكم به من ترك ما تركنا"[1] وجاءت كرد على رسالة محمد ساسي البوني ليوسف باشا وبعد مخاطبته له بألقاب الإطراء أعلمه أنه سيعفو عمن أخطأ من العامة تقديرا للشيخ محمد ساسي، وهذا دليل على المكانة التي كان يحتلها علماء الجزائر عامة في نفوس الحكام الأتراك وما لهم من دور كبير آنذاك.

وفي رسالة أيضا وجهها محمد بكداش* إلى أحمد بن قاسم البوني** نلحظ ما للأخير من مكانة ومنزلة عند محمد بكداش حين قال: "...مولانا المحب الأمثل، الأعز الأكمل، نهج الأفاضل وروضة الأماثل، كنز العلوم السنية وجوهرة الألفاظ الذهبية، جمال الإسلام، عمدة الأنام شمس سهاد الكمال وبدر سناء الجمال، مولانا وسيدنا ووسيلتنا إلى ربنا الأمجد يتيمة الدهر وفريدة العصر الشيخ الحاج أحمد... ولقد بلغنا ما تفضل به مجدكم من الفخار، فجازاكم الله خيرا وشكر فضلكم"[2] وفي هذا النص من الرسالة إشادة من محمد بكداش بأحمد

** محمد ساسي البوني: كان مرابطا وعالما في عنابة خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر (17م) منهم بالمبالغة في التصوف له مؤلفات معظمها في علم التصوف وكان شاعرا وأديبا منشئا (ينظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، مرجع سابق، ص 48).

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، الجزائر، 1983، ص 58-59.

* محمد بكداش: من باشاوات الجزائر المثقفين الذين ينظمون الشعر بالعربية ويخطب بها، تولى حكم الجزائر سنة 1118هـ وفي هذه استرجعت وهران من إسبانيا، قتل بعد أربع سنوات من توليه الحكم على يد خصومه (ينظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، مرجع سابق، ص 48-49).

** أحمد بن قاسم البوني: أحد أكبر العلماء الجزائريين ولد سنة 1063، ترك أكثر من مائة تأليف جمعها في رسالة سماها (التعريف بما للفقير من تأليف) كتب في كل العلوم تقريبا، من شيوخه بنى الشاوي وبركات بن باديس توفي سنة 1139هـ، (ينظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 49).

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص60، ص62.

البوني وعائلته وبفضل العلماء الجزائريين، وهو دليل قاطع على الاحترام والتقدير الكبيرين لهم.

ولعل أبرز الموضوعات التي لوحظت أيضا من خلال المراسلات التي تتم بين علماء الجزائر والحكام الأتراك آنذاك هو موضوع احترامهم وتقديرهم وإعطائهم مكانة تليق بهم كطبقة مثقفة لطالما كانت اليد المساعدة على النهوض بركب الأمم والخروج بها من ظلمات الجهل إلى نور العلم، والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن الحكام العثمانيين كانوا يقدرون العلماء بل ويستشيرونهم في الكثير من المسائل التي تخدم البلاد والأمثلة كثيرة منها الرسالة التي بعث بها محمد بكداش إلى الشيخ أحمد بن قاسم البوني وفيها: "أقر الله بطلعتكم السنية العيون، وزادكم علما إلى علمكم الفاخر المصون... هذا وإن محبتكم في قلوبنا رسخت، وشموسها في أفكارنا بزغت... فأنتم وأيم الله دار العلم والولاية، والمنزلة الشامخة والرعاية، أخذتم نهج القوم عن أسلافكم، فصار الحسن من بعض أوصافكم:

فإن قيل لي من ذا الذي قد وصفته أقول دعوني هو ذا الخِل أحمد

ونجل لقطب قد تحقق مجده أبو قاسم لازال، والله يحمد

عليه سلام من محب وعاشق سلام كريم كل حين يجدد[1]

وهنا نجد أن محمد بكداش قد وظف الشعر أيضا في رسالته وهذا ما زادها قيمة فنية وجمالية أكثر، وأبرز فيها مدى حبه واحترامه للعلم والعلماء ونجد أيضا في رسالة ليوسف باشا إلى محمد ساسي البوني ما يدل على الاحترام الكثير له حين قال: "الدوحة التي طابت فروعها وأصولها، والنبعة التي زكت أجناسها وفصولها، والسيادة التي أسست على قواعد الولاية مبانيها، والمجادة التي طابقت مناهج الاستقامة ألفاظها ومعانيها، سيادة الولي الصالح

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 60-61.

البركة العارف بالله المسارع في مرضات الله، أبي عبد الله سيدي محمد ساسي أدام الله بركته، وأعلى في مدارج الإكمال رتبته"[1].

وهذا المقطع أيضا يدل على الاحترام والتقدير الكبيرين الذي يكنهما يوسف باشا لشيوخ وعلماء الجزائر.

ب- طلب المساعدة من العلماء الجزائريين: ومن المواضع التي دارت بين علماء الجزائر والحكام الأتراك، موضوع طلب يد المساعدة منهم للخروج من الأزمات والصراعات الواقعة آنذاك، فقد كانوا يستشيرونهم ويأخذون بنصائحهم التي كانت بمثابة الكنز للحكام العثمانيين ومن ذلك ما نجده في رسالة يوسف باشا إلى الشيخ محمد ساسي البوني حيث قال: "...فلتخولوا" رضي الله عنكم الخاصة والعامة بالذكرى والموعظة الحسنى، "كدأب العلماء في طريقتهم المثلى،... فردوا شاردهم إلى الله تعالى بالدعاء والدعوة، ولكم في نبيكم صلى الله عليه وسلم وأصحابه أسوة..."[2]. وهنا طلب للمساعدة من العلماء في إرشاد العامة من الناس والخاصة وتذكيرهم بأمر دينهم ودنياهم وتذكيرهم بقدوتهم في ذلك (رسول الله صلى الله عليه وسلم).

ونجد أيضا في رسالة أخرى بعث بها يوسف باشا أيضا إلى محمد ساسي البوني يطلب فيها تقديم العون والمساعدة حين قال: "...والواجب عليكم رضي الله عنكم أن تكون أحوالنا منكم ببال وأن لا تدعونا في زوايا الإهمال...".

وهنا يذكر يوسف باشا مرة أخرى الشيخ محمد ساسي البوني بضرورة عدم التخلي عنهم والتفكير فيهم وفق ما يخدم الصالح العام للعباد والبلاد.

---

[1] نفسه، ص 58-59.

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 55-56.

ج- النصح والدعاء: ويعتبران من المواضيع المتداولة بكثرة في الرسائل الجزائرية العثمانية لما لهما من فائدة كبيرة جدا في حياة الحكام من جهة وعامة الناس من جهة أخرى، فالنصائح التي يطلبها هؤلاء الحكام بمثابة الضوء الذي يرشدهم إلى جادة الصواب وإلى الطريق السليم لتسيير شؤون الرعية من جهة ولاتخاذ القرارات المناسبة من جهة أخرى، وكذلك الدعاء فهو التضرع لله القادر على كل شيء خاصة إذا صدر عن أناس قدرتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي هذا الشأن نجد الرسائل التي احتوت على النصح والدعاء كثيرة ونذكر من بينها رسالة يوسف باشا إلى الشيخ محمد ساسي البوني والتي قال فيما: "...ثم بدعوات أمثالكم من الأولياء، ولخطاب أشباهكم في الأتقياء ... فجردنا العزم بحسب ما اقتضاه الحزم بعد إعمال سنتي الاستخارة والاستشارة... أبقاكم الله بركة في البلاد، ورحمة للعباد، آمين"[1].

وما نلاحظه في هذه الرسالة أن الدعاء قد يكون من طرف المرسل إلى المرسل إليه، أو يكون بطلب من لمرسل، يطلب فيه الدعاء له، وكذا النصيحة فهي الأخرى متبادلة بحسب الموضوع المراد إبلاغه.

ونجد الموضوع نفسه أيضا في رسالة رد فيها الشيخ محمد ساسي البوني مع الرسالة السابقة حيث يقول: "...نسأل الله سرعة تبدلها بأبناء تقر بها العينان، وتلتذ بها الأذنان، وتنشرح بها الأذهان،... ولتعلم أعزكم الله، أن كل شدة مآلها إلى الارتخاء، وأن كل غمة انتهاؤها إلى الانجلاء، وغاية كل متحرك إلى السكون ونهاية كل متكون دنيا إلى أن لا تكون ... نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن كمل فيهما بمشاهداته حتى لا يلتفت إلى سواه عند تنقيص مراداته بمنه وكرمه، أمين يارب العالمين"[2].

[1] المرجع سابق، ص 54-55-56.

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 57-58.

هذا ونجد النصيحة والدعاء أيضا في رسالة أخرى رد بها يوسف باشا على الشيخ محمد ساسي البوني ومنها: "...سير الله لنا ولكم أسباب السعادات، وبلغنا وإياكم من مرضاته جميع المرادات... مكن موضع رجليك قبل مشيك، وتأمل عاقبة فعلك قبل سعيك... والواجب عليكم، رضي الله عنكم... أن لا تنسوا أمة نبيكم صلى الله عليه وسلم من دعاء الخير في الخلوات، وأعقاب الصلوات... والدين النصيحة"[1].

ومن خلال هذه المقتطفات التي تطرقنا إليها نستطيع استنتاج ما للنصائح والدعاء من أهمية وحضور قوي في الرسائل خلال الفترة العثمانية، ورغم أن الرسائل التي ذكرناها تصنف ضمن النوع الديواني إلا أنها لم تخلوا من عنصر الدعاء وهو دليل على تأثر الأدب آنذاك (أدب الرسالة) بالقرآن الكريم، وكذا عنصر النصيحة والتي تعتبر أيضا جزءا لا يتجزأ من الدين الإسلامي الحنيف لقوله صلى الله عليه وسلم (الدين النصيحة).

د- الوفاء بالعهود: يظهر من خلال المواضيع التي نجدها متداولة بين رسائل العثمانيين والجزائريين على حد سواء في تلك المرحلة التأثر الواضح بالإسلام وتعاليمه السمحة، فالوفاء بالعهد سمة من سمات العرب التي اشتهروا بها سابقا كما أنها ذكرت في القرآن الكريم لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿الذِّينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَلَا يُنْقِضُونَ المِيثَاقَ﴾[3]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمَا﴾[4].

[1] نفسه، ص 59-60.
[2] الإسراء، الآية (34).
[3] الرعد، الآية (20).
[4] الفتح، الآية (10).

وقد ورد موضوع الوفاء بالعهد في الرسائل الديوانية ونجد ذلك في رسالة بعث بها الشيخ محمد ساسي البوني إلى يوسف باشا حيث يقول: "وها هو العبد الفقير ليس بناس لكم ودا، ولا بناكث عهدا...."[1].

فقد اعتبر موضوع الوفاء بالعهد من المواضع المتداولة بكثرة في رسائل العهد العثماني، وكذا ضرورة الالتزام بها لزرع الثقة أكثر ومواصلة العمل بطمأنينة أكبر.

هـ- الصرامة والجدية في المعاملة: ومن المواضيع التي تناولتها الرسائل الديوانية آنذاك بكثرة وكانت مشتركة بين الكثير من الرسائل موضوع الصرامة والجدية في المعاملة مع الآخرين سواء كانوا رعية أو أجانب ونجد ذلك في رسالة يوسف باشا إلى محمد ساسي البوني حين قال: "...فلتعلم رضي الله عنكم، أن العامة لا تعرف حقائق المذاهب، ولا تنظر عواقب المثالب والتجارب... لأن من قال مالا ينبغي، سمع مالا يشتهي ومن فعل ما شاء، لقي ما ساء، وقد استوجبوا بفعلهم ذلك الأدب الشنيع والتعزير الفضيع"[2].

هذا، وفي رسالة ليوسف باشا أيضا نجده يركز على ضرورة الانضباط والصرامة أثناء العمل فيقول: "هذا والمراد إعلامكم أنا كنا أولا برمنا عقد العزم على الجهاد لوهران، واستخلاصها من أيدي حزب الشيطان، وإنقاذها من ورطة الكفر والضلال، وإنارتها بنور الإيمان والإسلام وصالح الأعمال... وكاتبناكم بجميع هذا، رضي الله عنكم، لتعلموا حقيقة أمرنا، وتطلعوا على خيبة سرنا ولتخبروا من هنا لكم بالمرام وما عولنا عليه من إصلاح أهل السلام"[3].

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 58.

[2] نفسه، ص 59.

[3] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 54-55.

يتبين لنا من خلال رسائل يوسف باشا إلى محمد ساسي البوني أن الصرامة والجدية في المعاملة أمر لا بد منه، وهو من الأسباب التي تعين الحاكم على تسيير شؤون بلده والتحكم في زمام الأمور.

و- طاعة ولي الأمر: من الموضوعات التي تتواجد بكثرة في رسائل العثمانيين خلال حكمهم بالجزائر، ولعل هذا الموضوع أيضا متداول وبكثرة في الأوساط الدينية والسياسية، فقضية طاعة ولي الأمر، تناولها الدين الإسلامي الحنيف ونوه بضرورتها ونجد ذلك في قوله عز وجل:﴿يَا أَيُّهَا الذِّينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[1]، كما أن طاعة ولي الأمر في المعروف واجبة بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة، وقد لاحظنا أن الحكام الأتراك ركزوا على هذا لأمر في مراسلاتهم التي كانوا يكتبونها إلى علماء الجزائر ومن خلالهم إلى الشعب الجزائري ونجد في رسالة ليوسف باشا حين قال: "... وهو ما لا يخفاكم من انحلال أمور المسلمين بذلك الصقع، وكثرة الخلاف والشنآن، وسائر أنواع الاختلال المذمومة بالشرع، الممجوجة بالطبع، واندراس آثار الطاعة السلطانية التي هي طاعة الله"[2].

وقد ذكر أيضا في رسالة أخرى له ضرورة طاعة السلطان (ولي الأمر) ونوه إلى أن طاعته من طاعة الرسول والله عز وجل فقال: "والتعريف بما يجب عليكم من حقوق السلطان، وأن طاعته من طاعة الرسول وطاعة الرحمان فإليكم معشر أهل العلم، يتوجه هذا الفرض بالخصوص، وأنتم أجدر بما فيه من مقيس مستنبط ومنصوص"[3].

ونجده في هذا المقطع من الرسالة يذكر بضرورة طاعة السلطان الذي يعتبر ولي أمرهم ويخص بالذكر طبقة العلماء والمثقفين.

---

[1] النساء، الآية (59).

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 54-55.

[3] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 59-60.

ز- **تفقد أحوال الرعية:** يعتبر الحاكم في أي نظام وعلى مرّ العصور مسؤولا عن شعبه وعن رعيته ويتوجب عليه دائما الحرص على تفقد أحوالهم ومتطلباتكم وتوفير العدل والأمان والسلام لهم والسهر على راحتهم، وهو ما لاحظناه كموضوع متداول ومشترك في الكثير من الرسائل الديوانية إبان الفترة العثمانية.

ولا أدل من تأثير القرآن في الكتابة النثرية آنذاك وبالضبط في فن الترسل من توظيف المصطلحات التي تخص تفقد أحوال الرعية والاهتمام بهم وهو الأمر عينه الذي تحدث عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وشدد ضرورة الاهتمام به في قوله: ﴿ كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته﴾ وبما أن الحاكم هو القاضي الأول في البلاد فمن واجبه أن يرعى شؤون رعيته بجدية واهتمام كبيرين وقد أشار إلى ذلك يوسف باشا أيضا حين قال في رسالته: "...بأن نتوجه نحو قسنطينة ومن إليها وبعدها، إن شاء الله، بسكرة ومن لديها لامعان النظر في مصالح الرعايا وإخماد نيران الفتنة ودفع البلايا وسماع الشكوى، والقضاء بما تحتويه أحكام التقوى وتوفيق الكلمة، وجمع الأمة المسلمة، وإظهار الحق ومحو الباطل، وتوقير العالم وإرشاد الجاهل، وتمهيد القواعد وتشييد المقاصد، وضبط الفوائد، وإصلاح الفاسد، وتفقد أحوال الحياة، والحكام والولات، وإيضاح معالم الهدى، وإعفاء مراسم الردى"[1].

فالملاحظ أن الحكام اهتموا فعلا لأمر الرعية ودونوا ذلك في مراسلاتهم الرسمية حتى يتم تطبيقها بطريقة قانونية فالاهتمام بأمور الرعية وتفقد مصالحها كان من المواضيع التي أخذت حيزا كبيرا من مراسلات الحكام آنذاك.

كانت هذه مجموعة من الموضوعات التي اشتركت فيها العديد من الرسائل الديوانية التي دارت بين باشاوات الجزائر وعلمائها في الفترة العثمانية.

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 55.

2- موضوعات الرسائل الإخوانية: اختلفت موضوعات الرسائل الإخوانية من رسالة إلى أخرى ومن مرسل إلى آخر، وهذا وفق ما تقتضيه الحاجة من وراء كتابة هذه الرسالة، وما ميزها عن سواها من الأنواع الأخرى أنها تخاطب القلب أكثر من العقل لأن مصدرها القلب، وهذه الصفة موجودة في الشعر أكثر من النثر، ورغم ذلك فإن الرسائل الإخوانية اتسمت بها، وقد لاحظنا أثناء قراءتنا لمجموعة من الرسائل المكتوبة خلال الفترة العثمانية أنها تناولت موضوعات مختلفة وبعضها كان مشتركا بين أغلب الرسائل ما دفعنا إلى استخراجها وربطها ببعض المقتطفات من هذه الرسائل مع شيء من التحليل ولعل أبرزها:

أ- **المدح والثناء:** لطالما ارتبط مصطلح المدح بالشعر أكثر منه بالنثر، ورغم ذلك فالرسائل الإخوانية تحمل في طياتها في المدح الكثير ومن خصائصه "أن لا يكتفي فيه المادح بالثناء بل هو مطالب بحسن الثناء والتنويه، أي إذا مدح فمدحه يجب أن لا يكون بسيط في معانيه وتعابيره... إن المدح هو تمجيد لقيم إنسانية وفضائل أخلاقية تتمظهر في سلوك الممدوح الذي قد يكون قائدا، أو عالما، أو أميرا..."[1]، والمدح يرتبط أشد الارتباط بالثناء أيضا على الممدوح ومن بين الرسائل التي اشتملت على موضوع المدح والثناء نجد رسالة محمد بن محمد القالي التي بعث بها إلى محمد بكداش وفيها: "إن الله تعالى منّ على المسلمين بسيدنا ومولانا سلطان الملوك والأكابر، المخصوص بأفضل الشمائل والمآثر، الإمام العادل، السلطان الفاضل العالم العامل، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، الذي أطلعه، الله في سماء الجلالة بدرا، ورفع له في درجات الأمراء قدرا، وأجرى له على ألسنة

[1] جمال سعادنه، الشعر الجزائري في العهد العثماني موضوعاته وخصائصه الفنية، ص 39.

الخلق ثناء جميلا وذكرا، فأصبح الدين مبتهجا بكريم دولته، وجناب الكفر مهتظما بعظيم صولته، مولانا وسيدنا محمد خوجا الدولاتلي*"[1].

ونلاحظ من خلال هذا المقتطف أن القالي قد مدح الباشا نثرا وأثنى عليه بعبارات جميلة جدا دلّت على مدى تحكم القالي في صياغة ألفاظه وعباراته بطريقة جميلة وفنية.

كما نجد أيضا المدح والثناء في رسالة أخرى بعث بها عبد الكريم الفكون إلى أحمد المقري ومن ضمن ما ذكره: "إلى الشيخ الشهير الصدر التحرير ذي الفهم الثاقب والحفظ العزيز الأحب في الله المؤاخي من أجله سيدي "أبي العباس أحمد المقري"[2].

وتكاد لا تخلو رسالة في هذا النوع من المدح والثناء، وهذا دليل قاطع على الاحترام الكبير الذي كان يكنه المتراسلون إلى بعضهم بغض النظر عن هوية المرسل أو المرسل إليه، ما زاد الرسائل قيمة إنسانية تضاف إلى قيمها الفنية والأدبية.

ب- الدعاء للمرسل إليه وطلب الدعاء منه: ومن المواضيع التي تنتشر وبكثرة في الرسائل الإخوانية موضوع الدعاء ويتعلق الأمر بدعاء المرسل لنفسه ولغيره من الناس وللمرسل إليه أيضا، كما أنه وفي الوقت نفسه يطلب الدعاء له لما للدعاء من جانب ديني وروحي قوي جدا بالنسبة إليهم، ضف إلى ذلك أن الكاتب في الرسائل التي بين أيدينا يدين بالإسلام ومتأثر بكتاب الله ويدرك أهمية الدعاء، خاصة في ظهرا الغيب وما قد ينتج عنه من حلول للمشكلات وتسيير للسبل وقضاء للحاجات.

* هذا هو لقب الباشاوات في الجزائر منذ العهد المعروف بعهد الباشاوات، أي منذ سنة 1075هـ، والعبارة تعني أنه باشا وداي في نفس الوقت، أي أنه ممثل للسلطان وحاكم للجزائر، أي صاحب قوة ونفوذ (ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 197).

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 197.

[2] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 308.

ومن بين الرسائل التي ذكر فيها الدعاء نجد ما كتبه الفكون إلى شهاب الدين أبي العباس أحمد المقري وهو يقول: "فإني أحمد الله إليك وأصلي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم، فإني أحوج الناس إليه، وأشدهم في ظن إلحاحا عليه"[1].

وفيها إصرار كبير على طلب الدعاء من المرسل إليه، ولعل الرسالة كتبت في الأصل لا لشيء سوى لطلب الدعاء، وكذا لدعاء المرسل لنفسه أيضا في قوله: "فالله أسأل حسن الإلطاف، والستر عما ارتكبناه من التعدي والإسراف، وأن يجعلنا من أهل الحمى العظيم، وممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم، سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤوف الرحيم"[2].

وفي رسالة أخرى وجهها تاج العارفين إلى الفكون نجده يتحدث أيضا عن أهمية الدعاء حين يقول: "وأعلمكم أني لا أنساكم من الدعاء كما أطلب ذلك منكم، لاسيما بإصلاح الدعاء بظاهر الغيب مستجاب"[3].

فالملاحظ إذن من كل ما سبق أن الرسائل الإخوانية اعتمدت بنسبة كثيرة جدا على موضوع الدعاء وطلبه لما له من فائدة جمة تعود على المرسل والمرسل إليه على حد سواء.

ج- إبداء مشاعر الشوق والحنين: الرسائل الإخوانية هي في أصلها مشاعر تصدر من شخص إلى الآخر عن طريق الكتابة والترسل وبغض النظر عن نوع هذه المشاعر (حزن، فرح، عتاب، لوم...)، إلا أنها مشترك في الكثير من الأحيان في عنصر الشوق والحنين للآخر، فتنتقي أجمل الألفاظ وأرقها وأعذبها لتوضع في رسالة كي تنقل ما يحس به المرسل

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 308.

[2] نفسه، ص 309.

[3] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص 200.

من شوق وحين للمرسل إليه، وفي هذا الصدد نجد ما كتبه الفكون إلى تاج العارفين في رسالة ومن بين ما تضمنته: "هذه تحية حلا نحرها، وغلا طيبها وعطرها أهديت إلى محل اللوذعي النبيه، العالم العلامة الوجيه، تحرير زمانه وتاج وقته وأوانه، من أثار من وهج الحب لله ما كان في القلب دفين، سيدي محمد تاج العارفين:

أهـــــدي إليـــــك تحيـــــة أزكـــــى مـــــن الـــــورد رائـــــح
تلقـــــاك فـــــي كـــــل نـــــادى وأنـــــت غـــــاد ورائـــــح[1]

فنجده قد اختار ألفاظا موحية ومعبرة عن عاطفة جياشة قوية مبدية لمشاعر صادقة يملؤها الشوق والحنين كما وظف أبياتا شعرية لتقوى حجته في ذلك أكثر وهذا ما نلمسه في الرسائل الإخوانية دون سواها.

فالشوق والحنين من أصعب الأحاسيس التي قد تواجه الإنسان الشوق وحنين للأهل للوطن، للأصدقاء...) وقد ظهر جليا في رسائل الأدب الجزائري خلال العهد العثماني، ولا غرابة في ذلك إذا عرفنا أن هذه الفترة بالذات كان الحضور الصوفي فيها قويا فلقد "كان التصوف الأرض الخصبة التي نما فيها الاغتراب والحنين والشوق الدائم الذي لا ينقطع... الشوق عند الصوفية هبة خص الله بها المحبين فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه وارتحل إليه... وقد قسم أبو العباس المرسي الشوق إلى قسمين: شوق على الغيبة لا يسكن إلا بلقاء الحبيب، وشوق النفوس وشوق الأرواح على الحضور والمعاينة"[2]، ولعلها من الأسباب التي التي ساعدت في انتشار رسائل الشوق والحنين التي تندرج ضمن الرسائل الإخوانية وكذلك ما ساعد على تواجدها بكثرة هو الكتابة النابعة من إحساس صادق وما يلاحظ في هذا النوع

[1] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص 201-202.

[2] أيمن غريب قطب، خواطر عن الحنين والشوق والاغتراب (تأملات نفسية)، www.easydns.hiabloy.com تاريخ العودة إلى المقال: 2017/07/28 على الساعة: 00:15.

من الرسائل توظيف البديع بكثرة دون إخلال بالمعنى العام ولا بشكل الرسالة بل زادها جمالا وأضفى عليها جرسا موسيقيا رائعا خاصة ما تعلق بالسجع والجناس.

د- النصح والموعظة: ورد تعريف النصيحة في مختار الصحاح بقوله: ن ص ح –نصحه ونصح له ينصح بالفتح فيهما (نصحا) بالضم، ونصاحة بالفتح وهو باللام أفصح قال الله تعالى: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾[1]، والاسم النصيحة والنصيح الناصح وقوم نصحاء بوزن فقهاء... وانتصح فلان قبل النصيحة يقال: انتصحني فإني لك ناصح"[2] هذا لغة أما اصطلاحا فلا يختلف التعريف كثيرا عن التعريف اللغوي وهي من الإخلاص والنقاء وحب الخير للمنصوح.

أما عن الموعظة فقد ورد في مختار الصحاح بقوله: "الوعظ، النصح، والتذكير بالعواقب وقد وعظه من باب وعظ وعظه أيضا بالكسر (فاتعظ) أي قبل الموعظة يقال: السعيد من وُعِظَ بغيره، والشقي من اتّعظ به غيره"[3].

إذن فالموعظة تذكير بالعواقب التي قد تنجر عن عمل ما وفيها استشهاد بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وكثيرا ما ورد هذا الموضوع (النصح والموعظة) في الرسائل الإخوانية خلال العهد العثماني لما له من فائدة كبيرة ونتائج إيجابية على كلا الطرفين (المرسل، والمرسل إليه) ففيهما تذكير بالآخرة وبضرورة العدل والمساواة إن كانت الرسالة موجهة مثلا إلى جهة حاكمة، أو تليين للقلوب ونسيان للأحقاد وإذابة للجليد إذا كانت موجهة لأخ أو صديق أو غير ذلك.

---

[1] الأعراف، الآية (62).

[2] الرازي، مختار الصحاح، ص 276.

[3] الرازي، مختار الصحاح، ص 303.

ونظرا لكون هذا الموضوع هاما في حياة الجزائريين في الفترة العثمانية، فقد ورد في العديد من الرسائل نذكر منها رسالة الفكون إلى محمد تاج العارفين وفيها قال: "...مع الوصاية بما هو معهود مني لكل محب متباعدا ودنا بمراقبة المولى سرا وعلانية، والوقوف ببابه تعالى رغبة ورهبانية، مع إدخار صالح الأعمال ليوم الافتقار، والوقوف بين يدي الملك الجبار الذي لا تخفاه خافية"[1] .

ففي المقتطف تذكير بخشية الله خوفا من يوم اللقاء مع ضرورة فعل الخير وإدخاره ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وقد امتزجت فيها النصيحة بالموعظة، وقال في الرسالة نفسها أيضا "ولنكف العنان، لما سأذكره لكم الآن، وهو إنما أتحفتموه من در نظامكم، المسفرة عن فصاحة خطابكم احتوى على أن سبب الالتحاق هو ما شنف مسامعكم من سني الأوصاف فحذار حذار، هذه لفتة قرار"[2] وفيها أيضا تذكير بضرورة اتخاذ الحذر وعدم تصديق كل ما يقال.

وقد لاحظنا من خلال ما سبق أن كلا من النصح والموعظة كانا لموضوع واحد اشتركت فيه الكثير من الرسائل الإخوانية آنذاك لما له من فوائد تعود على المرسل والمرسل إليه والقارئ عامة، "دون أن تخلوا هذه الرسائل عن خصائص نفسية وأدبية سنحاول التطرق إليها في قادم فصولنا.

هـ- السؤال عن حال العلماء الجزائريين وعن حال الحكام العثمانيين: ذكرنا سابقا أن الرسائل بنوعيها قد اتسمت باستخدام الألفاظ والعبارات الدالة على الاحترام الكبير والتقدير الذي يكنه الحكام الأتراك لعلماء الجزائر عامة وكذا التنويه بخصالهم وفضلهم على الأمة آنذاك، وهاهي الرسائل الإخوانية أيضا تضم لنا موضوعا لا يبتعد عن الأول وهو السؤال

[1] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 203.

[2] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 203.

عن حال الحكام العثمانيين من قبل الحكام الجزائريين والحرص على الاطمئنان عليهم وهذا ما ورد في رسالة الفكون إلى تاج العارفين حيث قال فيها: "فبادر مغتنما وتنضا مجيبا ومسلما، مع السؤال الأتم عليكم، وعلى من لاذ بكم"[1]، وقد ورد في الرسالة نفسها أيضا "وسلم لنا على السادة الفقهاء الأخيار الذين هم فلان وفلان (وهم الذين ذكر أسماءهم في رسالته المذكورة*)"[2].

وقد يكون السؤال عن حال العلماء الجزائريين من قبل الحكام الأتراك أو العكس أو بين العلماء أنفسهم، وهي أحد الموضوعات التي وردت بكثرة في الرسائل الإخوانية والتي دلت على الاهتمام الكبير بأحوال المرسل إليه بغض النظر عن الجهة المرسلة وهو ما يؤكد حقيقة العلاقة الطيبة التي كانت تسود المجتمع الجزائري إبان العهد العثماني.

و- التنويه بفائدة التراسل: تقوم الرسالة على ثلاثة عناصر: المرسل والمرسل إليه ومحتوى الرسالة وهدفها الأول هو التواصل بين الناس وإبلاغ الخبر والمعلومة بشتى أنواعها، ونظرا لما للتراسل من فائدة كبيرة لا يمكن الاستغناء عنها نجد أن الموضوع قد أخذ حيزا لا بأس به من اهتمام الكتاب آنذاك وقد ذكروه في مناسبات عدة ونوهوا بضرورة التراسل فيما بينهم وعدم التراخي في ذلك، وفي هذا الشأن نجد تاج العارفين يكتب للفكون رسالة منها "ولا تنسانا من مكاتباتكم مع الواردين، كما أنها ترد إليكم منا مع الصادرين"[3]، وفي رده عن

[1] نفسه، ص 203.

* يشير إلى رسالة محمد تاج العارفين إلى الفكون التي سبق ذكرها، والتي ذكر فيها أسماء العلماء وللأسف فهي مطموسة من عدا اسم محمد العامري (أنظر منشور الهداية ففيه بقية الأسماء) (ينظر: أبو القاسم سعد الله شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، مرجع سابق، ص 205)، كما أن الرسالة المذكورة موجودة في الملاحق.

[2] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 205.

[3] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 200.

الرسالة الأولى نجد الفكون أيضا يذكر بفائدة التراسل منذ القدم وهو يقول: "ولعلك تصغر ولا تشعر، بما كان بين جدكم سيدي أبي بكر وبين الوالد من تكرار الود بالمراسلات"[1].

وهذه مجموعة من المقتطفات الدالة على فائدة التراسل آنذاك والتنويه به من طرف المرسلين الكتاب رغم صعوبة إيصال الرسالة لما يواجهها من صعاب تتعلق بمشقة الصفر وظروفه إلا أن الكتاب أكدوا على ضرورة الاستمرارية في بعضها واستقبالها والرد عليها في أقرب الأوقات.

كانت هذه مجموعة من المواضيع التي اخترناها من بين مواضيع عدة تحتويها الرسائل الإخوانية في أدب الجزائر خلال الفترة العثمانية، وكنا قبلها قد ذكرنا مجموعة أيضا للرسائل الديوانية، وهو ما تمكنا من جمعة وتصنيفه كل حسب موضوعه ولعلها ليست كل المواضيع التي دارت بين العلماء والباشاوات وغيرهم من الشخصيات ولكنها قد تكون أهمها على الإطلاق لما احتوته من قيم إنسانية وروحية ودينية أضفت على الرسائل جمالا كثيرا، ولما احتوته أيضا من ألفاظ وتعابير توحي بالبراعة والقدرة المتميزة على الكتابة في عصر وصف بالضعف، لكن الرسائل الموجودة بين أيدينا بينت لنا الكثير من الموهبة في الكتابة واستخدام جميل وجيد للبيان والبديع وقدرة التحكم فيه، ضف إلى ذلك قوة العاطفة التي لمسناها من خلال هذه الرسائل، دون أن ننسى التوظيف الرائع للمعجم القرآني وهو ما زادها قوة وتأثيرا في السامع والمتلقي بصفة عامة.

وسنحاول التطرق للخصائص الفنية لفن الرسالة بنوعيها خلال الحكم العثماني من خلال التطرق إلى أهمها مع التمثيل لها، وهو ما سنتحدث عليه في الفصل القادم.

[1] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 204.

الفصل الثاني: الخصائص الفنية للرسالة

أولا: بنية الرسالة

ثانيا: الخصائص الأسلوبية للرسالة

تمهيد:

ظهر في العصور القديمة جنسان أدبيان بارزان هما: "الرسائل والخطب وعند الحديث عن النثر الفني تتبادر الأذهان إليهما مباشرة نظرا لحضروهما المتميز ومكانتهما بين الأجناس الأدبية إضافة إلى دورهما في الحياة بشتى مجالاتها"[1].

ولعل ما يهمنا أكثر هو "أدب الرسائل" والذي يعتبر فنا أدبيا قائما بذاته وتندرج ضمنه أنواع من الرسائل المختلفة غرضا ومقصدا جمالا وتأثيرا، ومن ثم فقد أصبحت الرسائل "صناعة ذات قواعد وأصول"[2].

ومن هنا يبرز لنا أهمية هذا الفن النثري، "ولهذا نفسح المجال لأبي العباس القلقشندي، ليوضح لنا الفائدة المتوخاة، والتي من أجلها قد وجد الترسل، يقول: "إن المقصود الأعظم منه (أي النثر) الخطب والترسل وكلاهما شريف الموضوع، إذ الترسل مبني على مصالح الأمة، وقوام الرعية لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك، وسراة الناس في مهمات الدين، وصلاح الحال، وبيعات الخلفاء، وعهودهم ... إلى غير ذلك من المصالح التي لا تكاد تدخل تحت الإحصاء ولا يأخذها الحصر"[3].

ومن خلال ما سبق فإن أدب الرسائل يعتبر لونا أدبيا يحوي جميع موضوعات الرسائل النثرية واتخذ من الرسالة وسيلته في التعبير والتوصل ويصبح بالتالي لونا من ألوان النثر الفني الجميل وضربا من ضروبه.

---

[1] ينظر: حسن بنيخلف، الرسالة في النثر العربي: البناء والخصائص، موقع سابق.

[2] مصطفى الزباخ، فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين، الدار العلمية للكتاب الدار البيضاء، الدار العلمية للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، د.ت، ص 158.

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص 60. نقلا عن: الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ص 70-71.

ولا يمكن بأي حال من الأحوال الحديث عن الرسالة كفن قائم بذاته دون التطرق إلى عناصرها ولو بقليل من الشرح:

1- **المرسل:** أي كاتب الرسالة وصاحبها والذي سماه القلقشندي بـ "الأديب المنشئ".

2- **الرسالة:** وهي الموضوع المراد إيصاله للمتلقي.

3- **المتلقي:** وهو مستقبل الرسالة أي المرسل إليه.

يراد بالترسل إذن "أدب الرسائل المتمثلة في الرسائل الرسمية (الديوانية) والأدبية (الإخوانية) خصوصا"[1].

وأخيرا يجدر الإشارة إلى أن النثر الجزائري إبان الفترة العثمانية تميز بانتشار فن الرسائل الذي ساهم في الاستقرار في الحياة الاجتماعية ورغم ذلك وجب الإشارة أيضا إلى أن هذا النثر لم يهمل بل لاقى إقبالا مميزا فقد ظهر فن الخطابة والمقامة و... كما سنحاول أن نتطرق إلى بعض النماذج من الرسائل المتداولة بين العلماء والباشاوات وغيرهم ودراستها دراسة موضوعاتية فنية من خلال الخصائص الفنية التي احتوتها هذه الرسائل في العهد العثماني.

أولا: الشكل الفني للرسالة (بنية الرسالة):

تستمد الرسالة أهميتها وقيمتها الفنية من أمرين هما: الوظائف والخصائص فإذا كانت الأنواع المعددة للرسائل وأصنافها دليل على انتشارها وقوتها فإن الجانب النوعي فيها لدليل على ارتقائها وازدهارها وتطورها وعليه أصبح من الضروري أن نولي هذه الجوانب الفنية في الرسالة اهتماما ورعاية خاصة جدا.

[1] الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ص 72.

وللإشارة فإن الكتابة النثرية لم تصح فنية إلا بعد إنشاء دواوين خاصة بها وتكليف كتاب مؤهلين لكتابتها والرد على الرسائل التي يستقبلونها وهذا ما أدى إلى الوصول بهؤلاء إلى حد البراعة والإبداع.

ولبناء الرسالة الفنية والتي هي عبارة عن قطعة نثرية واحدة وجب الاعتماد على مجموعة من العناصر وهي:

1- العناصر الثابتة:

أ- المقدمة (الاستفتاح):

" لمقدمة الرسالة أهمية بالغة كونها افتتاحية الخطاب وكلما كان صدر الرسالة جميلا حسنا لكما كان ملفتا للانتباه ومشوقا لما يأتي بعده من كلام.

وعليه فللابتداء جانب تحفيزي للمتلقي، فالكاتب الحقيقي من أجاد المطلع وحمل المتلقي على الانتباه أكثر فأكثر"[1].

والاستفتاح أنواع فيمكن أن يكون بـ البسملة كما نلحظه في رسالة "عبد الكريم بن فكون إلى شهاب الدين أبي العباس أحمد المقري" "باسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على من أنزل عليه في القرآن..."[2] كما يمكن أن تكون مقدمة الرسالة (استفتاحها) بالتمهيد وهذا ما وجدناه من خلال بحثنا في رسالة "الشيخ محمد ساسي البوني إلى يوسف باشا" وهي رسالة ديوانية حيث بدأها بـ الحمد لله، مراسلة بعث بها العالم العلامة القطب الرباني سيدي محمد الساسي المعظم أبي الجمال السيد يوسف باشا..."[3] وقد لاحظنا أن الكثير من الرسائل التي دارت بين العلماء والباشاوات آنذاك ابتدأت بالتحميد لأن النفوس تتشوق للثناء على الله

[1] ينظر: حسن بنيخلف، الرسالة في النثر العربي، البناء والخصائص، موقع سابق.

[2] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 308.

[3] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 56.

تبارك وتعالى، كما أن الابتداء بالتمهيد يكون عادة مناسبا لنوع الرسالة وفي هذا الصدد يقول ابن الأثير (ومن الحذاقة في هذا الباب) أن تجعل التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب.

غير أن الرسالة قد تتضمن عبارات أخرى إلى جانب البسملة والتحميد ومن ذلك ما نجده في الرسالة التي رد بها يوسف باشا على محمد ساسي البوني حيث كانت مقدمتها: "وهذا جواب المعظم يوسف باشا: الدوحة التي طابت فروعها وأصولها، والنبعة التي زكت أجناسها وفصولها..."[1]

وكذا في رسالة ابن هطال التلمساني: "اعلم انه لما أصبح يوم الاثنين عازما على ما أراده، قاصدا لما يكمل مراده..."[2]

بالإضافة إلى ذلك فقد لاحظنا أيضا أن بعض كتاب الرسائل بنوعيها قد استخدموا أيضا عبارات وألفاظ في مقدمات رسائلهم والهدف منها هو وصل الصدر بالمتن ومن ذلك نجد عبارة (أما بعد)، (وبعد) حيث يقول محمد بن محمد القالي في رسالته إلى محمد بكداش: "وبعد فإن الله تعالى منَّ على المسلمين بسيدنا ومولانا سلطان الملوك والأكابر، المخصوص بأفضل الشمائل والمآثر..."[3]

ومن خلال ما سبق من استقرائنا لصدور الرسائل الآنفة الذكر نصل إلى أنها لا تتفق على بداية واحدة بل إن الاختلاف قائم بينها وهو ما فرضه منطق الزمان ومقتضياته، ولعل أهم ما يمكن استخلاصه من النصوص السابقة اتفاقها في: أن عبارة (وبعد) تستخدم في صدر الرسالة وأنها قديمة قد استخدمت في زمن مضى.

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 58.
[2] فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 256.
[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 197.

وعليه فصدر الرسالة من العناصر الثابتة في الرسالة لكنه يتألف هو الآخر من عناصر ثابتة وأخرى متغيرة كما لاحظناه من خلال رسائلنا السابقة الذكر.

وخلاصة لما سبق فإن كتاب الرسائل في العهد العثماني قد استفتحوا رسائلهم بتحديد اسم المرسل والمرسل إليه البسملة، التحميد، وعبارات أخرى.

ب- التخلص: إن كتاب الرسالة عموما لا يستطيع الانتقال إلى مضمون رسالته مباشرة وإنما يوطئ له بألفاظ تلفت انتباه المتلقي إلى ما سيأتي بعده من كلام وهو ما يسمى بـ (التخلص) فهو الانتقال من صدر الرسالة (الابتداء) إلى الغرض أو المقصود دون أن يحس القارئ بهذا الانتقال مع ضرورة مراعاة الملاءَمة بين الافتتاح والغرض، ومن ذلك قول الشيخ محمد ساسي البوني إلى يوسف باشا: "هذا، وقد اختلس العبد هذه الكلمات والله يعلم منه كيف الحال هاربا بضعفه لنزول رحمته، وهبة عطفته، سبحانه الكبير المتعال..."[1]

وهي عبارات تساعد الكاتب على التخلص من صدر الرسالة إلى غرضها وبالتالي فلرسالة الفنية بناء خاص وشكل فني معروف وخصائص معينه تمثل أركانها التي تبنى عليها، فالتخلص أيضا من العناصر الثابتة في الرسائل العثمانية الجزائرية.

ج- الغرض: ويسمى أيضا "بالعرض" أو "المتن" أو "المضمون" وهو ركن أساسي من أركان الرسالة (عنصر ثابت) ولهذا فإن كتاب الرسائل أولوا له أهمية قصوى من حيث اتساقه وانسجامه وتقديمه، قصد تحقيق الغرض منه حتى يلقى الاستجابة من طرف المرسل إليه.

كما أن غرض الرسائل يختلف باختلاف نوعها فإن كانت الرسالة إخوانية كان الغرض منها "عتاب وشوق وعزاء وما إلى ذلك من عواطف"[2] فنجد مثلا في رسالة محمد بن

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 57.

[2] فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، للنشر والتوزيع، ط1، 1989، ص 279.

محمد القالي مادحا محمد بكداش التي يقول فيها: "إن الله تعالى من على المسلمين بسيدنا ومولانا سلطان الملوك والأكابر، المخصوص بأفضل الشمائل، والمآثر، الإمام العادل السلطان الفاضل، العالم العامل، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، الذي أطلعه الله في سماء الجلالة بدرا، ورفع له في درجات الأمراء قدرا"[1].

فقد مدح محمد بن محمد القالي الباشا ووصفه بأنه من أكبر السلاطين ومدح أيضا حكم الترك ونوّه بأصلهم وفضلهم على الدين والقطر الجزائري، فبعد استفتاحه بـ (وبعد) تخلص إلى غرض الرسالة الاخواني مصورا فضل وقيمه الباشا ومكانته العالية.

ولغرض الرسالة دور كبير في تحديد سماتها من حيث الشكل والأسلوب والدلالة والوظيفة تتعلق أساسا بحجم الرسالة (طولا وقصرا) وبوسائل الإقناع والاستشهاد، إضافة إلى الاستخدام الجيد للمحسنات وعلى رأسها السجع (الملك، الترك/الحنيف، المنيف، الشريف/ العباد، البلاد/ أيامه، أعلامه...)

د- الخاتمة: وهي لا تقل أهمية عن العناصر الثابتة السالفة الذكر فمن الضروري الاعتناء بهذا المقطع من الرسالة وتجويدها وتحسينها بل وتجميلها لما لها من أثر في نفس المتلقي من حيث اقتناعه وميوله للرسالة ككل من الافتتاح إلى الخاتمة.

والخاتمة تتكون من عناصر متعددة وأشكال مختلفة منها ما هو ثابت ومنها ما هو متغير كأن يختتم كاتب الرسالة رسالته بالدعاء مثلا وهذا ما نجده في رسالة "يوسف باشا" إلى الشيخ محمد ساسي البوني وهي رسالة ديوانية: "أبقاكم الله بركة في البلاد، ورحمة للعباد، آمين"[2].

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 197.

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 56.

وكذا في الرسالة التي رد بها الشيخ محمد ساسي البوني على يوسف باشا وهي ديوانية حيث قال: "وفقه الله بمنه، آمين، آمين، آمين"[1].

كما يجب الإشارة إلى أنه يجب أن يراعى في الدعاء طبيعة العلاقات بين المرسل والمرسل إليه ومضمون الرسالة (الهدف منها)، وأن يتحرى فيه المعاني والألفاظ اللائقة والعبارات المناسبة التي تخدم غرض الرسالة.

إضافة إلى الدعاء فإننا نلاحظ أن الخاتمة أيضا تتشكل من عناصر أخرى مثلا: الصلاة والسلام على رسول الله ومن ذلك رسالة عبد الكريم بن فكون إلى شهاب الدين أبي العباس أحمد المقري والتي جاء فيها: "وأختم كتابي بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم"[2].

كما أن هنالك عناصر أخرى في الخاتمة كالتحميد والسلام والشعر وغيرها.

ومن خلال ما سابق فإن بنية الرسالة التي تتألف من عناصر ثابتة كالمقدمة والغرض والخاتمة وأخرى متغيرة.

2- العناصر المتغيرة.

وقد وردت في الصدر والخاتمة (الألفاظ التي تنتهي بها الرسالة، كالدعاء، والتحميد وغيرها) وهذا كله يشكل لنا ما يعرف ببنية الرسالة.

كما يجب أن ننوه أيضا بأن الرسائل تحتوي في بنيتها على خصائص أخرى مثل:

- **التنويع في صدر الرسائل وخاتمتها:** فمن بين السمات التي انفردت بها الرسائل عن غيرها من الفنون النثرية الأخرى هو التنوع في افتتاح الرسائل فتارة تفتتح بالبسملة كما ورد

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 58.

[2] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 310.

عند عبد الكريم بن الفكون وتارة أخرى تبدأ بتعظيم المولى عز وجل كما ورد في رسالة محمد بن محمد القالي (جل الله تعالى مالك الملك)، وأحيانا بالتحميد وهو ما وجدناه في رسالة الشيخ محمد ساسي البوني (الحمد لله)[1] وهذا كله يمليه المقام والموضوع المراد إيصاله (الرسالة) للمتلقي.

والأمر لا يختلف عن الخاتمة التي تنوعت بتنوع الرسالة فأحيانا نجدها تختتم بالدعاء وأحيانا أخرى بالسلام والصلاة على الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وأخرى بالسلام (تحية السلام) وكل هذا التنويع في افتتاحية الرسائل واختتامها يزيدها قوة وتأثيرا في المتلقي.

ثانيا: الخصائص الأسلوبية:

1- المستوى الصوتي:

أ- **توظيف المحسنات البديعية:** تميزت الرسائل في العهد العثماني بتوظيف سليم للمحسنات البديعية سواء كانت لفظية أو معنوية، ورغم ذلك فقد كان التكلف والصنعة اللفظية والتزويق ومرد ذلك أن كاتب الرسالة كان يريد تأدية غرضه دون عناء كبير في انتقاء الألفاظ بل كان يقصد غايته مباشرة دون تأويل أو انزياح واضح.

ولعل أبرز المحسنات البديعية التي كانت تستخدم بشكل لافت للانتباه وبشكل جميل أيضا نجد:

*** توظيف السجع:**

إن الحديث عن خصائص الرسالة الفنية في النثر الجزائري عموما والفترة العثمانية على وجه الخصوص يتعلق أساسا بالرسائل الفنية لأنها تتميز بالمرونة الفنية والأسلوبية، أما باقي الأنواع من الرسائل والتي لا يقصد منها التأثير أو الإقناع فهي مجرد وسائل للتواصل

[1] انظر الملاحق.

لا غير ولذلك تقل فيها هذه الخصائص الفنية أو تكاد تنعدم، هذه الأخيرة التي تسهم في إثراء وتجميل الرسالة الفنية وزيادة عمقها وقدرتها على الإقناع وهو المطلوب.

ومما لاشك فيه أن السجع من الخصائص الشهيرة جدا في الأجناس النثرية القديمة كالمقامات والخطب والرسائل وهو الذي لم يفقد حظه من كتابات الكتاب الجزائريين في الحقبة العثمانية وهو كما قال السكاكي كالقافية في الشعر.

قال علي الجارم: "السجع هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير وأفضله ماتساوت فقره"[1].

إذن فالسجع من المحسنات البديعية اللفظية تتوافق فيه الكلمة الأخيرة من الجملة مع الكلمة الأخيرة من الجملة الموالية في الحرف الأخير وتسمى الكلمة الأخيرة من الجملة فاصلة.

إن قيمة السجع الفنية لا يمكن ملاحظتها ما لم يكن الكاتب على قدر من الإلمام به وتوظيفه توظيفا إيجابيا سليما ولعل الدارس للرسائل التي كتبت في العهد العثماني بالجزائر يدرك تماما أن ما قيل عن النثر الجزائر في العهد العثماني من ضعف واضمحلال هو كلام بعيد عن الواقع وذلك للقدرة الكبيرة التي يمتلكها آنذاك الكتاب الجزائريون وحسن استخدامهم للسجع وإلمامهم به ونجد ذلك في جل الرسائل ونذكر على سبيل المثال لا الحصر رسالة "عبد الكريم بن فكون إلى شهاب الدين أبي العباس أحمد المقري" والتي ورد فيها: (حاله، أماله/ الشهير، النحرير/ الأمارة، الغرارة/ الأهوال، الأطفال، الرجال، العالمين، حاسبين/ الإلطاف، الإسراف/ جوابكم، بقاؤكم/ فرضها، نقلها) وكذا رسالة محمد بكداش إلى أحمد بن قاسم البوني وذكر فيها: (العيون، المصون، تنعمون، تسرحون/ الكمالات، السعادات/ الأمثل، الأكمل/ الإسلام، الأنام، رسخت، بزغت/ الأتقياء، العلماء). وغيرها كثير من

[1] علي الجازم مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، القاهرة، ط15، د.ت ، ص 273.

الرسائل الأخرى التي تنوع فيها السجع واستخدم بطريقة فنية جمالية زادت الرسالة عمقا وصدقا.

كما لا يخفى عن الدارس لهذا النوع من الفنون البشرية القديمة أن الوعي بتنوع السجع يمكن الكاتب من إبراز مهاراته ومواهبه في الكتابة وهو الأمر الذي سيمكن السجع، وكذا الصور البلاغية الأخرى من احتلال وظيفة إضفاء القيمة الفنية الرفيعة للنص الرسالي.

وقد اشترط بعض المؤرخين والدارسين بعض الشروط للحفاظ على الطابع الفني للسجع ومن ذلك قولهم (أحسن السجع ما تساوت قرائنه) كما أن الرسائل تتميز بنزعتها الرمزية والتي تساهم في إغناء دلالاتها والوصول إلى مقاصدها، وهي التي تبرز أكثر مع المتصوفة في رسائلهم الصوفية.

*** توظيف الشعر والأمثال والحكم في الرسائل:**

لطالما وظف الكاتب مجموعة من الأمثال والحكم وحتى الأشعار في رسائله والغاية من ذلك طبعا هو إضفاء نوع من الجمالية والفنية على الرسالة وقارئها وبالتالي الوصول إلى إقناعه والتأثير فيه كما أن توظيف هذه الأمثال والأشعار يعتبر من الشواهد الواجب توافرها في النص للإقناع ومثال ذلك ما ورد في رسالة عبد الكريم بن فكون والتي تضمنت أبيات شعرية جاء فيها:

يـــا نخبـــة الـــدهر فـــي الدرايـــة علمـــــا تعاضـــــده الروايـــــة

لازلـــــت بحـــــرا بكـــــل فـــــن يـــــروي بـــــه الطـــــالبون غايـــــة[1]

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 309.

2- المستوى المعجمي والتركيبي:

أ- التفاوت في الألفاظ من حيث السهولة والوضوح حينا والصعوبة والغرابة حينا آخر:

ومثال ذلك في رسالة ابن هطال التلمساني حين قال (اشتد البرد في هذه الدار ونزل من الثلج ما كانت الناس تظن أن مثل هذا ذلك لا يقع... وعندما نزلت المحلة قصدت العوم هذا القصر لأجل الشعير والقمح وغير ذلك...)[1] وهي ألفاظ سهلة يمكن للقارئ فهمها بسهولة وهي واضحة أيضا، كما نجد الغموض في بعض الرسائل على غرار رسالة يوسف باشا إلى محمد ساسي البوني والتي قال فيها "(الدوحة التي طابت فروعها وأصولها، والنبغة التي زكت أجناسها وفصولها... والمجادة التي طابقت مناهج الاستقامة ألفاظها ومعانيها...)"[2]. غير أن السمة الغالبة هي وضوح الألفاظ في غالب الأحيان أكثر من غموضها ذلك أن الغموض إذا توافر بكثرة في النص أدى إلي الإبهام وهو ما لا يخدم الرسالة وغرضها أي الإقناع والتأثير.

ب- الإيجاز والإطناب:

من بين الخصائص الأسلوبية التي تميزت بها الرسائل الجزائرية في العهد العثماني هي التنويع بين الإيجاز والإطناب في الجمل غير أن الملاحظ أن أغلب الرسائل تتسم بالإيجاز وهذا ما يخدم غرض الرسائل بنوعها (ديوانية أو إخوانية) ومثال ذلك رسالة محمد بكداش إلى أحمد بن قاسم البوني: "هذا، وإن محبتكم في قلوبنا رسخت، وشموسها في أفكارنا بزغت،..."[3].

[1] فاطمة دخية، الحركة الادبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 256.

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 58-59.

[3] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 60.

ج- الاقتباس من القران الكريم: "والاقتباس عند البلاغيين:

ضرب من ضروب علم البديع، الذي يكمل مع علم (المعاني) و(البيان) قواعد البلاغة وعلومها الثلاثة فهو أحدها، ويشتمل "علم البديع" على محسنات لفظية وأخرى معنوية، لتحسين وتزيين الألفاظ أو المعاني بألوان بديعة من الجمال اللفظي والمعنوي.

وهو على ما أخذنا به وعنيناه نوعان هما:

*- **الاقتباس النصي:** وفيه يلتزم الشاعر بلفظ النص القرآني وتركيبه.

*- **الاقتباس الإشاري:** وهو أن يأخذ الشاعر من القرآن الكريم ما يشير به إلى آية أو آيات منه، من غير الالتزام بلفظها وتركيبها[1].

ومن بين الخصائص التي اتسمت بها الرسائل في العهد العثماني الاقتباس من القرآن الكريم ونلحظ ذلك في الكثير من الرسائل ويدل ذلك على التأثر بالقرآن الكريم من طرف الكُتّاب سواء الشعر، أو أصحاب الرسائل، ذلك أن توظيف المعجم القرآني يضفي على النص نوعا من الفصاحة والقوة في المعنى والفكرة ككل لأنه كلام المولى عز وجل وهذا ما دفع الكتاب إلى الاقتباس من القرآن الكريم وهو ما نلحظه في كل الرسائل تقريبا سواء كانت ديوانية ذات طابع رسمي أو إخوانية اجتماعية ونذكر على سبيل المثال ما ورد في رسالة عبد الكريم بن فكون إلى شهاب الدين أبي العباس أحمد المقري: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2] ضف إلى ذلك التوظيف القوى للمعجم القرآني والذي لا تكاد رسالة تخلوا منه ونذكر من ذلك ما ورد في بعض الرسائل: (بسم الله الرحمن الرحيم، الله تعالى، ملك الملك،

[1] عبد الهادي الفكيكي، الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر الغربي، دار المنير للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1996، ص 13-14.

[2] القلم، الآية (04)

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم...) وعليه فإن الاقتباس من القرآن الكريم قد ميز الرسائل وزادها وضوحا وبلاغة وقدرة على الإقناع.

د- الدقة في تنظيم الفكرة وإيصالها إلى القارئ:

اتسمت الرسائل سواء كان الديوانية أو إخوانية بنوع من الدقة في عرض أفكارها وتنظيمها بغية إيصالها إلى المتلقي، وهذا راجع إلى الجدية التي تميزت بها هذه الرسائل وكذا المستوى العالي من الكتابة من قبل هؤلاء الكتاب أصحاب الرسائل، وهذا ما لاحظناه من خلال الرسائل الموجودة بين أيدينا والتي دارت بين العلماء عنابة والبشاوات ومن ذلك نأخذ رسالة محمد بن محمد الغالي التي أرسلها إلى محمد بكداش وهي رسالة تندرج ضمن الرسائل الإخوانية الاجتماعية حيث استطاع أن يعبر عن فكرته من خلال جمعه بين الشعر والنثر ليصل إلى قلب محمد بكداش ويعرض فكرته بدقة وعناية وهي أن يمدحه ويشكو إليه حاله، وهذا التنظيم في عرض الفكرة أثمر بلوغ الغاية فالفكرة كانت واضحة سهلة يتخللها نوع من التضمين.

3- المستوى الدلالي (التصوير الفني):

إن دراستنا للرسالة كفن نثري قديم يتطلب منّا ليس فقط. جمع نصوص وتبويبها وترتيبها وإعادة شرحها فحسب، وإنما أكثر من ذلك من خلال استخراج الخصائص الفنية المشتركة في هذا الفن خلال حقبة زمنية وصفت بالكثير من الجانب الأدبي وبالضبط من حيث الضعف والركاكة في الأساليب والتعبير، وقصد التحقق من ذلك أو عدمه تطرقنا فيما مضى إلى مجموعة من الخصائص الفنية على غرار البنية والخصائص الأسلوبية ورأينا أن ندعم هذه العناصر بعنصر آخر لا يقل أهمية عنها ألا وهو الصورة الفنية للرسالة في عهد العثمانيين.

ولو عدنا لتاريخ تطور مصطلح الصورة الفنية فنجد أنه يتميز بمفهومين: "قديم يقف عند حدود الصورة البلاغية في التشبيه والمجاز، وحديث يضم إلى الصورة البلاغية نوعين آخرين هما: الصورة الذهنية، والسورة باعتبارها رمزا، حيث يمثل كل نوع من هذه الأنواع الثلاث اتجاها قائما بذاته في دراسة الأدب الحديث"[1].

وصورة حسب علي علي صبح: "بمعنى الشكل، فصورة الشجرة شكلها، وصورة المعنى لفظه، وصورة الفكرة صياغتها... وعلى ذلك تكون الصورة الأدبية هي الألفاظ والعبارات التي ترمز إلى المعنى، وتجسم الفكرة فيها، أو هي مدلول اللفظ الحسي، فكل لفظ يرجعوا في الأصل إلى مصدر الأول في اللغة، هو الشيء المحسوس"[2].

إن الصورة الفنية موجودة في كل عمل أدبي بشرط أن يمتاز هذا العمل بالفن والجمالية، وهذا ما وجدناه في الرسائل كنثر فني ارتقى بأسلوبه في كثير من المرات ليصل إلى درجة الشعر أو يفوقه فنية، ولهذا فلا غرابة من ارتباط الصورة الفنية بهذا الفن وخاصة الرسائل الإخوانية التي تظهر فيها قدرة وبراعة الكاتب في توظيف الألفاظ الجميلة والعبارات الرقيقة التي تصل إلى القلوب قبل الآذان، كما أن هذا النوع من الرسائل كثيرا ما اعتمد على الشعر أثناء سياغته وبما أن "الصورة الفنية هي الجوهر الثابت والدائم في الشعر، قد تتغير مفاهيم الشعر ونظرياته فتتغير –بالتالي– مفاهيم الصورة الفنية ونظرياتها، ولكن الاهتمام بها يظل قائما مادام هناك شعراء يبدعون، ونقاد يحاولون تحليل ما أبدعوه وإدراكه، والحكم

[1] علي البطل، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1981، ص 15.

[2] علي علي صبح، الصورة الأدبية تأريخ ونقد، دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت، ص 3.

عليه"[1]. فكذلك الشأن نفسه بالنسبة للرسائل فالصورة الفنية هي جوهرها الثابت والذي لا ينفصل عنها والذي يبرز الجانب الأدبي والفني فيها.

أما بالنسبة لرسائل العهد العثماني فإن التصوير الفني فيها كان واضحا من خلال احتوائها على عدد كبير من الصور على غرار التشبيه، الاستعارة والصورة الحسية إضافة إلى الخيال وهذا ما سنحاول التعرف عليه أكثر من خلال ما سيأتي من عناصر.

أ- العاطفة القوية والإحساس المرهف:

ونجدها في الرسائل الإخوانية أكثر ذلك أنها تحتاج إلى عاطفة صادقة وإلى إحساس مرهف قصد الوصول إلى قلب المتلقي والتأثير فيه دون ما تكلف أو تصنع ولعل في رسالة عبد الكريم بن فكون إلى شهاب الدين أبي العباس أحمد المقري دليل على ذلك حيث استخدم ألفاظا تنم عن عاطفة قوية كقوله (لا أريد إلا صالح الدعاء وقد اتصل بيدي جوابكم...، وقد ذيلتم ذلك بأبيات أنا أقل عن أنوصف بمثلها...).

ب- الخيال:

من الملاحظ في الرسائل أن أصحابها يتمتعون بخيال واسع يسرحون به أينما شاؤوا ووقت ما أرادوا فهم يتفننون في توظيف الصور ويتأنقون في استخدام الخيال وفق ما يخدم موضوع المراد إيصاله للمتلقي، ومن المعروف عن الأدب العربي أنه يعتمد على الخيال كركن مهم منذ العصر الجاهلي مرورا بالعصور الأدبية الأخرى، وما يهمنا هو أدب الفترة العثمانية إذ كان غنيا بخياله الخصب وبصوره الفنية الرائعة التي استمدها الكاتب من واقعه المعاش، خاصة بعد تأثره بالقرآن الكريم (أسلوبا) وتجسد ذلك في توظيف التشبيه وهذا ما نجده في رسالة يوسف باشا إلى الشيخ محمد ساسي البوني: (أمثالكم من الأولياء، أشباهكم

[1] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992، ص 7-8.

من الأتقياء، كدأب العلماء) والاستعارة بنوعيها وهذا ما نجده مثلا في رسالة الشيخ محمد ساسي البوني حيث كتب (تستفزهم الآلام، تهزمها العواصف، النكبات إذا طرقت، هارب بضعفه) إضافة إلى ضروب البيان الأخرى التي زخرت بها كتاباتهم وقد وظفت توظيفا جيدا يليق بمقام كتاب هذه الرسائل ويجعل من القارئ يسبح في خياله في بحر هذه الرسائل وهذا مازادها قوه وقدرة على التأثير في المتلقي.

ج- الصورة التشبيهية:

والرسائل في العهد العثماني بنوعيها اتسمت بتوظيف الصورة القديمة توظيفا جيدا يخدم الرسالة من حيث نقل الصورة من ألا محسوس إلى المرئي وبالتالي إيصال المعنى بشكل أفضل وأدق إضافة إلى تقوية المعنى وجعله أكثر تأثيرا في المتلقي ولتوضيح كل ذلك سنحاول أن نتطرق إلى الصور الأكثر توظيفا في الرسائل العثمانية الجزائرية مع توظيف أمثلة تدعم أقوالنا أكثر.

قبل الحديث عن التشبيه في الرسائل العثمانية الجزائرية سنتطرق ولو باختصار إلى تعريفه:

لغة: التمثيل.

اصطلاحا: عقد مماثلة بين شيئين اشتركا في صفة واحدة أو في عدة صفات وله أربعة أركان: المشبه والمشبه به ويسميا طرفي التشبيه، الأداة، ووجه الشبه.

وعند دراسة ما توفر بين أيدينا من رسائل ديوانية كانت أو إخوانية لاحظنا احتواءها على مجموعة من التشبيهات وظفت توظيفا جيدا يخدم الشكل والمضمون على حد سواء لأنه يقوم في الأساس على علاقة مقارنة تجمع بين طرفين وهذه العلاقة حسب جابر عصفور: "قد تستند إلى مشابهة الحسية، وقد تستند إلى مشابهة في الحكم أو المقتضى الذهني الذي يربط بين الطرفين المقارنين، دون أن يكون من الضروري أن يشترك الطرفان

في الهيئة المادية أو في كثير من الصفات المحسوسة"[1]. ولعل هذا ما جعل من صاحب الرسالة (المرسل) يعمد إلى استخدام هذه الصورة قصد توضيح العلاقة بين المشبه والمشبه به التي تقوم أساسا على المقارنة بينهما لغاية في نفس صاحبها.

لقد حاولنا في بحثنا هذا استخراج بعض التشبيهات الواردة في بعض الرسائل إبان الحقبة العثمانية وسنشير إليها على سبيل المثال لا الحصر.

-ورد في رسالة بعثها يوسف باشا إلى الشيخ محمد ساسي البوني: "...ثم بدعوات أمثالكم من الأولياء، ولخطاب أشباهكم من الأتقياء..."[2] وفيها شبه يوسف باشا الشيخ محمد ساسي البوني بالولي الصالح باستخدام لفظه أمثالكم كما شبهه أيضا بالتقي بالتوظيف لفظة أشباهكم والغاية من هذا التشبيه هو الرفع من مقام الشيخ والإعلاء من قدره وتبيان المكانة التي يحضى بها في نفسه نظرا لصفاته الخلقية التي يتمتع بها ولعلمه الغزير وحكمته وتجربته في الحياة ونلاحظ من خلال هذا التشبيه أن المعنى قد ازداد وضوحا وتأكيدا للقارئ حول قيمة الشيخ ومنزلته.

وفي الرسالة نفسها نجد أن يوسف باشا وظف أيضا التشبيه مرة أخرى ونلحظ ذلك في قوله: "...فلتخولوا، رضي الله عنكم الخاصة والعامة بالذكرى والموعظة الحسنى. كدأب العلماء في طريقتهم المثلى، وسيرتهم المستحسنة..."[3] وهو أيضا يستخدم أداه التشبيه (الكاف) في وصفه وتصويره للطريقة التي يعلم بها الشيخ العامة من الناس والخاصة ويشبهها بطريقة العلماء المثلى وسيرتهم الحسنة وفيها أيضا إعلاء لمنزلة ومكانة الشيخ.

---

[1] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992، ص 172.

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 54.

[3] نفسه، ص 55-56.

وفي الرسالة التي رد فيها الشيخ محمد ساسي البوني عن رسالة يوسف باشا نجده أيضا لم يستغن عن التشبيه حيث ورد فيها: "...الحمد لله الذي أجرى بين الكاف والنون إلطافا، وجعل البرايا لسهام البلايا أهدافا فطوقهم تحمل أعباء صعوبتها فإذا منهم أسود رجال..."[1]. وقد حذفت الأداة في هذا التشبيه الذي يعتبر تشبيها بليغا وصور فيه الشيخ يوسف باشا على أنه من الأسود في الشجاعة والقوة وهو إن دل على أمر ما فإنما يدل أيضا على المكانة التي يحتلها يوسف باشا عند شيوخ الجزائر وعلمائها كما أدى إلى تقوية المعنى وإيضاحه أكثر كما ورد في رسالة أخرى بعث بها محمد بن محمد القالي إلى محمد بكداش يمدحه فيها ويصوره على أنه من أكبر السلاطين ومدح في شخصه حكم الترك وأشاد بأصلهم حيث قال: "...الذي أطلعه الله في سماء الجلالة بدرا"[2]، حيث شبه محمد بن محمد القالي الباشا بالبدر في طلعته وضياءه وحكمه العادل في أمور الرعية. والتشبيه هذا هو إخبار بوجود الشبه واشتراك الطرفين في صفه أو أكثر، فقد أراد من خلال هذا التشبيه أن يصف لنا شخص الباشا في حكمه كالبدر ليلة تمامه وما يؤديه من خدمات جليلة في إنارة درب السائرين ليلا.

ونحن عندما نقول أن الباشا علي كالبدر فإننا لا نتحدث عن رجل يشبه البدر في نوره وفائدته فحسب ولا نريد ما سوى ذلك من علو وارتفاع كما أن المرسل لا يريد أيضا اتحاد الباشا مع البدر في جميع الأوصاف المادية اتحادا كاملا حيث يصبح أحدهما هو الأخير.

بمعنى أن "طرفي التشبيه وإن تعددت صفاتهما المشتركة لا تتداخل معالمهما، ولا يتحد أي منهما، أو يتفاعل مع الآخر بل يظل هذا غير ذلك ومتمايزا عنه. والمظهر العملي

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 57.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 197.

لهذا المتمايز هو أداة التشبيه. فالأداة – في مثل هذا التصور– بمثابة الحاجز المنطقي الذي يفصل بين الطرفين المقارنين ويحفظ لهما صفاتهما الذاتية المستقلة"[1].

د– الصورة الاستعارية:

من المجاز اللغوي وتقوم على تشبيه حذف أحد طرفيه فإذا حذف المشبه وصرح بالمشبه به سميت تصريحية وإن حدث العكس سميت مكنية ويرى جابر عصفور أن الاستعارة "علاقة لغوية تقوم على المقارنة، شأنها في ذلك شأن التشبيه لكنها تتميز عنه بأنها تعتمد على الاستبدال أو الانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات المختلفة وأقصد بذلك أن المعنى لا يقدم فيها بطريقة مباشرة بل يقارن أو يستبدل بغيره على أساس من التشابه. فإذا كنا نواجه –في التشبيه– طرفين يجتمعان معا، فإننا –في الاستعارة– نواجه طرفا واحدا يحل محل الطرف الآخر ويقوم مقامه لعلاقة اشتراك شبيهة بتلك التي يقوم عليها التشبيه"[2].

وعند دراستنا للرسائل التي كانت تكتب في الفترة العثمانية بالجزائر لاحظنا استخدام الاستعارة بشكل ملفت للانتباه وإن كان هذا الاستخدام لا يخل أبدا بشكل الرسالة ولا بمضمونها بل بالعكس تماما فقد زادها وضوحا وجسد معناها أكثر وانتقل بذهن القارئ لهذه الرسائل من حالة المعنوي إلى المرئي وهو المقصود بالذات من قبل صاحبها.

وقد ورد في رسالة يوسف باشا إلى محمد ساسي البوني مجموعة من الاستعارات نأتي على ذكر بعضها حين قال: "والتوجه إلى الله تعالى في إصلاح خلل هذه الأمة..."[3] فإن عبارة "إصلاح خلل هذه الأمة" استعاره حقيقتها أو معناها الأصلي إصلاح ما وقع في الأمة من مفاسد ومضار، هذا المعنى الأصلي يصل إليه المتلقي عن طريق نوع من

[1] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص 174.

[2] نفسه، ص 201.

[3] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 54.

الاستدلال الذي يقيس شيئا بآخر ولمعرفته وجب وجود علاقة واضحة تربط بين المعنيين الحقيقي والمجازي وهذه العلاقة تسمى علاقة مشابهة.

كما وردت عبارة "قلوب صافية" حين شبه القلوب بالماء الصافي وحذف هذا الأخير على سبيل الاستعارة المكنية وكذا "نور الإيمان" حيث شبه الإيمان بالمصباح المنير.

واشتملت الرسالة نفسها على مجموعة من الاستعارات كقوله "...فإن الملة الإسلامية لا يستقيم دينها ودنياها، في قصوى مقاصدها ودنياها إلا بسنان الولات، ولسان الهدات"[1] فهنا أيضا تشبيه للدين والدنيا بالشيء المادي القابل للاستقامة على سبيل الاستعارة المكنية ومنه تصبح الاستعارة نوعا من الترجمة الجيدة، مع افتقادها للفاعلية في خلق المعنى وإيجاده.

ونجد أيضا في رسالة الشيخ محمد ساسي البوني إلى يوسف باشا مجموعة من الاستعارات التي زادت الرسالة في معناها قوة وأضافت عليه إيضاحا حيث قال: "فإذا منهم أسود رجال لا تستفزهم الآلام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها"[2].

فقد شبه في الأولى الآلام وفي الثاني العواصف بالإنسان الذي يستفز غيره وكذلك يهز الأشياء وقد جاء هذا التوظيف ليبين مكانة الرجال ومنزلتهم العالية عند الشيخ ونلاحظ من خلال هذا أن الاستعارة "انتقال في الدلالة لأغراض محددة، وأن هذا الانتقال لا يصح ولا يتم إلا إذا قام على علاقة عقلية صائبة تربط بين الأطراف وتيسر عملية الانتقال من ظاهرة الاستعارة إلى حقيقتها وأصلها"[3] وهي العلاقة التي تربط الآلام بالاستفزاز لصاحبها، وكذا العواطف بالهز، إذن هي علاقة عقلية تربط المعنى الحقيقي بالمجاز مشابهة.

---

[1] نفسه، ص 56.

[2] نفسه، ص 57.

[3] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص 203.

وفي رسالة أخرى بعث بها محمد بكداش إلى أحمد بن قاسم البوني ذكر فيها الاستعارة الآتية: "... فعلى الأصول تبنى القواعد اللطيفة..."[1] وأشاد هنا بأصل أحمد بن قاسم وأنه من أشرف الأصول وذكر فيه من الصفات الجميلة ما ذكر وأنه بفضل هذه الأصول تشيد وتبنى القواعد التي يسير عليها الناس في حياتهم فوظف الاستعارة لأن البناء لا يكون للقواعد المعنوية وإنما لما هو مادي، والقصد من ذلك أبرز قيمة وفائدة الأصول هي معادن الناس وأنها تساهم بشكل كبير في تيسير سبل الحياة للناس، ووجب هنا أن أشير أن للاستعارة حدودا إذا تجاوزتها فسدت وترتبط هذه الحدود بالعلاقة بين المستعار والمستعار له ووجب توفر صحة العلاقة عقليا كما ذكر آنفا.

وقد ورد في رسالة بعثها محمد بن محمد القالي إلى محمد بكداش "... وأخمد بشوكتهم نار الفتنة والعناد..."[2] وهي رسالة شكى فيها حاله ومدح الباشا واستخدم الاستعارة حين شبه الفتنة بالموقد وكذلك العناد وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية حتى يتمكن من الوصول إلى قلب الباشا وإيصال الرسالة بشكل أدق ويستطيع التأثير في القارئ ويلفت انتباهه.

كما ورد في الرسالة ذاتها: "...أصبح الدين مبتهجا..."[3]، حيث شبه الدين بالإنسان الذي يبتهج وحذف هذا الأخير فتوظيف الاستعارة هنا كان له الأثر الكبير على المعنى الذي زاده إيضاحا وقوة أكثر من قبل وهما استعارتان كما لاحظنا وظفهما المرسل لتقريب معانيه وتجسيد رؤاه، كما أن الاستعارة تخبئ تشبيها وتجعل الصورة أبلغ وأقوى.

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 61.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 196.

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 197.

ونجد الاستعارة حاضرة في رسالة تاج العارفين التي بعثها إلى الفكون وجاء في نصها: "...لا جرم كاتبناكم وأيدي الأشواق تتلقف حبات القلوب ..."[1] وفيها تشبيه الأشواق بالإنسان الذي يملك أيدي والغاية منها طبعا إيصال المعنى للمتلقي بشكل أفضل وأدق.

كما ورد أيضا في رسالة الفكون إلى تاج العارفين مجموعة من الاستعارات تشير إلى بعضها في قوله: "...فجمع من أزهار الأدب وورد الفقه وشقائق الكلام ونسرين الحكمة وعظا وأمثالا.."[2] فنلاحظ أنها جاءت تباعا في الكلام نظرا لأهميتها عند المرسل ولقيمتها الفنية والأدبية بالنسبة للمرسل إليه.

ونجد أيضا في الرسالة نفسها ".. مع ادخار صالح الأعمال.."[3] وفي الحقيقة أن ما يدخر هو الشيء المادي كالمال والزاد وغيرها ولكنه فضل توظيفها ليرحل بذهن القارئ من عالم اللامرئي إلى المحسوس حتى تتضح الفكرة أكثر ضف إلى ذلك أن تركيب الاستعارة يحملك على تصور صورة جديدة تنسيك روعتها ما تضمنه الكلام من تشبيه خفي ومستور، وما يزيد من جمالها الفني عنصر الإيجاز فيها.

نستنتج من خلال ما سبق ذكره أنّ عيار الاستعارة هو الذهن والفطنة وملاك الأمر فيها على تقريب التشبيه في الأصل حتى يتناسب الطرفان كما قيل: خير الاستعارة ما بعد وعلم في أول وهلة أنه مستعار فلم يدخله لبس. وهذا كله يذكرنا بمبدأ التناسب المنطقي الذي كان يطبق على التشبيه والذي يطبق أيضا على الاستعارة لتداخل الأشياء وتهتز الحدود والفواصل بين الأطراف... وتتحقق الاستعارة –في النهاية– صفتا الوضوح والتمايز الأثيرتين لدى الجميع[4].

---

[1] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 200.

[2] نفسه، ص 201.

[3] نفسه، ص 203.

[4] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص 204.

هـ- الصورة الكنائية:

لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى أي أن نتكلم عن شيء ونريد غيره، وتنقسم إلى: كناية عن صفة، وعن موصوف، وعن نسبة ورغم أن الصورة ارتبطت بشكل كبير بالتشبيه والمجاز بما في ذلك الاستعارة طبعا إلى أن الرسائل المتواجدة بين أيدينا احتوت على الكثير في الكنايات بأنواعها وقد استخدمت بشكل إيجابي زاد النص قيمة فنية وجمالية وكان لها من الأثر البلاغي عن المتلقي الكثير وساعدت في الإقناع والإمتاع وسنحاول أن نتطرق إلى بعضها فيما يلي:

ورد في رسالة الشيخ محمد ساسي البوني إلى يوسف باشا مجموعة من الكنايات المنتقاة بدقة والموظفة بشكل جيد ساهمت كثيرا في إيضاح الصورة وتقريب المعاني أكثر مما هي عليه صراحة ونلحظ ذلك في قوله: "... الذي به إشراق شمس الانتظار بعد غروبها..."[1] ويقصد هنا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كنّى عنه بالنور الذي يسطع من الشمس عند إشراقها وهو لا يقصد الشمس الحقيقية المعروفة عندنا وإنما أراد أن يبين لنا مدى أهمية عليه الصلاة والسلام في حياتنا والتي لا تقل أهمية عن الشمس التي تنير دربنا وتمد الحياة لكل المخلوقات على وجه المعمورة.

والملاحظ هنا أن الكناية الموظفة قد أعطتنا حقيقة مصحوبة بدليلها أي أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كان فعلا سببا في خروج الناس من ظلمات الجهل والجاهلية إلى نور الإيمان والسعادة الإنسانية واستدل بالشمس التي تجلب السعادة للناس بعد ظلام الليل.

كما جاء في نص الرسالة ذاتها. "... نسأل الله سرعة تبدلها بأنباء تقر بها العينان..."[2] وهي أيضا كناية عن صفة السعادة والفرح الذي يظهر على ملامح وجه الإنسان

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 57.

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 57.

فقد صرح بالعينان وأراد من خلال ذلك الحديث عن فرح الإنسان بعد سماع أخبار سارة ومبهجة.

إن المتأمل في الرسائل التي دارت بين علماء الجزائر وشيوخها والباشاوات في الفترة العثمانية يلاحظ أنها تزخر فعلا بهذا النوع من الصور الفنية فنجد مثلا يوسف باشا قد وظفها بشكل واضح في رسالته إلى محمد ساسي البوني حين قال: "...مكن موضع رجليك قبل مشيك، وتأمل عاقبة فعلك قبل سعيك..."[1] فالباشا هنا لا يتحدث حقيقة عن تمكين موضع القدمين قبل المشي وإن كان هذا أمر لا بد منه ولكنه يقصد التريث في اتخاذ القرارات وإصدار التعليمات والتصرف بحكمة وروية، كما أنه في الصورة الثانية لا يعني السعي بمفهومه العادي البسيط وإنما أيضا أن يمتاز الإنسان بالتجربة والصبر قبل أي تصرف يصدر منه وهو هنا يقصد عامة الناس ممن أساء التصرف وتعرض لعقوبة، وقد وظف الكناية بدل التصريح باللفظ مباشرة قصد إيصال المعنى بشكل أفضل وإضفاء الجمالية والفنية على نصه وهذا يدل وبكل تأكيد على قدرة أصحاب الرسائل آنذاك وبراعتهم في توظيف الصور الفنية نثرا ولا يقتصر الأمر عند الشعراء فقط.

وعلى عكس الرسائل السابقة التي وظفت فيها الكناية بشكل كبير نجد أن رسالة محمد بكداش إلى أحمد بن قاسم البوني قد احتوت على كناية واحدة وقد يرجع السبب لكونها رسالة رسمية (ديوانية) ونجد ذلك في البيت الشعري:

ونجل لقطب قد تحقق مجده أبو القاسم* لا زال والله يحمد[2]

فقد كنى هنا عن اسم والد المرسل إليه بأبي القاسم دون أن يذكر اسمه وهذا أمر متعارف عليه عند العرب قديما تقديرا واحتراما للمكنى عنه، ويبدو أن الرسائل الرسمية تعتمد

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 59.

* قاسم بن محمد البوني والد أحمد البوني، وكان بكداش قد أخذ الطريقة الصوفية عن قاسم.

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 61.

على الأسلوب المباشر وتستغني أحيانا عن البيان قصد إيصال الرسالة المرجوة بأقصر الطرق وأبسط المعاني.

أما في الرسالة التي بعث بها محمد بن محمد القالي إلى محمد بكداش وهي رسالة إخوانية وجدنا أن الكناية فيها قد وظفت مرات عدة ومن ذلك قوله: "...وأعطى مفاتيح فتلقاها باليمين..."[1] وهي الرسالة التي أراد من خلالها المرسل أن يصل إلى قلب محمد بكداش ويشكو إليه حاله وصوره بأنه من أكبر السلاطين من خلال استخدام العبارة السابقة وهو لا يقصد أنه تلقى المفاتيح بيمينه فعلا وإنما يقصد تمكنه من الحكم الرشيد وقدرته على القيادة والاعتناء بالرعية ولكنه استخدم ألفاظا تحمل معنى غير المعنى الذي كتبت لأجله وهنا يكمن سر بلاغة الكناية فهي تعرض عليك قضية حكم الباشا وفي طيها برهانها على قدرته وحنكته في الحكم والتسيير.

أما إذا جئنا للرسالة التي كتبها عبد الكريم بن فكون إلى شهاب الدين أبى العباس أحمد المقري فنجد أن الكناية فيها قد شغلت مساحة كبيرة من أسطر الرسالة ونأخذ على سبيل المثال لا الحصر، "...إلى الشيخ الشهير الصدر النحرير، ذي الفهم الثاقب والحفظ الغريز.."[2] وكلها ألفاظ كنا بها المرسل عن الصفات الحميدة التي يتمتع بها المتلقي من ذكاء وقدرة على الحفظ السريع وعلم كبير.

كما ورد في الرسالة نفسها قوله "...التي أشابت رؤوس الأطفال، وقطعت أعناق كمل الرجال..."[3]. وهي الألفاظ التي أراد من خلالها طلب الدعاء للتغلب على نفسه الأمارة بالسوء التي قال أنها عميت عن الأهوال ووظف عبارة أشابت رؤوس الأطفال وهو لا يقصد

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 197.
[2] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 308.
[3] نفسه، ص 308.

ذلك حقيقة وإنما يقصد هول المصائب وشدتها ولكنه كن عنها بما سبق ذكره، وهو بذلك أراد أن يضع لنا المعنى في شكل صورة محسوسة لتقريبها إلى ذهن المتلقي.

كما كن أيضا عن يوم القيامة بقوله: "فويلي ثم ويلي من يوم تبرز فيه القبائح، وتنشر الفضائح، ومنادي العدل قائم بين العالمين..."[1]

واستعان أيضا في الرسالة نفسها بالأمثال التي تعتبر أيضا كنايات عندما قال: "أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه..." ونختمها بقوله: "وصادفتني أيام موت قعيدة البيت..." ويقصد هنا زوجته وهو لم يذكرها صراحة بل كنّ عنها باللفظ المذكور، وكلها صور حاول من خلالها صاحب الرسالة أن ينقل إلينا المعنى في صورة أكثر وضوح للتأثير أكثر في القارئ ولفت انتباهه وهو المطلوب في كل رسالة.

ولم تخل رسالة الفكون إلى تاج العارفين من الكناية أيضا عندما تحدث عن شوقه وحنينه من خلال قوله: "...حتى إذا هبّت نسائم الوصل من جانب محاسن تلك الديار..."[2] فهو لا يقصد النسيم المعروف وإنما وظف اللفظ وأراد به معنى آخر وهو شوقه وحنينه للقاء تاج العارفين والاجتماع به مرة أخرى، كما وظف أيضا مجموعة من الكنايات كقوله: "...يوم الافتقار، كسدت أسواق العلماء والأخيار..." فالأولى يقصد بها يوم الحساب أما الثانية فكنى من خلالها عن جمود وخمول عقول العلماء في إنتاج ما ينفع الأمة من علم وأدب.

ومن خلال ما سبق نستنتج أن الكناية:

1- تعطي حقيقة مصحوبة بدليلها.

2- تعرض قضية وفي طياتها برهانها.

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 309.

[2] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 202-203.

3- تضع المعاني في صور محسوسة.

وعليه نستنتج أنها تصور المعاني تصويرا مرئيا (ماديا) ترتاح له النفس، وهو ما حصل في الأمثلة السابقة الواردة في الرسائل التي كتبت في فترة تواجد العثمانيين بالجزائر، وهو دليل آخر على قدرتهم في توظيف الصور الفنية توظيفا جيدا يخدم الرسائل شكلا ومضمونا.

و- الصورة المجازية:

المجاز اللغوي هو استخدام ألفاظ اللغة وتراكيبها في غير ما وضعت له. وله أنواع أهمها:

1- المجاز العقلي: وهو إسناد الفعل أو ما في معناه (كاسم الفاعل أو المصدر..) إلى غير ما هو له في الظاهر.

2- المجاز المرسل: وهو تعبير بلاغي يقوم فيه الجزء مقام الكل أو الكل مقام الجزء أو يقوم فيه العام مقام الخاص، والخاص مقام العام...

ومن خلال دراستنا للرسائل الجزائرية العثمانية بنوعيها إخوانية كانت أم ديوانية تبين لنا أن للمجاز حظ في هذه الرسائل وإن لم يكن بالكبير مقارنة مع الصور الكلاسيكية المذكورة آنفا فقد قل استعماله بالرغم من أهمية الكبيرة فنيا وجماليا وسنذكر بعض الأمثلة للتوضيح أكثر.

ففي رسالة يوسف باشا إلى محمد ساسي البوني وظف المجاز في قوله: "...وأخرناه إلى أن يحل بدر ظهوره منازل سعوده وشرفه..."[1].

فقد أسند الحلول والظهور إلى البدر وهو لم يفعلهما فالمجاز عقلي وقد ورد أيضا المجاز العقلي في رسالة بعث بها محمد بكداش إلى أحمد بن قاسم البوني حين قال:

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 55.

"...والشموس التي أخجلت الأهلة..."[1] حيث قام بإسناد فعل الخجل للشموس وللأهلة وهو ما لا يمكن تصور وقوعه والغاية من ذلك هو التنويع في الكلام وفتح المجال للخيال الفني.

أما عن المجاز المرسل فقد ورد في رسالة ابن هطال التلمساني المعروفة باسم رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري عام 1785 قوله: "...ثم ارتحل ونزل الحليات وبالغد ارتحل فنزل مركانة.."[2] والحقيقة أن الإنسان ينزل في مكان معين مخصص كأن ينزل في بيت من بيوت حليات، أو مركانة لا أن ينزل بالمدينة كلها وهنا نقول أن المجاز مرسل علاقته محلية.

ورغم قلة توظيف المجاز في الرسائل الموجودة بين أيدينا إلا أن هذا لا ينفي أهميته على الصعيدين الأدبي والفني فهو يسهم ولا شك في تقوية المعنى وهذا ما لاحظناه في الأمثلة السابقة، وكذلك تجسيد المفاهيم، كما يسهم في إيجاز الكلام من خلال اختصار العبارات في ألفاظ قليلة موحية ومعبرة عن المعنى الحقيقي أدق تعبير.

كان هذا فيما يتعلق بالصورة الفنية القديمة التي تواجدت باختلافها في كل الرسائل إبان الحقبة العثمانية بالجزائر وفي مختلف أنواع الرسائل والتي استطاع من خلالها كاتبوها أن يظفوا على النص جمالا على جماله الأصلي.

وسنتطرق فيما يلي من عناصر إلى الصورة الحسية والتي رغم قدم الفترة التي كتبت فيها الرسائل إلا أنها احتوت على مجموعة من الصور كان لها من الأثر الكبير وسنحاول أن نعرج عليها.

[1] نفسه، ص 62.

[2] فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 255.

ز- الصورة الحسية:

"إذا كان المفهوم القديم قد قصر الصورة على التشبيه والاستعارة فإن المفهوم الجديد يوسع من إطارها، فلم تعد الصورة البلاغية هي وحدها المقصودة بالمصطلح بل قد تخلو الصورة –بالمعنى الحديث– من المجاز أصلا فتكون عبارات حقيقية الاستعمال ومع ذلك فهي تشكل صورة دالة على خيال خصب"[1].

وقد يطول بنا الحال " لو رحنا نتتبع المنابع التي شاركت في تكوين مفهوم الصورة الفنية في شكله الجديد ما بين علم النفس، والاستطيقا، والدراسات الأدبية والنقدية التي تعتمد عليهما بدرجة أو بأخرى، والظلال الخاصة التي تلقيها فلسفات المدارس الأدبية على هذا المصطلح"[2].

ولو أخذنا على سبيل المثال "البرناسية التي قامت على أنقاض الرومانتيكية وتمثل مذهب الواقعية الطبيعية في الشعر لا تعترف إلا بالصور المرئية المجسمة أو ما يسمى بالبلاستيكية التي تسجل مظاهر الصور الكلية للأشياء بعيدا عن نطاق الذات الفردية، وهذه عودة لنظرية محاكاة الطبيعية وللروح الكلاسيكية التي ثارت عليها الرومانتيكية، والرمزية وإن كانت ترى البدء من الأشياء المادية، إلا أنها لا تقف عند حدودها كالبرناسية ولكنها تطلب أن يتجاوزها الفنان إلى أثرها في أعماق النفس أو اللاشعور"[3].

ومن خلال ما سبق نستنتج أن الصورة هي عبارة عن تشكيل لغوي يكونها الخيال وتستمد من الحواس، ومصدر الجمال فيها لا يأتي بما تحتويه من مجاز كالصورة القديمة وإنما من كونها صورة فحسب.

---

[1] علي البطل، الصورة في الشعر العربي، ص 25.

[2] علي البطل، الصورة في الشعر العربي، ص 27.

[3] نفسه، ص 27.

- تعريف الصورة الحسية:

هي تلك الصورة التي تدرك عن طريق حواس الإنسان فتعجبه ألوانها وتدهشه، وتحلوا له أنغامها وسيتسيغ مذاقها العذب. إذن فهذا النوع من الصور يعتمد بدرجة أولى على الحواس كمصدر تستمد منه أبعادها كما أنها: «الوسائل التي تغذي ملكة التصوير والخيال وتنقل إليها مجتمعة أو منفردة الصورة بشتى مصادرها وطبائعها»[1].

وتعد الصورة الحسية صورة أولية يحاكي بها الكاتب عالمه الخارجي فينتقي منها ما يتلاءم وتجربته عكس التي يعمل الذهن في بناء مرتكزاتها وتشكيل أبعادها لتنقلنا إلى عالم الخيال.

إن الصورة الحسية وبحكم اعتمادها على الحواس في رسم أبعادها لا يعني بالضرورة أنها صورة سطحية بسيطة، فالانتقاء الدقيق لمكونات الصور والقدرة على التعرف على مواطن الجمال وتفاعل كل هذا مع شعور الكاتب وعاطفته تجعل منها صورة مميزة معبرة وموحية، وكلما ارتبطت بالشعور بقوة كانت أكثر صدقا وأقوى فنا وجمالاً.

والملاحظ للرسائل التي دارت في الجزائر خلال العهد العثماني يجد بأن الصور الحسية كانت موجودة في أغلب هذه الرسائل، وقد أولوا لها اهتماما كبيرا لتلاؤمها مع طبيعة التعبير والأسلوب المعتمد من طرف هؤلاء، وتنقسم الصورة الحسية إلى صورة بصرية وذوقية وشمية وسمعية نسبة إلى الحواس طبعا وقد اختلفت كل واحدة منها عن الأخرى حسب طبيعة ومضمون الرسالة.

[1] كامل حسن البصير، بناء الصورة الفنية في البناء العربي، مطبعة المجتمع العلمي، العراق، د.ط، 1987، ص 129.

*** الصورة البصرية:**

يعتمد الإنسان بشكل كبير على حاسة البصر في إدراكه للموجودات واستثماره لمختلف المشاهد والحركات والصورة البصرية ترتبط ارتباطا وثيقا بالرؤية الوصفية الخارجية للأشياء فهي إذن أقرب إلى السطح منها إلى الجوهر.

والملاحظ أن كتاب الرسائل العثمانية الجزائرية قد اعتمدوا على هذا النوع من الصور أثناء كتابتهم لتلك الرسائل بنوعيها، وقد تكون الرؤية معنوية لا حسية كما هو معروف ومن ذلك نجد مثلا يوسف باشا مخاطبا في رسالته لمحمد ساسي البوني حيث قال، "ورأينا بصائب أنظر، وما أوجبته صحائف الأثر"[1]، كما ورد في الرسالة نفسها "ورأينا أنه لا ينحي مع الله فيما قلدنا من أمور خلقه إلا أن نباشر ذلك بأنفسنا"[2]. حيث نجد أن كاتب الرسالة استخدم الصورة البصرية ولكن النظر هنا كان معنويا حين تحدث عن الرؤيا الصائبة الحكمية وكذا مباشرة الأعمال التي تحدث عنها وهذا يدل على قدرة المرسل في توظيف هذه الصورة بأشكال شتى خدمة للموضوع المراد إيصاله.

أما عن الصورة البصرية المادية والتي يستخدم فيها حاسة البصر فنجد أيضا أن كتاب الرسائل اعتمدوها بكثرة في رسائلهم ومن ذلك نجد بعض الأبيات الشعرية التي كتبها محمد بكداش إلى الشيخ أحمد بن قاسم البوني في رسالته حيث قال[3]:

فجودوا إذا ما الليل أرخى سدوله بهمتكم نصحا لنا تبذلونها

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 55.

[2] نفسه، ص 55.

[3] نفسه، ص 60.

فنجد صورة الليل إذا أرخى سدوله مقرونة بجود وعطاء المرسل إليه من حيث الهمة والنصيحة، أضفى عليها كاتب الرسالة جمالا من خلال تشبيه النصيحة بالشيء الذي يمنح للسائل ليبين من خلالها أهمية وفائدة هذه النصائح المقدمة له.

ونلاحظ في الرسالة نفسها أيضا توظيفا للصورة البصرية من خلاله قوله[1]:

فلمـــا رأينـــا خطكـــم وخطـــابكم وعلمـــا أذعـــتم بـــالمبرة لائـــق

تأججـت الأشـواق واضـطرب الهـوى ومـن ذاك صـار القلـب بالوجـد خـافق

فـي مشـهد يوضـح الانفعـال العـاطفي الكبيـر الـذي يكنـه المرسـل للمرسـل إليـه وفرحـه اللامتناهي برؤية الخطاب وما أصاب القلب من خفقان جرّاء ذلك.

وفـي لوحـة أخرى يرسم لنـا الكاتـب خجلـه الكبيـر أثنـاء كتابتـه لرسـالته ونجـد ذلـك فـي نص رسالة تاج العارفين إلى الفكون حين قال: "إني رفقته والخجل في الوجنات يبدي حمرته والوجل يظهر تارة صفرته"[2].

حيث اعتمد صاحب الرسالة هنا على حاسة البصر الرسم صورته في هذا الموقف وقد تلاحمت الكلمات فيما بينهما بروح يسري فيها السرد القصصي لتجسيد تلك الصورة، ومن هنا ابتعدت تلك الصورة عن التقريرية ومالت أكثر إلى الإيحاء الذي أراده كاتب الرسالة منها.

وفي رسالة موجهة من الفكون إلى تاج العارفين نجده قد بدأها بحمد الله عز وجل ثم انتقل إلى مدح المرسل إليه بصورة بصرية موظفة بدقة وعناية كبيرتين حين قال: "أشرف من تشرق شجرة آل عثمان نورا يتلألأ"[3].

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 62.

[2] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 199.

[3] نفسه، ص 201.

فالمشهد يصور درجة كبيرة من المدح والثناء للرجل حيث شبهه بالنور المتلألئ في إشارة منه إلى المكانة التي يحتلها المرسل إليه بين أهله وفي قلب الرسالة أيضا صورة أخرجت المنظر من حيز الرقابة والتقليد فقد عمد إلى توظيف مشهدين للصورة خارجي شمل المشهد بأكمله، وداخلي صور مكانته في قلبه وبين الناس أيضا فضلا عن حركية الصورة التي أبعدتها عن التقريرية والركود إلى الحيوية والتأثير.

* **الصورة السمعية:** وهي تلك الصورة التي تعتمد على السماع أساسا، وما تلتقطه الأذن من أصوات وأنغام تشترك في تكوين ملامحها وأبعادها.

وقد استخدمت هذه الصورة في العديد من الرسائل الجزائرية العثمانية، ومنها ما وظّف حقيقة ومنها ما وظّف مجازا لأغراض عديدة أراد من خلالها كاتبها أن يوصل فكرة معينة إلى القارئ ومن ذلك نجد في رسالة بعث بها الشيخ محمد ساسي البوني إلى يوسف باشا حيث قال: "بأن يزيل ما ألم بنا من ألم ما نتلقاه من أخبار عنكم تنسد لها المسامع، وترتج لها الأضالع، نسأل الله سرعة تبدلها بأنباء تقر بها العينان، وتلتذ بها الأذنان"[1].

حيث أراد الرسل هنا أن يظهر مدى تأثره بالحالة التي وصل إليها يوسف باشا وأصحابه من أخبار مؤسفة ومحزنة وشبهها بما يسد الأذن كما تمنى له في الصورة نفسها أن تتبدل تلك الأخبار بأنباء سارة تلتذ بها الأذنان وفيها استخدام الصورة السمعية مجازا أي ما تحب أن تسمعه الأذن وتفرح به وقد ابتعد بذلك عن التقريرية من خلال ما توحيه صورة انسداد الأذن أو تلذذها بسماع الأخبار المختلفة وفي جانب آخر نجد أن الصورة السمعية قد توظف بشكل جديد كأن تستخدم عن طريق مثل معروف وهو ما ورد في رسالة عبد الكريم بن فكون إلى شهاب الدين أبي العباس أحمد المقري، قال "أن تسمع بالمعيدي خير من أن

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 57.

تراه"[1] وفيها توظيف للصورة السمعية وهي استحضار للمثل المشهور الذي أراد من خلاله أن يبين حقيقة ما وأن يرسي فكرة معينة لدى القارئ، وهذا استخدام جديد للصورة السمعية أبانت عن تواضع كبير للمرسل أمام المرسل إليه.

أما في الرسالة التي بعث بها الفكون إلى تاج العارفين والتي أراد من خلالها أن يبدي له الشوق والحنين إلى لقياه فقد عبّر عن ذلك في قوله: "حتى إذا هبّت نسائم الوصل من جانب محاسن تلك الديار، وتنغمت نغمات ورنات أوتار الأسطار"[2].

فقد حاول أن يرسم صورة الاشتياق والحنين عن طريق حاسة السمع التي تتلقى تلك النغمات الصادرة عم من يحب إلا أن صورته ظلت تقريرية تكشف عن شدة ارتباطه بالواقع وظواهره الخارجية، ومن هنا تكون إثارتها محدودة تتلاشى بسرعة وهو ما يناقض نوعا ما مع ما يراد إيصاله للمتلقي بوصفه يعتمد أكثر على الإيحاء والتعبير غير المباشر عما يريده كاتب الرسالة.

وفي الرسالة نفسها نجده يشيد بملكة الخطاب وفصاحته عند المرسل إليه حين قال: "وهو أنما أتحفتموه من در نظامكم المسفرة عن فصاحة خطابكم"، احتوى على أن سبب الاتحاف هو ما شنف مسامعكم من سنيي الأوصاف"[3].

وهي صورة سمعية أخرى رسمها كاتب الرسالة لصوت المرسل إليه وخطابه وتبين من خلالها إعجابه الشديد بذلك وقد أحدثت الأثر الذي سعي إليه كاتبها مستخدما حاسة السمع في ذلك، وبذلك نجد أن أغلب الصور السمعية في الرسائل كانت تقريرية إلا أنها منحت شيئا من الإثارة والحيوية والإيحاء في تعبيرها.

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 309.

[2] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 202-203.

[3] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 203.

وندرك من خلال هذا أن الصورة السمعية لا تقل أهمية عن الصورة البصرية سواء من حيث الاستخدام أثناء كتابة الرسائل أو من حيث اعتمادها كحاسة هامة جدا لإيصال الفكرة المرغوبة، ضف إلى ذلك ما أضفته من جانب جمالي وفني خلال توظيفها في الرسائل بنوعيها.

* **الصور الحسية الأخرى:** وهي الصور التي قل حضورها بالمقاربة مع الصورتين السابقين في الرسائل الجزائرية العثمانية ومنها الصورة الذوقية والتي وردت في بعض الرسائل لكن حاسة الذوق فيها استخدمت استخداما مجازيا لا حقيقيا في أغلبها ونذكر من ذلك رسالة عبد الكريم بن فكون إلى شهاب الدين أبي العباس أحمد المقري وقد جاء فيها: "فالله تعالى يمدكم بمعونته ويجعلكم من أهل مناجاته في حضرته، ويسقينا من كاسات القرب ما نتمتع منه بلذيذ منادمته"[1].

وقد شبه هنا صاحب الرسالة قربه من المرسل إليه كمن يسقى بكأس من لذيذ الشراب وهذه صورة حسية وظّف فيها حاسة الذوق مجازا حتى يقربنا من المعنى أكثر وهو الشوق والحنين إلى المرسل إليه.

ونجد في رسالة بعث بها تاج العارفين إلى الفكون توظيف لصورة ذوقية توظيفا مجازيا حين قال: "هذا واعلم أيها الصديق الحميم، أذاقنا الله وإياك بردا الرضى والتسليم"[2] وفيها قدرة كبيرة على توظيف هذه الصورة الحسية ممثلة في الصورة الذوقية بطريقة جميلة وفنية حين تمنى من الله عز وجل أن يغفر لهما ويرضى عنهما وشبه ذلك بالطعام أو الشراب الذي يتذوقه الإنسان فيشعر بالراحة وطعم السعادة، وهنا تبرز قدرة الكاتب وملكته

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري ، ص 309.

[2] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 199.

في الكتابة وتوظيفا الصورة الحسية توظيفا جديدا جميلا ترتاح له الأذن ويحقق بذلك المغزى من وراء رسالته.

ومن الصور الحسية الأخرى التي وجدت لها مكانا في الرسائل الجزائرية العثمانية نجد الصورة الشمية والتي كانت أقل الصور حضورا وقد لمسناها من خلال رسالة تاج العارفين إلى الفكون وهي إحدى الرسائل الإخوانية وجاء في نصها: "سلام يسابق النسيم، ويجاري برقته نفاسة النسيم، يصافح الروض فيكسب من نشره ويفاوح الأزهار فلا تجد أزكى من نشره، يسترق العنبر من عبيره، ويسترق المسك لفوته عنه في كثرة الشتم وتكريره"[1].

فقد شبه التحية والسلام بالشيء الذي يصدر رائحة زكية تكاد تضاهي رائحة أزهار وتفوق المسك أيضا وهو توظيف جميل لحاسة الشم التي ذكرها أيضا في هذا المقطع والمراد هنا إبلاغ المرسل إليه مدى فرحته وسعادته بإرسال هذه الرسالة إليه وهي صورة حسية شمية منحها الكاتب حيوية وإثارة كبيرتين بإدخال عامل السرعة المتفاعل مع المكان فقد اختار لذلك النسيم وقت تفتح الأزهار حيث تنطلق منها رائحة زكية هي في نظره لا تفوق رائحة سلامه إليه وكنى الكاتب برسمه لهذه الصورة الجميلة عن حبه واحترامه وتقديره عن حبه واحترامه وتقديره للمرسل إليه.

ومن خلال ما سبق يظهر لنا أن الصورة البصرية كانت الأكثر استعمالا من بين الصور الحسية الأخرى في الرسائل التي أطلعنا عليها، تلك الصور التي كانت في مجملها صورا متباينة من حيث البساطة والمباشرة والإيحاء والتأثير ورغم ذلك فقد وظفت توظيفا جميلا زاد الرسائل قوة في معانيها وتأكيدا لمضامينها كما ساهمت في شغل ذهن القارئ والرحيل به إلى عالم الكاتب للرسالة والإحسان بما أحس به هو شخصيا عند كتابتها وبالتالي حققت الهدف المنشود من وراء كتابتها وأوصلت المعاني بأمانة أكبر.

[1] أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 198.

الفصل الثالث:قصص الكرامات وموضوعاتها

أولا: في مفهوم الكرامة

ثانيا: نشأة الكرامة وتطورها

ثالثا: موضوعات الكرامة في النثر الجزائري على العهد العثماني

تمهيد:

"لا يحتاج المرء إلى ذكاء خارق أو إلى عقل جد سليم ليشك في واقعية الحكايات التي تروى عن بركة الأولياء، في ما يسمى بكرامات أولياء الله.

فهذه الحكايات التي تتغذى من الخوارق تستفز الحس السليم نفسه، إنها لا واقعية إلى درجة لم يكن معها لأي فرد أو حتى حدا أدنى من معرفة قوانين الطبيعة أو من المنطق أن يسلم بأن ما يروى فيها من خوارق يستطيع أن يجد له سندا أو مبررا طبيعيا أو عقليا إلا إذا تم استلابه من طرف السياق الذي تروى فيه"[1]

ولكن نجد أن شيخ الإسلام –ابن تيمية– رحمه الله يقول في العقيدة الواسطية: "ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات"[2]

وكذا الإمام الطحاوي – رحمه الله– في عقيدته الطحاوية "ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم"[3]

وهذا ما يدفع بنا إلى البحث قصد الوصول إلى نتيجة في هذا الشأن وما مدى صحة ما قيل عن الكرامات وعن أوليائها الصالحين فيما تعلق بتحققها وبتأثيرها في المجتمع الجزائري إبان العهد العثماني؟

والأولياء الصالحون هم "أناس يطوفون ضد كل تصور علمي وبشكل لا يقدر عليه الأنبياء أنفسهم عبر أرجاء الزمان والمكان، يعلمون ما لا يعلمه أحد، يعرفون ما في الأرحام، يحيطون بكل صغيرة أو كبيرة في حياة أتباعهم، لا يخفى عنهم ما يعلن هؤلاء وما يسرون، يتوقعون كل ما يمكن أن يحدث، يقدرون على تغيير مجرى الحوادث والأشياء، يشفون من

[1] الميلودي شغموم، المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي الحكاية والبركة، ص 46–47.

[2] محمد خليل هراس، شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام، مطبعة دار الإفتاء، 1402هـ، ص172.

[3] ناصر بن محمد الأحمد، كرامات الأولياء، نقلا عن شرح العقيدة الطحاوية، مطبعة المكتب الإسلامي، ص558.

الأمراض المستعصية التي لا ينفع فيها علاج طبي، يحلون أعقد المشاكل التي يعجز عن حلها أصحاب العلم والذكاء والقوة والدهاء"[1]

وقد أورد البخاري في صحيحه: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب)، وعليه فإن الأولياء هم "رجال الله المكلفون بنشر القدسي والسهر على إستمراره حاضرا في الدنيوي، وصورة الأشجار التي لا تنبت إلا منحنية إلى جهة الزاوية خير تعبير عن ذلك، إنهم المعيدون لخلق القدسي المحافظون على استمراره المنبهون إلى حضوره الدائم المذكرون به إذا تطلبت الضرورة ذلك، وما أكثر مثل هذه الضرورة: فلا يخلو الزمان من شاك أو مرتد أو غافل أو جاهل أو جحود!"[2]

إذن ما المقصود بالكرامة ومن هم الأولياء الصالحون؟ ما كان هدفها وأسباب ظهورها؟ وهل فعلا استطاعت علاج الأزمات الاجتماعية في الجزائر إبان العهد العثماني؟ وهل كان لها حضور قوي أم لا؟

أسئلة سنحاول الإجابة عنها من خلال بحثنا هذا.

أولا: في مفهوم الكرامة

قبل الخوض في تعريف الكرامة أرى أنه من الواجب الحديث ولو بشيء من الاختصار عن الخيال وعن الحكاية وذلك لارتباطهما الشديد وملازمتها للكرامة.

إذن فالخيال أو المتخيل يستخدم "بمعان كثيرة يشير أغلبها إلى ما في «خيل» وفي أصلها ومشتقاتها من دلالات على الظن والوهم والتوقع والكذب والصور الكاذبة أو غير

[1] الميلودي شغموم، المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي، ص47.

[2] نفسه، ص59.

الحقيقية وما يقترن بها من عدم اليقين أو الاستلاب أو الإشكال أو الكبر والتعالي، أي بكل ما ليس حقيقة صادقة تملك اليقين"[1]

هذا فيما يخص المتخيل أما عن الحكاية فهي "المحاكاة أو المشابهة أو التقليد، ونحن نطلقها على القصة أو الرواية التي تروي كرامة من كرامات الأولياء، ومعنى هذا أننا نعتبر هذه الكرامات تقوم على المحاكاة أو المشابهة أو التقليد، وهذا أيضا شأن البركة التي نربطها بها"[2]

وعليه فمن الواجب علينا أن نطرح التساؤل الآتي: ما الذي تقلده أو تشبهه أو تحاكيه هذه الكرامات؟

ضف إلى ذلك أن هنالك مصطلحا ارتبط شديد الارتباط بالكرامة ويعتبر في الكثير من المصادر والمراجع مرادفا لها وهو البركة والتي تعني "النماء والزيادة وهي السعادة وهي العلو أو السمو، وهي بالتالي حالة تنقل الإنسان أو غيره من وضع دنيوي إلى وضع قدسي بفضل ذلك النماء أو تلك الزيادة وتكون نتيجة هذا العلو تلك السعادة والتشريف والكرامة التي يتمتع بها ويمتع بها. فلسان العرب لا ينسى «تبركت به أي تيمنت به»"[3]

وهنا أيضا وجب علينا طرح تساؤل آخر يتعلق بالبركة والكرامة وهو: كيف تحصل هذه الزيادة أو السعادة؟

أسئلة نحاول الإجابة عنها في قادم مباحثنا من خلال التعرف على البركة والكرامة والأولياء الصالحين ونماذج عن هذه الكرامات في الفترة العثمانية بالجزائر.

---

[1] الميلودي شغموم، المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي، ص17-18.

[2] نفسه، ص20.

[3] نفسه، ص20.

لا يمكن بأي حال من الأحوال الحديث عن الكرامة بمعزل عما يعرف بالأولياء الصالحين هذه الفئة من الناس التي تختلف عن بقية البشر وتتميز عنهم بكونها منحت ما افتقر إليه الكثير من إكرام خصهم الله به من بين عباده على سبيل الاصطفاء والصفوة، فاحتلوا بذلك سلطة رمزية مكنتهم من اكتساب صلاحيات ومزايا كعدم تعرض أملاكهم للمصادرة، وعدم دفعهم للضرائب وتقربهم إلى البايات وتقبلهم الهدايا.

ولا تعريف للأولياء أحسن من قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ* لَهُمْ البُشْرَى فِي الحَيَّاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾[1]

وعليه فإن للولاية منزلة كبيرة جدا في الدين لا يبلغها إلا قليل ممن توفرت فيهم صفات الأولياء الصالحين من تقوى وورع ودين باطني حقيقي.

وللولاية جانبان:

– الجانب الأول: ويرتبط بالعبد من قيام بالأوامر واجتناب للنواهي وإكثار من النوافل قصد الصعود في مراقي العبودية.

– الجانب الثاني: وهو محبة الله عز وجل للعبد وتوفيقه له لدوام الاستقامة.

وعليه فالأولياء الصالحون هم عباد آمنوا بالله عز وجل وصدقوا به وبما جاء في القرآن الكريم عنه سبحانه وتعالى وبما جاء في السنة النبوية الشريفة، والتزموا بشرع المولى وتجنبوا الوقوع فيما يغضبه من ارتكاب محرمات، هم أولئك عباد الله من الأولياء الصالحين. فهم أناس ملتزمون بالشريعة الإسلامية واتخذوا من الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة يسيرون على منهاجها ولو يزكون أنفسهم فهؤلاء هم أهل كرامة الله سبحانه وتعالى، ولهذا فقد كانت

[1] يونس، الآيات (62–64).

لهم منزلة كبيرة عند الناس لدرجة أنه "شاع الاعتقاد بأن الولي يمنح ويمنع وأنه القادر على دفع الضرر ورد المصائب"[1] هذا عن الأولياء الصالحين الذين ارتبط اسمهم ارتباطا شديدا بالكرامات التي سنتعرف عليها في العنصر القادم.

1- تعريف الكرامات:

الكرامة: "أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، يقال: أفعل ذلك وكرامةً لكَ أي وأُكْرِمُكَ كرامةً، وله علي كرامة أي عزازة"[2]

وتعرف الكرامة أيضا بأنها: "من يكرم الله به خاصة أوليائه من جلائل المزايا وشرائف العطايا مما تقتضيه حكمته العلية، وتتفضل به رحمته الأزلية"[3]

فلله عز وجل من صفوة عباده "رجالا يختارهم في كل زمان ومكان من عباده المخلصين يصعدهم إلى مقامات سامية من الكمال الروحاني، ويحبوهم بهبات جليلة لا تخطر على بال من لا يكون على شاكلتهم، ويحدث على أيديهم أمورا تخالف العادة، ولا يمكن تعليلها بما تعرفه من قوانين الطبيعة"[4]

وقد اختلف دارسوا قصص الكرامات بين مثبت لها وناكر ولكل حجته في ذلك فمثلا يقول مثبتو الكرامات أن "هؤلاء الأولياء لسمو أرواحهم وكرامتهم عند الله يؤثرون على من دونهم بالإمداد الروحي، هذا الإمداد لا ينقطع بعد موتهم وانتقالهم، بل يقوى ويتزايد على قدر درجة رقيهم في ذلك العالم النوراني الباهر، كما يجوز التوسل بهم إلى الله كأن يقول الداعي:

[1] أمينة قراري، مناهج دراسات الأدب الشعبي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط1، 2011، ص119.

[2] كريم البستاني، المنجد في اللغة والأعلام، ص 682.

[3] محمد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1967، ص 569.

[4] نفسه، ص575.

اللهم إني أتوسل إليك بعبدك الصالح فلان أن توفقني وترشدني"[1]، ضف إلى ذلك أنه "ما من أمة إلا ولها رجال مقدسون تقيم لهم الأعياد والموالد، وتقرب لهم القرابين والعوائد وتبنى على قبورهم النصب والشواهد، وتقصدهم في الملمات والشدائد، وتروي لهم من عجائب الخوارق وغرائب الكرامات ما لا يدخل تحت حصر ولا يضبطه استقصاء"[2]

ويرى هؤلاء أيضا أن الكرامات ثابتة في القرآن الكريم، ومن ذلك في قوله تعالى، في شأن مريم، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]

وكذلك الذي حصل لأصحاب الكهف رغم أنهم ليسوا بأنبياء ولا يرسل بل ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُم هُدًى﴾[4]

ويقول أنصار تثبيت الكرامة «مادام هذا مثبتا بالنص القطعي الذي لا يخالفنا فيه أحد من أهل القبلة، ولم يرد في الدين ما يشير إلى انتهاء ذلك الأمر، وذهاب وقته، وتبدل سنة الله فيه، فما المانع إذن من استمراره وحصوله على يد أصحاب الأرواح العالية والنفوس الزاكية من خاصة أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟»[5]

كما نجد أيضا في الأحاديث النبوية الشريفة ما يوحي إلى ذلك ومنه قوله صلى الله عليه وسلم عن عمر بن الخطاب: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يك من أمتي أحد فإنه عمر»[6]

---

[1] ينظر، محمد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1967، ص576.

[2] نفسه، ص577.

[3] آل عمران، الآية (37)

[4] الكهف، الآية (13)

[5] محمد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم، ص570.

[6] حديث رواه أبو هريرة، وهو حديث متفق عليه.

ومن كل هذا استدل أصحاب الرأي القائل بأن الكرامة مثبتة، أما عن منكري الكرامة فيرون أن "حصولها يقدح في المعجزات والنبوات والآيات القرآنية أما قدحها في المعجزات على قولهم، ولكون الله تعالى جعل المعجزات دلائل على النبوة، فحصولها على يد غير النبي يخرجها عن كونها دليلا على النبوة"[1]

كما يفسر هؤلاء المنكرون الكرامة كونها «كرامة أدبية روحانية محضة، فيكون من أثرها على الولي أن يفيض الله عليه أنوار الصفات الجليلة والسجايا الشريفة، ويسبل عليه رداء السكينة وبرد الوقار، فيصبح إنسانا فاضلا يتخذ مثالا على الحياة والكمال ونموذجا لغيره في التخلق بشريف الخلال، ولزوم جادة الاعتدال»[2]

ويبقى أن نشير بأن الاختلاف ليس كثيرا كون الكرامات توهب لفئة خاصة لا لسائر المؤمنين، وتعتبر أمرا نادرا والنادر لا حكم له.

2- الفرق بين الكرامة والمعجزة:

المعجزة كل خارق للعادة وتسمى أيضا بالآيات، وقد جعلت المعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء وما يجمع بينهما هو الأمر الخارق للعادة.

وقد تكون المعجزة حسية أي نشاهدها بالعين المجردة (انقلاب عصا موسى حية تسعى) أو معنوية كالقرآن الكريم المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

أما الكرامة فهي للأنبياء وللأولياء وقد ثبتت للأولياء وبظهور أمور خارقة للعادة على أيديهم ويشترط فيهم الاستقامة على الإيمان ومتابعة الشريعة.

[1] محمد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم، ص571.

[2] نفسه، ص572.

وإن كان خلاف ذلك فمن ظهرت على أيديه الخوارق يكون من الأحوال الشيطانية وعدم حصول الكرامة لبقية المسلمين ليس لنقص في إيمانهم أبدا.

3- أسباب وقوع الكرامة:

- تثبيت إيمان العبد والزيادة في قوته.

- إقامة الحجة على الأعداء.

- قد تكون سببا في سعادة صاحبها إن شكر.

- قد تكون ابتلاء لشفاء عبد إن لم يستقم.

4- حقائق كرامات أولياء الغرب الأوسط (الجزائر):

تميزت كرامات أولياء الغرب الأوسط بانتشارها الكبير في المدن (الحضر) أكثر من الأرياف وبهذا فهي قد خالفت ما تعودنا عليه من وجودها في البوادي بكثرة، إضافة إلى أن الكرامات آنذاك امتازت بصبغة التشابه والمماثلة فقد اشترك الكثير من الأولياء الصالحين في العديد من الكرامات ككشف السارق، ورد الغريب، والتنبؤ بالمستقبل وشق الأرض، وجلب الماء، وتبديل الأحوال، والشفاء...كما أن صاحب الكرامة لا يجهر بها فهي بشرى له.

5- أقسام الكرامة:

تنقسم الكرامة حسب شيخ الإسلام إلى قسمان:

أ- **قسم يتعلق بالعلوم والمكاشفات:** وهو أن يحصل للإنسان من العلوم ما لا يحصل لغيره والمكاشفات أن يكشف له من الأمور مالا يحصل لغيره.

ومثال الأول: ما ورد عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- أن الله أطلعه على ما في بطن زوجته من الحمل، أعلمه الله بأنه أنثى.

ومثال الثاني: هو أن يحصل الإنسان من الكشف مالا يحصل لغيره: ما حصل للفاروق عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– في قصته المشهورة "يا سارية الجبل".

ب– قسم يتعلق بالقدرة والتأثيرات: وهو كما قال العلماء عن شيخ الإسلام وما أعطي من قوة في المناظرة والتأثير على الخصم من العلوم العقلية والنقلية حتى قالوا أنه لم ينقطع يوما من الدهر وهو يناظر خصمه. حتى أنه كان يخصم الذي أمامه من أقواله ومذهبه ولا شك أن هذا مما فتح الله به على شيخ الإسلام من الكرامات.

6– فوائد الكرامات:

لا شك من أن للكرامة فوائد عديدة وهي بذلك لا تحصل عبثا دون حكمة من ورائها وقد لخصها العلامة الشيخ عبد الرحمان بن ناصر السعدي في ثلاث قضايا:

– "أعظمها الدلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته، فمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء تدل دلالة واضحة أن الأمر كله لله، فمن ذلك قصة أصحاب الكهف، كما وهب لزكريا يحيى على كبره وعقم زوجته وهذه معجزة للنبي وكرامة لزوجته.

– ثانيها أن وقوع الكرامات للأولياء في الحقيقة معجزة للأنبياء لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعة نبيهم الذي نالوا به خيرا كثيرا من جملتها الكرامات.

– الثالثة أن كرامات الأولياء هي من البشرى المعجلة في الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1] ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع في أي وقت وفي أي زمن وقد رأى الناس منها العجائب والأمور الكثيرة"[2]

[1] سورة يونس، الآية 64.

[2] ينظر: الشبهات اللطيفة، للشيخ العلامة عبدالرحمان السعدي، ص99.

7- ضوابط الكرامة:

حتى نطلق على ما يظهر على أيدي الصالحين أو غيرهم كرامة يجب أن تتوفر فيها مجموعة من الضوابط ولعل أهمها:[1]

➢أن يكون صاحبها مؤمنا تقيا مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الذِّينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[2] فيؤدي ما افترضه الله –عز وجل– عليه من الفروض والواجبات ويتجنب ما نهاه الله –عز وجل– عنه من المحرمات ثم يرتقى في سلم العبودية بعمل المستحبات وترك المكروهات حتى يحقق معنى الولاية.

➢أن لا يدعي صاحبها الولاية: فدعوى الولاية هي دعوى علم الغيب أولا، ثم إنها تزكية للنفس ثانيا وقد قال الله –عز وجل–، ﴿فَلَا تُزَكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن اتَّقَى﴾[3]

➢أن لا تكون سببا في ترك شيء من الواجبات: الكرامة يحصل عليها الولي بسبب طاعته لله –عز وجل– بإيمانه وتقواه، ويلزم من ذلك أن لا تخالف ما كان سببا في حصولها.

➢أن لا تخالف أمرا من أمور الدين: فلو رأى في المنام أو في اليقظة شخصا في صورة نبي أو ملك أو صالح يقول له: قد أبحت لك الحرام، أو حرمت عليك الحلال، أو أسقطت عنك التكاليف أو نحو ذلك لم يصدقه فإن ذلك من الشيطان.

8- الأشخاص الذين تظهر على أيديهم الخوارق

"ليس كل من ظهر على يديه أمر خارق للعادة كان وليا، ولذا فيمكن تصنيف أصحاب الخوارق إلى عدة أقسام على النحو التالي:[4]

---

[1] ينظر: شرح أصول إعتقاد أهل السنة والجماعة، كرامات أولياء الله عز وجل 7/9.

[2] سورة يونس، الآية 62-63.

[3] سورة النجم الآية32.

[4] ينظر، أحمد حمدان، بحث في مقدمة كتاب اللالكائي، د.ت، ص23.

✓أناس صالحون ملتزمون بالشريعة الإسلامية ظاهرا وباطنا قد آمنوا بالله –عز وجل– وبما أمرهم أن يؤمنوا به وعملوا بما أمروا أن يعملوه ويعبدون الله –عز وجل– على وجل وخشية أن لا يتقبل منهم.

✓قسم فاسق استخدموا الشياطين واستخدمتهم الشياطين إما عن طريق السحر أو ما شابه ذلك من الوسائل المحرمة.

✓قسم كفار، استعملوا وسائل متعددة إلا أن هؤلاء يعملون ما يعملون لإفساد عقائد المسلمين فيظهرون لهم في مظهر الزهاد الصالحين ويظهرون لهم من السحر والشعوذة ما يخدعون به ثم يبثون فيهم عقائد الشرك والضلال تحت ستار الولاية.

✓قسم عباد جهلة، أغواهم الشيطان، وهؤلاء ليس لديهم من العلم شيء وهؤلاء لا يفرقون بين ما هو كرامة، وما هو خداع الشيطان.

9- آراء مختلفة حول الكرامة

من خلال بحثنا حول قصص الكرامات والفرق بينها وبين المعجزة وما لاحظناه من آراء مختلفة حول وقوعها حقيقة من عدم ذلك توصلنا إلى مجموعة من الآراء نوجزها فيما يلي:

– بالنسبة لأهل السنة والجماعة يرون بجواز وقوعها على أيدي الصالحين كما يرون بأنها لا تصل عن الخوارق التي أظهرها الله –عز وجل– على أيدي الأنبياء والمرسلين وهي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة.

– غير أن الأشاعرة مثلا "تعتقد بجواز الكرامة دون حد، وما جاز وقوعه لنبي جاز وقوعه لولي، بل الخارق للعادة يقع من النبي والولي والساحر، ولا فرق إلا دعوى النبوة من النبي والصلاح من الولي"[1]

– أما المعتزلة فيرون أن "خوارق العادات لا يمكن أن تقع لغير الأنبياء، ولذا فقد ذهبوا إلى منع وقوع الكرامات للأولياء الصالحين، وقد قال بهذا القول أيضا الإمام محمد بن حزم – رحمه الله–تعالى، قال شيخ الإسلام: "فقالت طائفة لا تخرق العادة إلا لنبي وكذبوا بما يذكر من خوارق السحرة والكهان وبكرامات الصالحين وهذه طريقة أكثر المعتزلة وغيرهم كأبي محمد بن حزم وغيره وحجة المعتزلة فيما ذهبوا إليه أنه بالقول بالكرامات يشتبه النبي بالولي"[2]

كانت هذه مجموعة من الآراء والتي وإن اختلفت أحيانا إلا أن الأمر الواجب التصديق هو بوقوع الكرامة حقا لمشاهدة الناس لها وهذا أمر كاف.

ثانيا: نشأة الكرامة وتطورها

1–عوامل ظهورها:

ارتبط الناس في هذه الفترة كثيرا بفئة المتصوفة والزهاد وقد يكون هذا سببا رئيسيا في ظهور هذه القصص والكرامات وقد انتشرت هذه الفئة في "خانات، وزوايا ورباطات وما إلى ذلك. كمراكز للعبادة والمرابطة، لأن الناس مالت نفوسهم إلى مثل هؤلاء الذين أصبحوا المثل السائد في بيئتهم لاحتقارهم الدنيا وتخصيص حياتهم للعبادة والمشاهدة وما إلى ذلك".[3]

[1] ناصر بن محمد الأحمد، كرامات الأولياء، تاريخ العودة إلى المقال www.ahlalhdeeth.com.2018/10/13

[2] نفسه.

[3] حياة مستاري، قصص الأولياء في الأوراس منطقة كيمل نموذجا جمع ودراسة وتوظيف، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، 2007/2006، ص1.

والأمثلة في ذلك كثيرة ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر عبر التاريخ الإسلامي: "أبو طالب المكي المتوفي سنة 386هـ وأبو نصر السراج المتوفي سنة 392هـ، وأبو حامد الغزالي 505هـ، وابن عربي المتوفي سنة 636هـ".[1] هؤلاء وأمثالهم جسدوا بسيرهم هالة في أعين الناس من جهة ومن جهة أخرى أسطروا بعض قصصهم التي تناقلتها الألسن بالزيادة أو بالنقصان وفق هوية الراوي ورغبته ومدى تعلقه بهذا الولي أو ذاك وما يهدف من وراء هذه الرواية، هؤلاء الذين تتسم أعمالهم بالفضيلة والبطولة في آن واحد، وتتحقق لهم الولاية عن طريق العمل الصالح والمعجزة"[2]

وبذلك كانت "قصص الكرامات منهلا خصبا للأدب العالمي لأنها وظفت توظيفا انتشل الأدب من التقريرية إلى الخيال اللامحدود والرؤى الشعرية التي تركت بصماتها على الأسلوب الأدبي، لأن النص الكراماتي التراثي نص أدبي محكي ألقى بظلاله على النفس لذلك نجد قصص الكرامات ذات المضمون الواحد ترد أحيانا بأشكال عديدة، مما يحولها إلى أدب شفوي مجهول وذلك لأن المتلقي إما أن يكون مؤمنا مسبقا بالكرامات فلا يحتاج إلى إثبات وإما أن يكون منكرا فلا ينفع معه دليل»[3]

كما أن "بعض الكرامات تتم عبر الرؤى المنامية التي لا يمكن إثباتها، ولذلك كانت لهذه القصص وظيفتان أساسيتان بالنسبة للشعب هما: إثبات الولاية للولي، والتنفيس الإبداعي للشعب أو المتلقي"[4]

[1] نفسه، ص1، نقلا "عن منير سعد الدين، التصوف الإسلامي، الزوايا والخوانق الصوفية والمكتبات في التراث، ص1.

[2] ينظر: عبدالحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، دراسة ميدانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1986، ص107.

[3] حياة مستاري، قصص الأولياء في الأوراس منطقة كيمل نموذجا، ص1-2.

[4] نفسه، ص2.

ولو أردنا فعلا أن "نتتبع هذه الكرامات والقصص سنجد كثيرا في كتب الأقدمين ومنها ما رواه البخاري ومسلم، كقصص سعد بن أبي وقاص الذي دعا على رجل كاذب"[1] حين قال: "اللهم إن كان عبدك هذا كاذبا، قاص رياء وسمعته فأطل عمره وأطل فقره، وعرضه للفتن، وكان إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابني دعوة سعد، قال عبد الملك: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمزهن"[2]

ومنها أيضا ما روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين "وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر الدرة على الأرض وقال: أسكني بإذن الله فضرب أمير المؤمنين (رضي الله عنه) برمحه قائلا: يا أرض أسكني، ألم أعدل عليك؟ فسكنت.

وقعت النار في بعض دور المدينة فكتب عمر على خرقة: يا نار أسكني بإذن الله فألقوها في النار فانطفأت في الحال"[3]

كما ورد في صحيح البخاري عن أبي عبيدة بن الجراح "جاع هو وعسكره وعددهم ثلاث مائة فألقى لهم البحر الحوت الذي يقال له العنبر، فقال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال لا نحن رسل رسول الله، وفي سبيل الله فكلوا فأكل منه الجيش ثماني عشر ليلة ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا، ثم أمر براحلة فرحلت ثم مرت من تحتهما فلم تصبهما"[4]

[1] حياة مستاري، قصص الأولياء في الأوراس منطقة كيمل نموذجا، ص5.

[2] حديث رواه البخاري رقم (755).

[3] فوزية منيع الخليوي، قصص واقعية في الكرامات، تاريخ العودة للمقال: 2018/10/12 www.saaid.net.com

[4] فوزية منيع الخليوي، قصص واقعية في الكرامات، تاريخ العودة للمقال: 2018/10/12 www.saaid.net.com

وقد روي عن خالد بن الوليد أنه "أتى بسم فقال ماذا؟ قالوا سم قال بسم الله وشربه. فلم يضره شيء، وأتى مرة بزق من خمر فقال اللهم اجعله عسلا، فصار عسلا"[1]

2-الكرامة بين الحقيقة والأسطورة والحكاية الشعبية

لقد استطاعت قصص الكرامات أن "تشكل ملامح ثقافية مرتبطة بالبيئة المحلية وهوية منفتحة على التراث الإسلامي، مما يعطيه صفات الإبداع الإنساني، ولذا نجد فيها إحساس الذات، وإحساس الأمة، والتاريخ، وجمالية الأصالة، والتواصل والصفاء، فهي نص متلق دون علاقة بالواقع والرؤيا، ونمط مجتمعي عقلي روحي لأنها ليست صادرة عن مبدع، وإنما سلوك عام يصدر عن أفراد يكونون مؤسسات اجتماعية دينية ولذلك تبدو معقدة من حيث مصدرها"[2] وهو ما يجعل الإنسان في حيرة من أمره وقلق كبير تجاه هذا النوع من القصص.

غير أن انتشارها وبكثرة سواء تعلق الأمر بالبدو أو الحضر وسواء آمنت بها الطبقة المثقفة أو المحدودة المستوى، يجعلنا نعتقد وبشدة أن لهذه القصص مكانة كبيرة في حياة الناس خاصة عندما ترتبط هذه القصص بالواقع المعيش وقدرة أصحابها على معرفة أمور يجهلها غيرهم وتحقيق ما عجز عنه الكثيرون.

ولكي نستطيع أن نحدد مكان الكرامة بين الحقيقة والخيال لابد لنا أن نعرج ولو باختصار عن أمور عديدة لها علاقة بالخيال أو بالأحرى ببعض المفاهيم التي ارتبطت بالأدب الشعبي ارتباط الكرامة بالحياة اليومية للناس ومنها:

[1] سير إعلام النبلاء 376/1.

[2] حياة مستاري، قصص الأولياء في الأوراس منطقة كيمل نموذجا، ص6.

أ- الأسطورة: والتي عرفها محمد محمود أبو غدير بأنها "العمل الخارج عن المألوف والخارق للعادة في صفات الإنسان والحيوان والطير والجن، وهي تفسر أسرار الحياة والكون في أسلوب قصصي يدور حول التقاليد والعقائد الدينية والاجتماعية"[1]

وعليه نستطيع أن نلاحظ بأن الكرامة والأسطورة يشتركان فيما هو خارق للعادة وخارج عن المألوف، غير أن الأسطورة تبتعد عن الكرامة من حيث كونها ترتبط كثيرا بالخيال لا بالواقع على حد قول نبيلة إبراهيم "إن الأسطورة محاولة لفهم الكون بظواهره المتعددة، أو هي تفسير له، إنها نتاج وليد الخيال"[2]

ب- الحكاية الشعبية: وتعرف حسب المعاجم الألمانية بأنها "الخبر الذي يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية من جيل لآخر، أو هي خلق حر للخيال الشعبي ينسجه حول حوادث مهمة وشخوص ومواقع تاريخية. أما المعاجم الإنجليزية فتعرفها بأنها حكاية يصدقها الشعب بوصفها حقيقة، وهي تتطور مع العصور وتتداول شفاها، كما أنها قد تختص بالحوادث التاريخية الصرف أو بالأبطال الذين يصنعون التاريخ"[3]

إذن فالحكاية الشعبية أيضا فن سردي مرتبط بالخيال كثيرا يحكي عن حوادث تاريخية غريبة في كثير من الأحيان أبطالها أناس خارقون للعادة تتحقق على أيديهم أمور كثيرة يعجز عنها الناس وهذا هو الأمر الذي قد تشترك فيه مع الكرامة لكن تبقى الكرامة قريبة للتصديق أكثر من الحكاية الشعبية أو الخرافية كونها شوهدت من قبل الناس أما الثانية فتم تناقلها عبر المشافهة وقد يشوبها من التحريف والتغيير الكثير.

[1] محمد محمود أبو غدير، توظيف الأسطورة في الرواية العبرية الحديثة، إبداع، ع12 ديسمبر1997، ص124.

[2] نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د.ط، ص9.

[3] نفسه، ص91.

ومن هنا نكون قد ميزنا بين الكرامة وغيرها من أشكال التعبير في الأدب الشعبي القديم حتى يتم ضبط المصطلحات بدقة أكبر والتفريق بينهما بشكل أكبر.

وكخلاصة لكل ما سبق فإن "أهم ما يميز الكرامات سواء أكانت قصصا أم أخبارا، التزامها بالحقيقة العليا، حقيقة الإقناع بالبراهين السنية الإلهية، وبالمبادئ الجوهرية حين تكاثرت العبثية وساد الخواء الروحي، كما أن هذه الكرامات تتشابه وكأنها تتناسل حاملة جينات وراثية واحدة، كما أنها طاقة روحية لا تنضب، إذ تتجدد أبدا ولكنها لا تخضع للنسيان"[1]

وعليه فإن قصص الكرامات "قادرة على التجدد إلى ما لانهاية تلقائيا، ولم يكن هدف هذه القصص أدبيا بقدر ما كان إعجازيا، وبرهانا على الحقيقة العليا، ولونا من ألأوان الأخلاق الروحية، وهي ليست شكلا محددا وإنما هي عامة بين السرد القصصي والقصص الشعبي الرمزي، أو السرد القصصي الخيالي لأنها تدور حول قوى ما فوق الطبيعة، أو حول الأشخاص الذين لهم قدرة خارقة وعموما فإننا يمكن أن نرى بأن هذه القصص الكراماتية فيها لون من الأسطورة أحيانا وفيها حقيقة عليا أخرى"[2]

ولعل هذا ما لاحظناه خلال تعريفنا للأسطورة رغم ارتباطها الكبير بالخيال وبالبطل الذي يكون غالبا آلهة أو أنصاف آلهة.

ولو عدنا للحديث عن الكرامات في الجزائر وبخاصة في العهد العثماني الذي هو محور دراستنا لوجدنا أن أصحابها تميزوا بصفات كثيرة على غرار زهدهم في الدنيا والابتعاد عن ملذاتها وسعيهم الكبير إلى جلب أكبر قدر من الناس وإمالتهم إليهم عن طريق اعتقادهم بصحة الخوارق.

[1] حياة مستاري ، قصص الأولياء في الأوراس منطقة كيمل نموذجا، ص17.

[2] نفسه ص17.

وبذلك كله سيطرت هذه الكرامات في الجزائر إبان الفترة العثمانية وتغلغلت إلى عقول وقلوب الكثير من الناس وآمنوا بها إيمانا مطلقا وصدقوا بحقيقتها وركضوا وراء أصحابها ضنا منهم أنهم أولياء صالحون حتى وإن تخاذل هؤلاء في تأدية واجباتهم الدينية، وسنحاول في قادم بحثنا أن نتطرق إلى مجموعة من هذه القصص بشيء من الدراسة والتحليل حتى يتسنى لنا التقرب إليها أكثر.

ثالثا: موضوعات الكرامات

لقصص الكرامات موضوعات كثيرة ومتنوعة تختلف باختلاف صاحبها وزمان وقوعها ومكانه، وسنحاول تسليط الضوء على الموضوعات المشتركة في مجموعة من قصص الكرامات خلال الفترة العثمانية بالجزائر فلقد كان لها مكانة كبيرة في حياة الفرد الجزائري آنذاك وهي "لن تزول، ولا يمكن لأحد القدرة على تسويغ زوالها، لما لها من أبعاد حضارية، إنسانية، روحية. ومن خصائصها أنها لصيقة بلغة الحياة اليومية الشعبية وضاربة بجذورها من حيث دلالاتها الروحية، كإبداع استثنائي سواء أكان الأمر متعلق بالنص القصصي الكراماتي الرعوي، أم بالنص القصصي الكراماتي الحضاري"[1] ضف إلى ذلك أن "ما يميز كرامات أولياء المغرب الأوسط أنها انتشرت في الحواضر على حساب البوادي، فكسرت التقليد الأعمى. الهروب إلى الأماكن الطبيعية، ورمزية الغار والوحي حاضرة وقلبت الآية فخرجت من دائرة الطبيعة إلى دائرة الثقافة، فكان تواجدهم بمراكز السلطة والقادة العسكريون والفقهاء الرسميون، وكانت الميزة الثانية أن كراماتهم لها صفة التكرارية والتشابه، اشتركوا في الكرامات عينها كطي الأرض والمسافات وإبراء العلل والتنبؤ بالغيب، وإفشاء المكنون واستدرار الغيث واستجابة الدعاء، وإرجاع المسروق"[2] هذه بعض الموضوعات المشتركة في

[1] حياة مستاري، قصص الأولياء في الأوراس منطقة كيمل نموذجا، ص6.

[2] مداني حرحيرة، مخطوط مذكرة ماجستير، قسم الفلسفة، جامعة وهران، 2013، ص109.

كرامات الأولياء خلال الفترة العثمانية بالجزائر، كما سنتطرق خلال هذا العنصر إلى موضوعات أخرى لا تقل أهمية عن سابقاتها.

1- كرامة إرشاد البشر

***سيدي أحمد بن سعيد العفيفي:** ومن كراماته ما ذكره الحفناوي في مؤلفه (تعريف الخلف برجال السلف) حيث قال "أن الشيخ علي المهاجري كان زمارا في الأعراس بأن بلغ الغاية في صنعته بحيث يشترطه أهل الأعراس دائما حيث فاق أهل صنعته وهي صنعة محرمة لأن مثل زمارته تلهي كل اللهو على ما حكوا عنه ولو على قول ابن كنانة الذي يقول بجوازها إن لم تله كل اللهو سيما مع انضمام مفاسد إليها كحضور النساء والشبان والرقص وذكر الخدود والقدود فإن كان ذلك كذلك فحرام لا يقول أحد بحليته أبدا، قد أتى إلى هذا الشيخ في حاجة عرس أو غيرها فقضى حاجة الشيخ على أحسن ما يريد فعطفه الله عليه وقال له إن مررت بمحل كذا في طريقك تمرغ بالموضع الفلاني فلما وصل إليه تمرغ فيه وكان قبله مجتمع الأولياء ديوانا هنالك فأثر فيه الحب لله بأن صبغ حينئذ قال وبعد ذلك لا أحضر إلا عند العروس لزوجها واذهب بعد إلى المسجد فأشتغل بالصلاة والعبادة إلى أن يطلع الفجر أو ما شاء الله، والناس يظنون أنه هو الذي يرقص ويشطح ويغني وليس كذلك وإنما خلقت صورة شيطانية مثل صورته مع أنه لا إثم عليه كما يخلق الله الملائكة على صورة الإنسان تفعل الطاعة ويكون الثواب للإنسان".[1]

***سيدي أحمد بن الحسن الغماري:** ومنها ما ذكره الإمام (ابن مريم التلمساني) في (البستان) قال: "قال دخلت في بعض الليالي أنا وبعض أصحابي الجامع الكبير قال فبتنا فيه فلما جاء الشيخ سيدي أحمد للمقصورة يتهجد فيها ذهبت فأردت أن أدخل عليه المقصورة فلما دخلت

[1] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة سير فونتانة الشرقية، الجزائر، د.ط، ج2، 1906، ص55-56.

قدمت رجلي للدخول فبقيت معلقة في الهواء لا أستطيع أن أضعها بالأرض ساعة فصرت أحاول الرجوع إلى ورائي حتى بعدت عن المقصورة فتبت وهربت ومن تلك الناحية".[1]

2- كرامة تكليم الموتى

***سيدي أحمد الشريف الورتيلاني:** من كراماته أن سيدي محمد أعني الذي كان في صدوق المشهورة ولايته الجوادي أخذ منه وكان شيخا له فلما قربت وفاته قال له إذا مت فمن أشاوره بعد ذلك فقال له أنا قبل وبعد، فلما مات كان الأمر كذلك فصار يكلمه من قبره إلا مرة واحدة أتى إليه يشاوره في أمر فنادى الشيخ على عادته فلم يستجب له أي لم يجبه فبكى من ذلك وظن أن المانع منه فمكث غير بعيد وناداه مرة أخرى فأجابه فقال له أين كنت، قال كنت عند الشيخ سيدي يحيى كان غائبا فلما رجع ذهب الأولياء إليه وكان ولده سيدي يحيى في مجانة بأهله مكث فيها عشرين سنة وكان يركب معه من مماليكه ثمانون عبدا فأرادوا غدره فقال له الشيخ قل لولدي يحيى أنت نائم وأرادوا قتلك فأنا الذي أيقظتك حتى ركبت فرسك ونجوت منهم ثم بعد ذلك رجع إلى وطنه إلى أن قضى الله أمرا كان مفعولا".[2]

***سيدي عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الرحمان اليعقوبي:** ومن كراماته ما ذكره ابن مريم في مؤلفه (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان) وقال فيها: "أن الشيخ أتى ضيفا لسيدي العباس في العباد الفوقي ونزل عنده وقال له نريد المبيت في الجامع وتعشى وذهب للجامع وذهب معه السيد العباس وراءه خفية ثم أنه ذهب لداره وصار يراقبه إلى أن وصل للجامع فصلى الشيخ هناك ما شاء الله من النوافل وقام وخرج من الجامع لضريح سيدي أبي مدين ووقف بالباب وصاح خديمك يا أبا مدين اليعقوبي يستأذنك في الدخول إن أذنت وإلا رجع ثم أنه دخل على سيدي أبي مدين وصارا يتكلمان وحاوره في عزل الترك فقال له ما

[1] الشريف المليني المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الطبعة الثانية، الجزائر، 1908، ص34.

[2] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص58.

كان شيء تبدلهم به إن أردت أن نجعلك في موضعهم فقال له لا فقال سيدي العباس لبعض أصحابنا فلما سمعت كلامهما من الطاق الفوقي عن يمين الداخل أردت الدخول عليهما فجذبني شيء من خلفي فالتفت فلم أر أحدا ثم إني أردت الدخول فمنعني ثانيا وثالثا وتحققت كلامهما رضي الله عنهما"[1]

3- كرامة بركة الماء

***سيدي أحمد بن الحسن الخماري:** من كراماته ما ذكره (ابن مريم) قال: أنه كان في سوق ندرومة يوم الخميس يملأ إبريقا له بالماء في زمان الحر ويدور على الناس في السوق يسقيهم الماء إلى أن يتفرقوا من غير أن يجد فيه ماء فرد الناس إليه بالهم فرأوا ذلك الإبريق ينبع من قعره ماء كالعين فذكروا ذلك للشيخ سيدي أحمد المستدراتي فجاء إلى السوق بنفسه وجلس بين الناس ودلى قلمونة برنسه على وجهه لئلا يعرف فلما اجتاز عليه الشيخ سيدي أحمد بن الحسن وهو يدور على الناس يسقيهم أخذ من يده الإبريق يريد أن يشرب ومقصوده اختبار ما ذكر له من الخوارق فرأى الإبريق على ما حكي له فعرف من حينئذ سيدي أحمد بن الحسن وأنه من أهل الكرامات"[2]

4- كرامة معرفة الجن من الإنس

***سيدي عبد القادر بن عبد الله المشرفي:** من كراماته ما ذكره أبو راس الجزائري في مؤلفه (فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته)، حيث قال: "بينما أنا أمشي عند الشيخ أحمد أمعاز، وإذا برجل لقيني: أحمد غليظ، حاف، كأنه من رجال «قلعية» فقلت له: من أنت، فقال: من الناس، قال: فقلت له: أنت من عفاريت الجن، أرسلك السيد العربي بن بركان المهاجي إلى الحاج محمد بن مشرف لتضره؟ فإذا به رجع ثورا عظيما، وعدا عدو

[1] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص134-135.

[2] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص32.

الفرس، وأنا أنظر إليه، وذنبه على رأسه، حتى توارى عني بشجرة الشيخ أعمر بن عطاء، كأنه قاصد «إيفكان»، لأن الشيخ العربي به وكان في منافسة مع الحاج محمد المذكور، لأن الحاج محمد يغزي عليه طلبة «الحشم».[1]

5- كرامة استجابة الدعاء:

***سيدي محمد بن عمر الهواري:** ومن كراماته ما ذكره "الأغا بن عودة المزاري" في مؤلفه (طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر) قال: "أن بعض طغاة الأعراب أخذ مال بعض أصحابه لما أراد الله به النكال فبعث إليه الشيخ رسوله ليرد ذلك المال، فأخذ الظالم الرسول وقيده ومقته، فبلغ الشيخ أمره فقام من مجلسه مغاضبا وقد إسود وجهه من شدة الغضب ودخل خلوته قال تلميذه التازي فسمعته جهارا، يقول مفرطح، مفرطح، يكرره مرارا، وفي الوقت قام الظالم يلعب في عرس والناس ينظرون إليه تفرسا فإذا برجل أبيض الثياب نزعه من فوق فرسه وضرب به الأرض فإذا هو مفرطح دخل رأسه في جوفه من شدة ضربه منكسا، فأطلقت أمه رسول الشيخ وخاطبت ولدها الميت خطاب اليوم: يا ولدي حذرتك دعوة الشيخ فأبيت فلا حيلة فيك اليوم".[2]

***سيدي عبد القادر بن عبد الله المشرفي:** ومنها "أن آغة الخليفة «هروال» أخذ قافلة شعير لبعض تلامذته فبعث لـ: «هروال»، فلم ينصح ثم بعث إلى آغة: أما أن ترد (ألفاظه) وإما أن يأخذك الله بينك وبين الصبح، «أليس الصبح بقريب»، فرد ذلك فقلت له: فلو لم يرد،

[1] محمد أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، حياة أبو راس الذاتية والعلمية- حققه، الجزائري محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1990، ص53،54.

[2] الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحيى بوغريز ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990، ط1، ص69.

أينفذ فيه القضاء كما قلت بلا شك؟ قال: نعم، ومثل هذا وقع له بمحلة بـ «تاسالة» لم يبيتوه ليلة مطر كثير، وهو يقول ضيف الله طائفا بالمحلة، فهلكهم الله"[1]

– ومنها، "أن قائد «أم عسكر» أتى بجماعة من المشارف محزومين من أوساطهم بحبل فذهب الشيخ للباي خليل، فلم يسرهم له، فبنفس ما خرج من عنده أصابه وجع، كاد يموت منه، فأمر برده، فرجع، وسرح المشارف، وتضرع له، فعافاه الله من فوره".[2]

ومنها: "ما أخبرني به ثقة: أنه قال له زرقة بريال فوجدت بذلك اليوم سبع ريالات".[3]

6- كرامة رد الغريب إلى أهله

***سيدي بن عمر الهواري:** قال: ومنها أن امرأة أسر ولدها فأتت إليه فقال لها إيتيني بقصعة من ثريد ولحم فأتته بها فدفعها لسلوقية كانت عنده ترضع أولادها فلما فرغت قال لها اذهبي لوضع كذا من عدوة النصارى وإيتيني بابن هذه المرأة فذهبت وجازت البحر فوجدته اشترى دوارة للنصرانية التي ملكته فخطفتها من يده وصار يتبعها خوفا من النصرانية إلى أن عرضت له ساقية فقطعها وهي البحر ثم تبعها إلى أن دخلت به على أمه في وهران"[4]

7- كرامة العلاج:

***الشيخ الحسن أبركان:** ومن كراماته ما ذكره ابن مريم التلمساني في مؤلفه (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان) حيث قال: "ومن بركاته وكرامته رضي الله عنه ما حكاه لنا شيخنا العلامة المشارك المجتهد في إفادة العلوم للصغير والكبير ليلا ونهارا سيدي عبد

[1] محمد أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص54.

[2] نفسه ص54.

[3] نفسه ص54.

[4] الآغة بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص69-70.

الرحمان بن تومرت رحمه الله تعالى ورضي عنه قال: خرجت لي أكلة في الخد وطال أمرها وصارت تتزايد وأيست من البرء فلقيت الشيخ سيدي الحسن يوم الجمعة وهو راكب على حمار طالعا إلى بيته من صلاة الجمعة بأجادير فتعرضت له وسلمت عليه ثم شكوت له ذلك الأمر الذي خرج في خدي فنظر فيه الشيخ فرأى أمرا عظيما مهلكا فقال لي أبسط كفك فبسطته فبصق فيه ثم قال لي ضع ذلك على تلك الأكلة ثم ذهب سائرا ولم يزد على ذلك ولا رأيت منه قراءة قبل البصاق ولا تحريك الشفتين فوضعت ذلك البصاق عليها فدخلها البرء على الفور فلم تأت علي أيام قليلة إلا ولم يبق لها أثر.[1]

8- كرامة تفسير المنام:

***الشيخ سيد أحمد بن يوسف المليانى:** ومن كراماته ما ذكره "الأغا بن عودة المزاري" في مؤلفه (طلوع سعد السعود) حيث قال: "أن خديمه علي بن أحمد الكثيري كان أبوه خديم الشيخ عبد الرحمان الغلامي وتفاخرا فأرى الأب لإبنه الكعبة تلعب بأستارها فذهب الولد للشيخ وأخبره فقال له اذهب قد أعطاه الله الدنيا والآخرة. فكثر ماله"[2]

ومنها "أن بعض أصحابه قال عن الشيخ الثعالبي أنه قال: "من رأى (كذا) من رآني لا تأكله النار إلى ثلاثة فقال الشيخ وأنا إلى عشرة".[3]

9- كرامة إغاثة المحتاج

***سيدي الجودي بن الحاج الزواوي:** ومن كراماته ما ذكره الإمام الحفناوي في مؤلفه (تعريف الخلف برجال السلف)، حيث قال "سرقت لبعض أحبابه سرقة ولم يعلم بها إلا الله

[1] الشريف المليني المديوني التلمساني،البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص80.

[2] الآغة بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص75.

[3] نفسه، ص75.

تعالى فوقعت الشكوى من أربابها له فبعث لكل من أتهم بها وكنت في جملتهم (سعيد بن تقرين) ولما وصلنا إليه أمرنا بردها ووعدنا بالخير العظيم والفضل الجسيم على ذلك فأبى الكل وكنت السارق فلما انفصل الجميع عنه مسكني وقال أنت الذي سرقت ردها بما تريده فأنا متكفل به فقلت له نعم أنا على ما تريده فرددتها ثم قال لي كلما وقعت بدشرة فاستغث بي فأنا أغيثك أينما كنت وبعد ذلك ذهبت إلى الجزائر أريد المعيشة وتحصيل أسبابها فركبت سفينة حرب فأسر جميعنا ووقعت عند من لا حلم له ولا شفقة أصلا وصار يعذبني تعذيبا شديدا، فلما كان ذات ليلة خرجت هاربا إلى شاطئ البحر مختفيا في الشجر فلما علموا بأمري صار الصياح والنداء من ورائي إلى أن وصل الجميع إلى محلي غير أني حجبني الله عنهم بعد أن وصل كلبهم إلي يبصبص بي ثم يرجع إليهم وأنا معتمد على الشيخ ومستغيث به فرجعوا خائبين وبقيت أنا ثم ملتجئا إلى الله ثم إلى الشيخ فمرت علي سنة (بكسر السين) وإذا بالشيخ يقول مد يدك إلي فمددت إليه فمسكها ورفعني فاستيقظت فوجدت نفسي في الجزائر"[1]

10- كرامة رد الروح للحيوان:

***سيدي يحيى العيدلي:** ومن كراماته ما ذكره الإمام الحفناوي في مؤلفه (تعريف الخلف برجال السلف)، حيث قال: "إنه لما رجع من سياحته وقد مكث فيها مختفيا عن الناس نحوا من عشر سنين وأمه في حال حياتها وجد أهل قريته أخذوا ثورا لحما فقسموه ولم يجعلوا نصيبا لأمه من غير اكتراث بها فلما علم بذلك تغير من أمرهم حيث لم يسهموا لها شيئا والحالة أن اللحم لم يبق منه شيء بل جعلوه في القدور ولم يجد شيئا باقيا إلا الجلد والرأس فعند ذلك ورد حال عظيم بأن أمسك الجلد من الذيل وقال له قم بإذن الله فقام الثور يمشي

[1] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص106.

كما كان أول مرة فلما شاهدوا منه ذلك خضعوا له وتواضعوا وذلوا واستكانوا وظهر أمر الشيخ ظهورا بينا بحيث أن من تعدى عليه هلك بغتة"[1]

ومنها: "قد كان له زرع في إهمال وبات فيه جماعة من الناس بخيلهم من غير علم أن الزرع للشيخ فلما أصبح الله بخير الصباح مات جميع خيلهم وحملوا سروجهم على أعناقهم"[2]

11- كرامة طي الأرض والطيران

***سيدي أحمد بن حسن الغماري:** ومن كراماته ما ذكره ابن مريم في مؤلفه (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان) أن الشيخ الصالح سيدي بوبدير بن السنوسي أصابه جوع "فمكث بجامع زاوية سيدي الحلوي أياما وليالي لا يأكل فيها لا ليلا ولا نهارا ولا يسأل فيها أحد حتى ضعف في الليلة الآخرة عن القيام للصلاة الفريضة وغيرها وشاهد الهلاك وهو مع ذلك متوكل على الله مفوض أمره إلى الله لا يسأل أحدا من خلق الله فبعد أن خرج الناس من صلاة العشاء وخلا المسجد قال لي بقيت في زاوية من المسجد مطروحا فإذا برجلين وقفا علي وقالا لي ما هذا يا بوبدير أصابك الجوع مدة قليلة ضعفت هذا الضعف ومزحا معي فأخرج لي أحدهما تميرات فبنفس ما أكلت طار عني الجوع ورجعت لي قوتي على أبلغ ما يكون ولم أحتج إلى طعام من حينئذ واصطحبت مع ذينك الرجلين وعرفت أنهما من أولياء الله تعالى واسم أحدهما محمد واسم الآخر أحمد قال وسيدي محمد هو الرئيس المتبوع ويليه سيدي أحمد وأنا تابع لهما فكان يرى الشيخ سيدي عبد الرحمان السنوسي أن هذا الولي الذي اسمه أحمد هو أحمد بن الحسن قال لأنه كان في ذلك الزمان يأوي إلى جامع زاوية بسيدي الحلوي قال سيدي بوبدير وكنا نأوي بالليل إلى ذلك المسجد وقدمت قرب يوم التروية فقال سيدي محمد وسيدي أحمد اذهب معنا على بركة الله لنحج قال فذهبت معهما فصرنا نطير

[1] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص586-587.

[2] نفسه، ص587.

ساعة وتطوى لنا الأرض ساعة وإذا جئنا إلى بحر يلتقي طرفاه فنجتازه بقدم واحدة وقد جزنا على مصر بالليل ونحن في الهواء وهي تحتنا مملوءة بالمصابيح فقضينا الحج ورجعنا إلى موضعنا في تلمسان"[1]

***سيدي أحمد بن محمد زكري:** ومن كراماته ما ذكره ابن مريم أيضا حين قال: "نزلت ثلجة عظيمة وتعطلت منها الأسواق وإنهدمت منها ديار ثم أن الشيخ كان إماما بالجامع الكبير ودخل في يوم الثلج للجامع المذكور لصلاة الصبح فلم يجد فيه أحدا فوحد الله سبحانه وسمع المؤذن وهو في الصومعة فنزل فلم يجد له أثرا وإنما وجد له قدما في الباب وقدما في المحراب الأخضر ووجد الشيخ سيدي أحمد ركع الفجر والأبواب كلها مغلقة وهذا دليل على طي الأرض"[2]

12- كرامة معرفة المخبوء

***سيدي إبراهيم بن محمد المصمودي التلمساني:** ومن كراماته ما ذكره ابن مريم التلمساني: "حدثني كبير أصحابه الشيخ الصالح أبو عبد الله بن جميل أنه عرض له شيء منعه من إتباع المشهور في مسألة واضطر إلى فعله فبحث حتى وجد جوازه منسوبا إلى ابن حبيب وأصبغ فقلدهما قال ثم مضيت لزيارة أمي فسقط علي حجر آلمني ألما شديدا واعتقدت أن ذلك عقوبة لي لمخالفتي المشهور وتقليدي غيره وما اطلع أحد علي في قضيتي ثم زرت الشيخ في حال تألمي فقال لي مالك يا فلان قلت له ذنوبي فقال لي فورا أما من قلد أصبغ وابن حبيب فلا ذنوب عليه وهذا من أكبر الكرامات"[3]

[1] الشريف المليني المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص35.

[2] الشريف المليني المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص40-41.

[3] نفسه، ص65.

ومنها أيضا "حدثني بعض صالحي أصحابه قال كنت جالسا معه في بيته ليس معنا أحد وهو يقرأ القرآن ويشير بقضيب في يده إلى محل الوقف ضاربا على عادة أشياخ التجويد فقلت في نفسي لم يفعل هذا أتراه يقرأ عليه أحد من الجن فما تم الخاطر حتى قال لي يا محمد كان بعض الشيوخ يجود عليه الجن القرآن وذكر لي غير واحد ممن يهدى له طعاما من لبن وغيره وربما رده عليهم فيفتقدون أنفسهم فيجدون موجب الرد أما من شبهة وأما من ضجر أهل البيت أو غيره"[1]

13-كرامة السيطرة على الحيوانات

***سيدي الحسن بن مخلوف بن سعود بن سعد المزيلي الراشدي أبو علي الشهير بأبركان:**

ومن كراماته ما ذكره ابن مريم في مؤلفه (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان): "كان يتوضأ في صحراء يوما فإذا بأسد عظيم قد أقبل فبرئ على سباطه فلما فرغ من وضوئه التفت إلى الأسد فقال له تبارك الله أحسن الخالقين ثلاثا فأطرق الأسد برأسه إلى الأرض كالمستحي ثم قام ومضى"[2]

ومنها أيضا ما ذكره الشيخ السنوسي أيضا قال: "لما قدم من المشرق وجد قرية الجمعة قد خربت وكانت سكن أسلافه فنزل تلمسان ثم تردد خاطره في الرجوع لقرية الجمعة لتجديد ما دثر منها قال فخرجت إليها وجلست معتبرا في آثارها كيف أخذها الخراب واستولى على أهلها الجلاء وإذا بكلب أقبل وجلس بالقرب مني وحاله في انكسار الخاطر وتغير الظاهر كحالي فقلت في نفسي هل تعود هذه القرية عامرة أم لا فرفع الكلب رأسه وقال بلسان فصيح إلى يوم يبعثون أي لا تعود عامرة أبدا فلما سمعت نطقه إلي بذلك رجعت لتلمسان"[3]

---

[1] نفسه، ص65.

[2] الشريف المليني المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص74.

[3] نفسه، ص75.

14- كرامة إلغاء المسافات وتقريبها

***سيدي حدوش بن تيرت العبد الوادي:** من كراماته ما ذكره ابن مريم: "حكى لي بعض من أثق به وهو سيدي محمد المقري شقيق سيدي سعيد المقري قال لي كنت في السماط مع سيدي حدوش ابن تيرت فقبلت يده ووقفت معه ودعا لي بخير وبيده قفة وطبيقتان من دوم يبيعها فإذا برجلين (أو ثلاثة) من الحجاج يقول أحدهما للآخر هو ويقول الآخر ليس هو ثم اتفقوا على أنه هو فلما سمعهم هرب منهم وجعل يقول ليس هو وطلع في مدارج باب القسارية وترك القفة والطبيقتين بيد رجل يساومها ثم قلت للحجاج أين تعرفانه قالا لي نعرفه بمكة يصلي معنا كل يوم بمكة"[1]

15- كرامة كشف الغش:

***سيدي خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المعروف بالجندي ضياء الدين أبو المودة:**

من كراماته ما ذكره ابن مريم: "أنه مر بطباخ دلس على الناس يبيع لحم الميتة فكاشفه فأقر وتاب على يده"[2]

16- كرامة تسليط الغضب:

***الشيخ غانم بن يوسف الملقب بالتركي الغمري:** من كراماته ما ذكره الآغا بن عودة المزاري في مؤلفه (طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر) قال: "سمع به الأحلاف فرقة منهم بأنه عنده شاة من الضنان مسمنة منذ ثلاث سنين، فقدموا إليه لطغيانهم وأمروه بذبحها لهم فسألهم غيرها فأبوا لما أراد الله بهم الانتقام المكين، فذبحها لهم واحتسب وبش في وجوههم وإنطرب، ولما فرغوا من الأكل وأرادوا

[1] الشريف المليني المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص93.

[2] نفسه، ص98.

الانصراف، أنشأ يقول: حاف حاف طاح الكاف على الأحلاف فلا ينجى منهم إلا الأعمى والزحاف، فذهبوا نحو كاف الوادي وناموا في ظله، من شدة الحر فسقط عليهم ذلك الكاف وماتوا ولم ينج منهم إلا من كان أعمى أو زحافا كما قال"[1]

17- كرامة التنبؤ بالمستقبل

***أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الزهار**: ومنها ما ذكره صادق محمد الحاج في مؤلفه (مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف)، كان يدخل مسجد القلعة حافيا ويقول: "أدنسه قبل أن يدعسه الكفار (على وجه الإنذار باستيلاء الإسبان على القلعة)، وقال: إن النصارى سيأخذون تلمسان فقيل له مع وجود أبي مدين بها؟ قال: نعم وطئون بطنه"[2]

وحدث ما أخبر به، حسب صادق محمد الحاج، قال: "كان ذلك عام (1543/950م) وأخبر أيضا باستيلاء النصارى على بجاية بأن التواتي ما يواتي فكان في عام (1510/916) على يد (بدرونافرو) ولم يخرجوا منها إلا في سنة (1555/962م)"[3].

***الشيخ إبراهيم التازي**: من كراماته ما ذكره "محمد بن صعد الأنصاري"، قال: "ومنها ما حدثني به والدي قال: أتيت سيدي إبراهيم في بعض قدماتي على وهران برسم وداعه وطلب الدعاء منه، فلما أردت الانصراف أمر أن أخرج شيئا من الدلاع وقال لي: يا أحمد ارفع هذا الدلاع للشيخ والدك، قال: فتعجبت من ذلك وقلت في نفسي وأي حاجة لوالدي بالدلاع، ثم رفعناه على بهيمة وأتينا تلمسان، فلما دخلت الدار وسلمت على والدي وجلست بين يديه وإذا بفتى من فتيان الخليفة المعتصم مولاي أحمد رحمه الله قد دخل علينا وقال له: يقول لك

[1] الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص85.

[2] صادق محمد الحاج، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف -دراسة خاصة بمدينة متوسطة في الجزائر-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، د.ت، ص89.

[3] نفسه، ص89.

السلطان ابحث لنا عن شيء من الدلاع المريض عندنا وقد طال بحثنا عنه فما وجدناه، فقال له والدي وأين أجده وليس هذا وقته قال: فقلت لوالدي الحاجة هنا وقد بعث بها إليك سيدي إبراهيم نفعنا الله به، وقمت أحملها وأخرجت الدلاع ودفعناه للفتى".[1]

18- كرامة الدفاع عن الأرض:

***الشيخ محمد التواتي:** من كرامات ما ذكره الدكتور "أبو القاسم سعد الله" في كتابه (تاريخ الجزائر الثقافي)، قال: "وجاءت في رحلة بيري رايس العثمانيين أن الشيخ محمد التواتي كان يحمي مدينة بجاية من الإسبان، وأن زاويته كانت ملجأ للمجاهدين وغزاة البحر، وأنه حين توفي الشيخ سقطت المدينة في أيدي العدو وفر منها الأمير الحفصي"[2].

19- كرامة رفع الغبن عن الضعفاء:

***الشيخ أحمد بن ملوكة التلمساني:** من كراماته ما ذكره الدكتور أبو القاسم سعد الله، قال: "قيل أنه اطلع على ارتكب عروج عند احتلال تلمسان من فضائع، وبعد خروج عروج إلى جبال بني سناس خاف أهل تلمسان من عودته والانتقام منهم من جديد، فالتجئوا إلى الشيخ أحمد بن ملوكة واشتكوا له ما وقع بهم وما يخشون وقوعه فالنقبض الشيخ واشتد غضبه حتى ضرب الأرض بيده وهو يدعو: اللهم لا تعده إلى تلمسان إن اتكالنا عليك، واستجاب الله سبحانه وتعالى إلى الدعاء لأن عروج قد مات مقتولا"[3].

[1] ابن صعد الأنصاري التلمساني الشيخ محمد، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تحقيق يحيى بوعزيز، الجزائر، الأبيار، ط1، 2002، ص167.

[2] أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م)، ج1، د.ط، ص466.

[3] نفسه، ص472-473.

20- كرامة تحمل الصعاب:

***سيدي إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي المطماطي:** ومن كراماته ما ذكره ابن مريم في مؤلفه (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان) قال: "مضينا معه في قرى فأصابنا عطش شديد فأدركنا بعض تلامذته بلبن مشوب بسكر، فامتنع أن يشرب منه فقلت له، يا سيدي كيف تترك وأنت في غاية الحاجة إليه، فقال: خفت أن يكون فعله جزاء لقراءته علي فتركته لذلك خوفا أن ينقص ذلك من أجري ورد له الإناء"[1].

21- كرامة زيادة الأكل ونمائه:

***سيدي أحمد بن يوسف الملياني:** من كراماته ما ذكره صادق محمد الحاج في مؤلفه (ملیانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف)، قال: "كان ذات يوم مع اثنين أو ثلاثة من أصحابه فأخبر تلميذه الصباغ بزيارتهم له في منزله، فرأى الصباغ من واجبه تحضير وجبة لعددهم لكن لما كانوا في الطريق التحق بهم موكبا عظيما للمشاركة في (الزيارة)، فلما رأى الصباغ ذلك اعتراه اضطراب شديد، فقال له الشيخ، قدم لنا ما حضرت لا غير واقتصر هو على أن يذوق من كل لون قبل أن يفوته لأصحابه مع شيء من الدعاء فشبعوا كلهم وحلفوا الفضل، وقد جارت مثل هذه في عدة مناسبات من بينها واحدة مع تلميذه محمد العنتري الواضحي".[2]

22- كرامة منح القدرة على الكلام الفصيح:

***محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق الخطيب:** ومن كراماته ما ذكره ابن مريم في مؤلفه (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان) قال: "وقد قال أعني صاحب الترجمة في بعض تعاليقه ومن أشياخ والدي سيدي المرشدي لقيه في ارتحالنا إلى المشرف وحين حملني إليه وأنا ابن تسع عشرة سنة فنزلنا عنده فوافقنا صلاة الجمعة عنده

[1] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص67.

[2] صادق محمد الحاج، ملیانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف -دراسة خاصة بمدينة متوسطة في الجزائر-، ص94.

ومن عادته ألا يتخذ للمسجد إماما وحضر يومئذ من أعلام الفقهاء من لا يمكن اجتماع مثلهم في غير ذلك المشهد قال فلما قرب وقت الصلاة تشوق من حضر من الخطباء والفقهاء إلى التقديم فإذا الشيخ قد خرج فنظر يمينا وشمالا وأنا خلف والدي فوقع بصره علي فقال يا محمد تعال فقمت معه حتى دخلت في موضع خلوة فباحثني في الفروض والشروط والسنن قال فتوضأت وأخلصت النية فأعجبه وضوئي ودخل معي المسجد وقادني إلى المنبر وقال يا محمد أرق المنبر فقلت له يا سيدي والله ما أدري ما أقول فقال لي إرقه وناولني السيف الذي يتوكأ عليه الخطيب عندهم وأنا جالس أفكر فيما أقول إذا أفرغ المؤذنون فلما فرغوا ناداني بصوت قوي وقال لي يا محمد قم وقل بسم الله قال فقمت وانطلق لساني بما لا أدري ما هو إلا أني أنظر إلى الناس والناس ينظرون إلي ويخشعون من وعظي فأكملت الخطبة"[1]

[1] الشريف المليني المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص188.

الفصل الرابع:الخصائص الفنية للكرامات

أولا: بنية الكرامة

ثانيا: الخصائص الأسلوبية لقصص الكرامات

تمهيد:

يتناول بحثنا هذا نوعين من فنون النثر القديمة وبالضبط في الفترة العثمانية بالجزائر أولى هذه الفنون هي الرسالة والتي تصنف كفن نثري غير قصصي (غير سردي) والتي تطرقنا إليها من حيث الموضوعات وكذا الخصائص الفنية التي ميزتها.

أما ثاني هذه الفنون فقد اخترنا قصص الكرامات وعلى خلاف الأولى فهي فن نثري قصصي (سردي) قصد إثراء بحثنا بفنين مختلفين وحاولنا أن نتطرق أيضا إلى موضوعاته، وفيما يلي سنحاول أن نعرج على الخصائص الفنية لقصص الكرامات والتي –حسب رأينا طبعا– لم تأخذ حقها من الدراسة والتحليل في وقت مالت فيه معظم الدراسات والأبحاث إلى الفنون الثرية الحديثة.

ولكن قبل أن نخوض في هذا العنصر الهام ألا وهو خصائص الكرامات الفنية يجب أن نشير أولا ولو باختصار إلى السرد العربي القديم بحكم أن هذا الفن يعتبر سرديا ونحيطه بشيء من الكتابة حول نشأته ومدى تأثيره في الأدب العربي القديم خاصة مع وجود الشعر الذي يعد ديوان العرب قديما.

والملاحظ أن السرد العربي القديم "لم يحظ بالعناية الكافية من الباحثين العرب المعاصرين رغم الاتفاق على وجوده وتوفر نصوصه المندرجة ضمن أنواع وأجناس سردية مختلفة كالأخبار والنوادر والحكايات والأمثال والمسامرات والكرامات وسواها، وقد يرجع ذلك في بعض أسبابه إلى استمرار النظر إلى الموروث الأدبي العربي على أنه متمركز في الشعر فقط، أو إن الهوية الثقافية للتراث تتجلى في "أو من خلال" الشعر في المقام الأول لما تميزت به الشعرية العربية من قوة ونفوذ"[1]

[1] ينظر: محمد عبد البشير مسالتي، السرد العربي القديم وآفات التأويل، مجلة الآداب والعلوم الإجتماعية جامعة البلقان قابور، قسم اللغة والأدب العربي، لكلية الآداب واللغات، جامعة سطيف2، الجزائر، 2013، ص95.

غير أن هذا ليس السبب الوحيد لأن هناك "سببا آخر لتراجع الاهتمام بالتراث السردي قد يشترك فيه هذا التراث مع الموروث النثري العربي كله وهو هيمنة الشعر أصلا في التراث بسبب الشفاهية التي رافقت أوليات الأدب العربي وتحكمت في إنتاج الثقافة العربية فالنثر لم يتيسر له الانتشار والنفوذ لما يتطلبه من هيئة كتابية ليس فقط في تدوينه ولكن أيضا في تأليفه لأن الشفاهية كانت حاجزا يحول دون التفكير في المكتوب فتفرض أعرافها وإجراءاتها في عقل الكاتب قبل الاصطدام بالصعوبات الموضوعية كندرة الكتاب وغياب التعلم والتدوين"[1].

ورغم وجود هذان السببان "إلا أنه ظهرت في العصر الحديث دراسات أولت عنايتها بدراسة أنواع أخرى وهي ما تعرف بالأنواع السردية، حيث تأكد هؤلاء أن الموروث الحكائي العربي غني ومهم ويستدعي المزيد من البحث والدرس ومع أنه أثار الانتباه منذ عصر النهضة إلا أن الدراسات التي تناولته ظلت قليلة ومحدودة إلى عهد قريب إلى أن نهض في الفترة القريبة الماضية باحثون أكفاء تخصصوا به، فأصدروا حوله دراسات كثيرة قد لا تكون في واقع أمرها سوى مدخل إلى عالم هذا السرد الذي لا تقل أهمية عن عالم الشعر العربي"[2].

ولأن السرد في الأساس "يعد أداة للتعبير الإنساني، ويقوم الكاتب بترجمة الأفعال والسلوكات الإنسانية والأماكن إلى بنى من المعاني بأسلوب السرد، وبذلك يكون الكاتب قد قام بتحويل المعلومة إلى كلام مع ترتيب الأحداث وهو الأمر الذي نجده ضمن أنواع وأجناس سردية مختلفة كالأخبار والنوادر والحكايات والأمثال والمسامرات وأنواع القصص

[1] محمد عبد البشير مسالتي، السرد العربي القديم وآفات التأويل، مجلة الآداب والعلوم الإجتماعية جامعة البلقان قابور، قسم اللغة والأدب العربي، لكلية الآداب واللغات، جامعة سطيف2، الجزائر، 2013، ص95.

[2] عامر علي، الموروث السردي العربي القديم الماهية والخصائص، المقامة أنموذجا، قسم اللغة والأدب العربي جامعة برج بوعريريج، اليوم الدراسي الوطني الثاني حول السرد العربي القديم: النص والثقافة، 2016/02/26، ص1.

المتقدمة كالمقامات وقصص الحيوان والقصص الخيالية والشعبية والمنامات والرحلات والسير وسواها"[1].

ولأن قصص الكرامات فن نثري سردي أردنا أن نوطئ لهذا الفن قبل التطرق إلى خصائصه الفنية ولو تعريف بسيط موجز إذ "يعتبر السرد أو القصص فعل يقوم به الراوي أو السارد الذي ينتج القصة، وهو فعل حقيقي أو خيالي ثمرته الخطاب، ويشمل السرد على سبل التوسع، مجمل الظروف المكانية والزمانية، والواقعية والخيالية، التي تحيط به، فالسرد عملية إنتاج يمثل فيها الراوي دور المنتج، والمروي له دور المستهلك والخطاب دور السلعة المنتجة.."[2].

وقصص الكرامات كغيرها من أنواع القص السردي تقوم على دعامتين أساسيتين:

أولا: تحتوي على قصة ما تضم أحداثا معينة.

ثانيا: لها طريقة معينة تحكى بها هذه القصة وتسمى سردا.

ويمكن أن نجسد القناة التي تمر بها قصص الكرامات في المخطط الآتي:

الراوي / السارد ← القصة ← المروي له / المسرود له.

إذن فالسرد هو الطريقة والكيفية التي تروى بها تلك القصة عن طريق هذه القناة والملاحظ أن ما يميز قصص الكرامات كفن نثري سردي عن باقي الفنون الأخرى هو أن الراوي ليس شخصا عاديا كباقي الرواة وهذا بالحديث عن الكرامات التي تناولناها في العهد

[1] عامر علي، الموروث السردي العربي القديم الماهية والخصائص، المقامة أنموذجا، قسم اللغة والأدب العربي جامعة برج بوعريريج، اليوم الدراسي الوطني الثاني حول السرد العربي القديم: النص والثقافة، 2016/02/26، ص1.

[2] ينظر: لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية (عربي، إنجليزي، فرنسي)، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار، للنشر، بيروت، ط1، 2002، ص105.

العثماني وإنما قد يكون أحد الأولياء الصالحين أنفسهم الذين تحدث على أيديهم الكرامات أو أحد ممن عايش تلك الكرامة ونقلها مشافهة إلى غيره إلى أن دونت عبر بعض المؤلفات المختصة في هذا المجال، ضف إلى ذلك أن القصة تختلف عن باقي القصص المعروفة لأنها تحتوي على أمور خارقة للعادة ونادرة الحدوث إلا على أيدي هؤلاء، أما عن المروي له فهو في غالب الأحيان القارئ الذي يتمتع كثيرا بقراءته لتلك القصص الشيقة.

ولعل هذا ما دفعنا إلى اختيار قصص الكرامات كأنموذج لبحثنا هذا محاولين دراستها من خلال التعرف على أهم خصائصها الفنية بدءا ببنيتها ومرورا باللغة المستخدمة فيها وصولا إلى صورتها الفنية.

أولا: بنية الكرامة

ذكرنا فيما سبق أن الكرامة تدل على حدث أو فعل خارق يحصل على يد شخصية غير عادية وهي المعروفة بالولي الصالح، ولأنها تصنف ضمن الأعمال السردية القصصية فهي أكيد تتميز ببنية كغيرها من القصص الأخرى، وسنحاول من خلال المجموعة التي بين أيدينا من قصص الكرامات أن نبين هيكلة هذا الفن.

وتجدر الإشارة فقط إلى أن ما يميز بعض الكرامات أحادية الحدث "الذي يشكل عبر مجموعة من الحوافز تهيء لظهور الحدث الرئيس، إذ يعمد الراوي في جمل استهلالية إلى إعطاء لمحة مستعجلة عن المرحلة البدئية وعن شخوص الكرامة، فالتركيز على زمان أو منظر ما يمهد للحدث الخارق الذي سيأتي بعد ذلك فذكر فضاءات معينة مثلا، يهيء لما سيأتي بعده من أحداث، كالصحراء التي تصور فضاء قاحلا يمهد لوقوع جذب أو خطر يستدعي الحدث الرئيسي أو ما يسمى في الإصلاح الصوفي بـ "المدد""[1].

[1] عفاف نورة، بنية النص في جامع كرامات الأولياء، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة تيزي وزو، مخطوط رسالة ماجستير، 2001/06/05، ص109.

وعليه فإن قصص الكرامات تشكل من الآتي:

1- **الاستهلال:** ويقصد به الحالة الأولية التي يبدأ بها السرد، ويؤدي هذا الدور الراوي (السارد)، الذي يقوم بإعطاء معلومات وتفاصيل حول الشخصيات التي تدور أحداث القصة حولها وهو بهذا يمهد لوقوع الحدث الخارق، فالاستهلال في الكرامة يختلف عن غيره من الأعمال السردية الأخرى لما له من خصوصيات "إذ يخبر عن حدث خارق عجيب ينسب إلى شخصيات حقيقية لها وجودها المرجعي والتاريخي، وهذا ما جعل الراوي يهتم بكل ما يعمل على إرساء جذور الكرامة في الواقع، وإقناع المتلقي أو المروي لهم بصحة الحدث، وبالتالي صدق المذهب، وهذا ما ولد الاعتناء بتوثيق الكرامات الصوفية بسلسلة من الرواة، وصياغة عالمها بركائز خارج نصية"[1].

أي أن افتتاح هذه الكرامات يكون دائما عن طريق الراوي وهذا ما نجده في هذه الكرامة التي تروى عن سيدي أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي: قال: حدثنا الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهان الأوسي المعروف بابن المرأة قال: أتيت من مدينة مرسية زائرا عمة لي بتلمسان فما سرني شيء كوجودها حية وتطوفت يوما بتلمسان فرأيت هذا الشيخ بالسوق..."[2].

فنلاحظ أن في هذه الكرامة ذكر للراوي أو المحدث وهو الإمام أبو إسحاق إبراهيم وإذا ما كانت الكرامة التي تأتي بعدها من المصدر نفسه والراوي نفسه نجد عبارة ومن كراماته أيضا "أو" ومما حدثنا به أيضا" أي بمعنى يتجنب ذكر اسم الراوي في هذه الحالة.

هذا عن الراوي أما عن الكلمات والجمل التي تستهل بها هذه الكرامات فهي تختلف من كرامة إلى أخرى إذ تلعب هذه الجمل دورا كبيرا من حيث وضع الكرامة في سياقها فاسم

[1] أنظر: ناهضة ستار، بنية السرد في القصص الصوفي، ص159-160.

[2] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص68.

الراوي مثلا يؤيد صحة الرواية، أما كلمة "الشيخ" فهي تدل على منزلة ومكانة المروي عنه الذي لا تظهر حقيقته كونه وليا صالحا إلا بعد سرد كل أحداث الكرامة.

فلكل كرامة كلمات تستهل بها وجمل معينة غير أن الملاحظ أن أغلب الكرامات تشترك في لفظة تتكرر تقريبا في كل مناسبة وهي قول الراوي "أن الشيخ" وهي تتكون من حرف توكيد "أن" ولفظة "الشيخ"، ونجدها مثلا في مؤلف الحفناوي عند حديثه عن كرامات سيدي يحيى العيدلي حين قال: ومنها أن الشيخ سيدي التواتي بعث بعض طلبته لسيدي يحيى..."[1].

كما نجدها أيضا في مؤلف الآغا بن عودة المزاري حين قال عن الشيخ سيد أحمد بن يوسف الملياني: "ومنها أن الشيخ علي الندرومي...".[2]

وهذا للدلالة على المكانة التي يحضى بها الشيخ وهو الولي الصالح نفسه عند الراوي كما أنه يعتبر الشخصية الرئيسية التي تبنى عليها قصص الكرامات.

ونجد أن بعض الكرامات تفتتح بجملة استهلال طويلة كما ورد في مؤلف البستان لابن مريم حين قال: "ومن بركاته وكراماته رضي الله عنه ما حكاه لنا شيخنا العلامة المشارك المجتهد في إفادة العلوم للصغير والكبير ليلا ونهارا سيدي عبد الرحمان بن تومرت رحمه الله تعالى ورضي عنه قال:"[3]

وبعد هذا الاستهلال يبدأ المتن الحكائي ونلحظ من خلاله تنظيما لعملية الرواية والتلقي في الوقت نفسه فنستنتج الآتي:

---

[1] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص 586.

[2] الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص75.

[3] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص80.

– يبدأ السند من طرف المؤلف الحقيقي.

– يحتوي على قاص واحد.

– السند ينسب إلى راوي معلوم الهوية وهو سيدي عبد الرحمان بن تومرت.

– الراوي في هذه الكرامة حلقة وصل بين المؤلف الحقيقي "ابن مريم" والشيخ "الحسن أبركان" الشخصية البطلة في هذه الكرامة.

– وقد يحدث أن يكون الراوي شاهدا على الأحداث المروية.

– والملاحظ أن الزمن يتعلق هنا أساسا بالراوي ونجد ذلك من خلال توظيف الفعل الماضي "حكاه" وقد قام هذا المؤلف الحقيقي بإعادة رواية هذه الكرامة.

– وبعد هذه الخطوة نلاحظ استهلال سرد الوقائع بتوظيف الفعل "قال" إذن "هو فعل يميل إلى عبور وانتقال من صوت المؤلف إلى صوت الراوي، ويضعنا أمام عملية الشكل المنطقي للمعنى، والنمو النسبي للأحداث، وفق منظور السارد وذاكرته هو من دون أن نعتقد بالبراءة التامة والغياب الكامل لصوت المؤلف، لأنه سيكون حتما حاضرا ولو ضمنيا –حضور مقنع– في جميع جزيئات سرده"[1].

وعليه فالراوي قد يكون أحد الشهود على الأحداث التي وقعت أو حتى أحد المشاركين فيها إضافة إلى أنه قد يقع بعد مجموعة من الرواة (عن، عن...) أو غيرها من أساليب الرواية الخاصة بالكرامة.

كما "أن الجملة الاستهلالية التي تبين المرحلة البدئية للحكاية، تشد الانتباه إلى العنصر الذي يرتكز عليه الحكي، فترتبط بعض الأمكنة بأحداث معينة، كالصحراء التي

[1] فائزة زيتوني، نصوص الكرامات في كتاب "البستان" لإبن مريم الشريف مقاربة سيميائية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة ورقلة، مخطوط رسالة ماجستير، 2008/04/13، ص223.

تنبئ بالضياع أو فقدان الماء فيها، والأضرحة التي تنبئ بالبركة أو إجابة الدعاء عندهما وغيرها من العلامات المتكررة، مما يسمح بالقول إن وظيفة الراوي ثابتة لا يمكن الاستغناء عنها في الكرامة، على الرغم من قصر الاستهلالات والعجلة في ذكر هذه المؤطرات"[1]

نخلص إلى أن الجملة الاستهلالية مكون هام جدا في افتتاح بنية الكرامة السردية، فلا وجود للكرامة دون سند مرتبط بمتنهما فاتح لها مسهم في سردها.

2-المتن (العرض):

المتن الحكائي هو "مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها والتي تكون مادة أولية للحكاية، فالمتن الحكائي هو المتعلق بالقصة كما يفترض أنها جرت في الواقع"[2].

وهو ما يعرف أيضا بالحبكة أي ذلك النسيج المترابط بين أحداث القصة، والمتن الحكائي في قصص الكرامات خاصة خلال الفترة العثمانية يختلف من كرامة إلى أخرى ومن ولي إلى ولي آخر حسب موضوع الكرامة.

وما يميز متون الكرامات عنصر المفاجأة الكامن في الفعل الخارق غير المألوف الذي يصدر عن الشخصية البطلة وهذه المفاجأة هي التي تضمن صيرورة المسار السردي للكرامة وتجعل منها مختلفة عن باقي القصص ويمكن إيجازها فيما يلي:

أ-الحاجة الإنسانية: وتكون ذات مصدر خارجي، وهي التي تصدر عن الشخصيات الأخرى -غير شخصية الولي- مثلا: كالجوع والعطش، والمرض، والألم، والتعرض للظلم ونقسمها إلى:

[1] عفاف نورة، بنية النص في جامع كرامات الأولياء، ص112.

[2] حميد الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2000، ص21.

*رغبة عقلية: وتتمثل في رغبة الإطلاع والاكتشاف أو التعرف على أمر ما وهو ما نجده في الكرامة التي ذكرها ابن مريم في مؤلفه البستان عن الشيخ سيدي أحمد بن حسن الغماري حين قال: "قال دخلت في بعض الليالي أنا وبعض أصحابي الجامع الكبير قال فبتنا فيه فلما جاء الشيخ سيدي أحمد للمقصورة يتهجد فيها ذهبت فأردت أن أدخل عليه في المقصورة فلما دخلت قدمت رجلي للدخول فبقيت معلقة..."[1].

ففي هذه الكرامة تجسدت الرغبة في الفضول ومعرفة ما في داخل المقصورة، وهي رغبة كثيرا ما نجدها في قصص الكرامات في هذه الفترة بالذات.

ومنها أيضا ما رواه عن الشيخ سيدي إبراهيم بن محمد المصمودي التلمساني قال: "حدثني بعض صالحي أصحابه قال كنت جالسا معه في بيته ليس معنا أحد وهو يقرأ القرآن ويشير بقضيب في يده إلى محل الوقف ضاربا على عادة أشياخ التجويد فقلت في نفسي لم يفعل هذا؟"[2]

وفيها أيضا إثارة عقلية تتجلى في حب المعرفة والفضول والتساؤل عن سبب فعل الشيخ وهي رغبة عقلية انتشرت آنذاك بحكم السرية التي تحكم قوانين الشيوخ والأولياء الصالحين وعدم القدرة على معرفة عالمهم الخاص من طرف عامة الناس وهو ما جعلهم يعتلون مكانة كبيرة في نفوس الشعب.

*رغبة مادية: ونجدها أكثر شيوعا في أوساط الناس وأكثر انتشارا في الكرامات لأنها تتعلق أساسا بمشكل أو عائق يصادف الشخصية، كالمرض والإرهاق والبرد والعراء والجوع والعطش وغيرها، كما ورد في هذه الكرامة لسيدي شعيب بن الحسن الأندلسي وفيها: "مر شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب فرأى أسدا افترس حمارا وهو يأكله وصاحبه جالس

[1] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص34.

[2] نفسه، ص65.

بالبعد على غاية الحاجة والفاقة فجاء أبو مدين وأخذ بناصية الأسد فقال له الشيخ أمسك الأسد واذهب به واستعمله في الخدمة في موضع حمارك"[1] فالحاجة في هذه الكرامة تتمثل في الخطر الذي هدد الرجل بعد أكل الأسد لحماره الذي هو وسيلته في كسب قوته وتنقله وعجز الناس عن مساعدته، وهو الأمر الذي اضطر تدخل الولي الصالح لتسخير الأسد لذلك الرجل بدل حماره.

ب- الحاجة المضمرة: وهي الحاجة التي تخفى عن الناس، حيث يعتقد القارئ أن الكرامة وقعت دون حاجة، ولكنها في الحقيقة من مزايا الولي يظهرها ويخفيها ليبين قدرته ويمرر من خلالها نواياه دون عراقيل تذكر.

كما ورد في الكرامة التي تروى عن إبراهيم بن يخلف المطماطي التنسي حين قال: "لما دخلت إلى مكة وطفت بالبيت ذكرت قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ فقلت في نفسي تعارضت الأقوال واختلفوا في معنى الأمن فصرت أكرر وأقول ءامنا ءامنا مماذا فسمعت صوتا خلف ظهري ءامنا من النار يا إبراهيم ثلاث مرات أو مرتين"[2]

وهذه الكرامة تبين رغبة مضمرة داخلية في ثبوت الولاية لهذه الشخصية وكانت السبب في حدوث الفعل الخارق فالرغبة باطنة إذن.

وكما ذكرنا فإن المتن الحكائي يتعلق أساسا بالمضامين التي تحتويها هذه القصص وما تحمل في طياتها من مفاجآت وأحداث غريبة ويختلف المتن الحكائي من قصة إلى أخرى بحسب اختلاف الموضوع كإغاثة المحتاج مثلا أو كشف السارق أو التنبؤ بالمستقبل أو تكليم الموتى أو السيطرة على الحيوانات وغيرها من المواضيع الأخرى.

[1] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص111.

[2] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص 15.

وإذا كان الافتتاح أو الاستهلال يركز على الراوي ودوره في افتتاح الكرامات فإن المتن الحكائي يركز في الأساس على الشخصية البطلة التي تكون –طبعا– وليا من الأولياء الصالحين وعلى دوره وقدرته الكبيرة التي تتجلى في أفعاله الخارقة التي يعجز عنها عامة الناس وكذا عن المساعدات التي يقدمها للناس وعن المكانة التي يحتلها في نفوسهم بفضل هذه المساعدات التي غالبا ما تكون مادية كالإطعام والسقي ورد الغريب إلى أهله والمساعدة على الشفاء وعليه فإن المتن الحكائي يرتكز أساسا على الفعل الخارق من طرف الأولياء اتجاه العامة.

وقد يكون هذا الفعل إما باطنا (خفيا) بطلب من الولي لتابعيه أو يكون ظاهرا كتقديم مساعدة لأحدهم أمام مرأى من الناس، وفي كل الحالات فإن الكرامة تأتي لتعزز مكانة الولي في الوسط الذي يعيش فيه وتتوجه بالأهلية والتقديس وهو ما يميز فعلا الكرامة عن غيرها من الحكايات الشعبية أو الخرافية.

3-الزمن الحكائي:

"هو الزمن الذي تتم فيه رواية الأحداث القصصية أو سردها من طرف الراوي، وقد يختلف زمن الحكاية عن زمن وقوع الأحداث، كما قد يختلف باختلاف الرواة وتعددهم، والزمن الحكائي كالمكان من المؤشرات التي تساعد القارئ على تركيز الأحداث والشخصيات في المواقع التي اختارتها لها القصة أو الرواية"[1]

وبالنسبة لقصص الكرامات فهي تعتمد في سرده على الزمن الماضي من خلال استخدام الأفعال الماضية في كل القصص المتوفرة لدينا ونذكر على سبيل المثال "قال، أخذ، نادى، دخلت، بعث، أتى، خرجت، سلمت، شكوت، كان، رجع..."

[1] أحمد ممو، في المصطلح القصصي دراسة، www.kissas.org، تاريخ الإطلاع: 2018/11/14 على الساعة: 22:45.

وهي أفعال ماضية دالة على الحركة وتعتبر من مؤشرات النمط السردي فالزمن الماضي هو المسيطر ولا عجب في ذلك لأن هذا النوع من القصص يعتبر قديما سواء تعلق الأمر بزمن الحكاية أو وقوع الأحداث.

غير أننا نجد في بعض من هذه القصص أفعالا مضارعة دالة على زمن مضى كما في قوله: "بينما أنا أمشي عند الشيخ أحمد أمعاز وإذا برجل لقيني..."[1] وفي قوله أيضا: "فلما جاء الشيخ سيدي أحمد للمقصورة يتهجد فيها ذهبت فأردت أن أدخل"[2] ولكن الملاحظ غلبة الأفعال الماضية بشكل واضح أي أن المتتبع للكرامة يدرك تماما بأنها من الماضي غير أن البيئة الزمانية لم تحدد بالضبط بتاريخ واضح، وهل هذا الزمن ماضي قريب أو بعيد.

أما عن المكان فنجد أن معظم الكرامات قد تطرقت لذلك وبصورة واضحة وهو ما نجده في هذه الكرامة لسيدي أحمد بن حسن الغماري حيث قال: "أنه كان في سوق ندرومة يوم الخميس يملأ إبريقا له بالماء"[3]

ومنها أيضا "أن الشيخ الصالح سيدي بوبدير بن السنوسي أصابه جوع فمكث بجامع زاوية سيدي الحلوي"[4] وعليه فذكر البيئة المكانية يعزز أكثر من فرضية وقوع هذه الكرامات على أيدي هؤلاء الأولياء وبالإجمال فإن الزمان والمكان من المكونات الرئيسية لأي فن سردي وقصص الكرامات إحدى هذه الفنون التي تتميز بالكثير من الخصائص الفنية الأخرى.

[1] محمد أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص53.

[2] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص34.

[3] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص32.

[4] نفسه، ص35.

4- الشخصيات الحكائية:

لا يمكن الحديث عن قصة من قصص الكرامات دون الحديث عن الشخصية والتي تعد عنصرا فعالا فيها، وركيزة هامة لا يستوي بناء الكرامة دونها، فهي الوحدة الأساسية ومحور العملية التي تدور حوله أحداث الكرامة، وتحبك من أجله القصص وذلك ما لاحظناه خلال تقديمنا لتعريف حول الكرامة والتي اعتبرناه فعلا خارق للعادة من قبل شخص غير مقرون لدعوى النبوة، لأن هذا الأخير يسمى معجزة.

وعليه فالكرامة تعتمد أساسا على الشخصية التي هي في الأساس ولي من الأولياء الصالحين، بقدر اعتمادها على الحدث الخارق وهنا يكمن اختلافها عن النادرة وعن الأخبار وعن الكثير من الفنون الأدبية السردية الأخرى، ووحدها الشخصية (الولي) هي القادرة على منح هذه الميزة للكرامة دون غيرها.

الولي إذن هو الشخصية البطلة في الكرامة وغالبا ما يتم التركيز عليه دون سواه من الشخصيات الثانوية الأخرى.. إلا باعتبارها نقطة التقاء تشكل حافزا (جاء رجل، التقى بشاب)، وغالبا ما يتم عن طريق الصدفة، أو من أجل اختبار صاحب الكرامات بسؤال أو طلب نصيحة وهي بذلك تشكل على المستوى الدلالي سندا في إبراز المعنى"[1] كما أن حضور هذه الشخصيات لا يكون بالأهمية ذاتها لحضور الشخصية البطلة، ولا بالوضوح نفسه عدا ما نلحظه من خلال تصرفاتها أو سلوكها ومن بين هذه الشخصيات نجد:

أ-شخصية المريض: نجد هذه الشخصية متواجدة في الكثير من الكرامات في وقت كثرت فيه الأمراض والأوبئة وتدهورت الحالة الاجتماعية للناس، وآمنت فيه المجتمعات بالكرامة كبديل للطب وللدواء فصار الولي الملاذ الوحيد لهؤلاء المرضى وبالتالي تظهر هذه

[1] آمنة بلعلى، الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص222.

الشخصية شخصية المريض الراغب في الشفاء المتقرب إلى الولي طامعا في نيل بركته وإبرائه من علته.

ومن بين هذه الكرامات ما ذكره ابن مريم في (البستان) حين قال عن الشيخ سيدي عبد الرحمان بن تومرت قال: "خرجت لي أكلة في الخد وطال أمرها وصارت تتزايد وآيست من البرء فلقيت الشيخ سيدي الحسن يوم الجمعة... فتعرضت له وسلمت عليه ثم شكوت له ذلك الأمر"[1]

فرغم أن شخصية المريض ظهرت بكثرة في هذه الكرامة إلا أن التركيز منصب حول شخصية الولي وفي قدرتها على علاج ذلك المريض.

ب-شخصية المحتاج: وهي أيضا من الشخصيات التي دائما ما تظهر في الكرامات وهذا أمر بديهي إذا ما قلنا بأن دور الولي يكمن أساسا في مساعدة هؤلاء المحتاجين وهي في العادة شخصية مسلمة مؤمنة بالولي، وقد تكون هذه المساعدة مادية كاسترجاع المسروق أو بركة وزيادة في الطعام أو الأنعام كما قد تكون رغبة في المعرفة وحب الاستطلاع وهذا ما لاحظناه من خلال كرامة الشيخ سيد أحمد بن يوسف الملياني: "رأى الأب لابنه الكعبة تلعب بأستارها فذهب الوالد للشيخ وأخبره فقال له اذهب قد أعفاه الله الدنيا والآخرة"[2]

فنلاحظ هناك أن الحاجة تمثلت في معرفة تفسير لمنام الأب وهي رغبة معرفية معنوية أكثر منها مادية، وقد تكون سببا رئيسا في الاعتقاد المطلق والتصديق بولاية الشيخ.

ج-الشخصية الجماعية: وقد ورد في الكثير من الكرامات شخصية ثانوية تتمثل في جمع من الناس يؤدون دورا معينا غير أن الأضواء تبقى مسلطة على شخصية الولي وهو ما نجده

[1] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص80.

[2] الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص75.

مثلا في كرامة سيدي يحيى العيدلي عندما "رجع من سياحته وقد مكث فيها مختفيا عن الناس نحوا من عشر سنين وأمه في حال حياتها وجد أهل قريته أخذوا ثورا لحما فقسموه"[1]

ومنها: "قد كان له زرع في إهمال وبات فيه جماعة من الناس بخيلهم"[2]

وفي هذه الكرامات نجد أن الشخصية الثانية هي مجموعة من الناس دون أن يذكر الراوي صفاتهم وأسمائهم وإنما اكتفى بذكر الفعل الذي قاموا به وفيه أيضا عناية واهتمام كبير بشخصية الولي.

د-الشخصية الشاهدة: لا يمكن بأي حال إغفال الدور الكبير الذي تقوم به الشخصية الشاهدة وهي فرد أو مجموعة من الأفراد حضرت وشاهدت بأم أعينها ما حدث من أفعال خارقة على أيدي هؤلاء الأولياء، ورغم عدم حضورها في كل الكرامات إلا أنها ذات أهمية بالنسبة للراوي، والأمر الجدير بالذكر أن في هذه الشخصية قد تكون «المحتاج هو الذي يقوم بدور الشاهد، وفي أحيان أخرى يكون الولي نفسه هو الشاهد، إذن شخصية الشاهد غير ثابتة في وصفها، بل متحولة ومنتقلة بين الشخصيات السابقة»[3]

ومن بين هذه الشخصيات نجد ما ذكر ابن مريم عن سيدي حدوش بن تيرت العبد الوادي قال: "حكى لي بعض من أثق به وهو سيدي محمد المقري شقيق سيدي سعيد المقري قال كنت في السماط مع سيدي حدوش ابن تيرت فقبلت يده ووقفت معه ودعا لي بالخير"[4]

[1] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص 586.

[2] نفسه، ص587.

[3] عفاف نورة، بنية النص في جامع كرامات الأولياء، مرجع سابق، ص134.

[4] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مرجع سابق، ص93.

وعليه فإن الشخصية الشاهدة تختلف دائما باختلاف الولي والكرامة وهي من بين الأسباب التي تعزز فرضية وقوع هذه الكرامة فعلا، ورغم ذلك فيبقى التركيز دائما على الشخصية البطلة والمحورية وهي شخصية الولي.

لقد تبين من خلال الحديث عن شخصيات الكرامة أنها مكون هام من مكوناتها ولكن أهميتها تكمن في تعلقها بالولي أساسا وإلا سميت بأسماء أخرى، ذلك أن الولي هو الشخصية البطلة التي تبنى الكرامة من خلالها ورغم ذلك فالتركيز كان أيضا على الحدث الخارق بصفة كبيرة.

5-الخرجة (النهاية):

تتألف الأعمال القصصية أساسا من الاستهلال أو البداية والعقدة والمتن الحكائي والنهاية والتي تعرف أيضا بـ"القفلة" والتي "تربك المتلقي بإيجازها وإضمارها وتكثيفها، وتخيب أفق انتظاره بجملها الصادمة، وتشتبك معه بعباراتها المستفزة، ولا تقتصر الخاتمة أو القفلة على العبارة أو الجملة الأخيرة من القصة، بل قد تكون عبارة عن نقط حذف أو علامة ترقم أو مقطع أو فقرة أو متوالية أو مجموعة من الجمل المتراكبة أو المستقلة"[1].

وعليه فنجد أن كلا من الخاتمة أو النهاية أو الخرجة أو القفلة لها معنى واحد وهو في اللغة العربية الغلق الأخير أو ختم الكلام.

ولو تتبعنا الدراسات التي اهتمت بالخرجة في الكتابات السردية لوجدناها قليلة جدا اللهم بعض الاستثناءات مثلما وردت في كتاب (فن الشعر) لأرسطو، وعلى النقيض من ذلك فنحن نجد أن الدارسين قد اهتموا بهذه العناصر البنائية في القصيدة الشعرية.

[1] جميل حمداوي، القفلة في القصة القصيرة جدا، www.alukah.net تاريخ العودة إلى المقال: 2018/11/20 على الساعة 20:10.

أما عن قصص الكرامات فنجد أن عنصر الخرجة أو النهاية يعتبر أحد أهم العناصر التي تبنى من خلالها الكرامة وهي نهاية سردية طبعا بحكم أن بدايتها كانت كذلك ومن خلال إطلاعنا على مجموعة من قصص الكرامات إبان العهد العثماني وجدناها تختلف من حيث نهاياتها من قصة إلى أخرى حسب موضوعها وسنحاول أن نتطرق إلى بعض نهايات هذه الكرامات ونذكر على سبيل المثال الآتي:

أ-الخرجة الحوارية: وتستند أساسا إلى استخدام الحوار بين الشخصيات لغرض الإفصاح عن آراء هؤلاء وما تم بينهم من نقاش حول قضية ما هي موضوع تلك الكرامة، ونجد ذلك مثلا في كرامة أحمد بن معمر البجائي، وهو ما ذكره الحفناوي في مؤلفه تعريف الخلف برجال السلف، قال: "قال أنظر الكعبة فنظرت الطائفين بها ثم قال لي أنظر إلى المغرب فنظرت شيخي في المغرب ثم قال لي أتريد مكة أم المغرب فقلت شيخي فقال لي في خطوة أو كما جئت قلت كما جئت"[1].

تحمل هذه الخرجة في طياتها حوارا بين الشيخ (الولي) وأحد الشخصيات المؤمنة به والراغبة في تحقيق أمر ما والتقرب منه لذلك، ونلاحظ أنها جاءت على صيغة حوار.

ب-الخرجة القرآنية: وهي نوع من النهايات التي نجدها في بعض الكرامات كأن يلجأ السارد فيها إلى ختمها بآية كريمة تزيد من قوة الإقناع والتأثير في نفس القارئ وهو ما نجده في كرامة سيدي شعيب بن الحسن الأندلسي وما رواه عنه ابن مريم في مؤلفه (البستان)، قال: "وقرأ أول سطر فإذا فيه الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنو فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرون"[2].

[1] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص15.

[2] الشريف المليني المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص111.

وهي نهاية وظف فيها المعجم القرآني وفيها اقتباس لكلام المولى عز وجل وهو ما زاد المعنى قوة وإيضاحا وتأكيدا، وكذلك دعم الولي وأضفى على كرامته مصداقية أكبر.

ج-الخرجة العجائبية: أو ما يعرف بالفانطاستيكية وتتراوح هذه النهاية بين التعجيب والتغريب ولو أن هذا الأمر يوجد بكثرة في قصص الكرامات، ولا تقتصر هذه الخاصية على الاستهلال والمتن فقط وإنما تتعداها لتصل إلى النهاية أو الخرجة ونجد ذلك في كرامة الشيخ سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وما ورد في مؤلف (عبد الرحمان الثعالبي والتصوف) لعبد الرزاق قسوم، قال "ولكن دهشته كانت حين وجد أسده قد ابتلعته بقرة الشيخ الثعالبي"[1].

ومنها كرامة سيدي أحمد بن حسن الغماري التي أوردها ابن مريم في مؤلفه (البستان)، قال: "وإذا جئنا إلى بحر يلتقي طرفاه فنجتازه بقدم واحدة وقد جزنا على مصر بالليل ونحن في الهواء وهي تحتنا مملوءة بالمصابيح فقضينا الحج ورجعنا إلى موضعنا من تلمسان"[2].

ونجد أن نهايات هذه الكرامات كانت أقرب إلى العجائبية وإلى الغرائبية منها إلى الواقع ففي الكرامة الأولى نقرأ عن بقرة ابتلعت أسدا، أما في الثانية فعن أناس يجتازون البحر بقدم واحدة ويطيرون في الهواء، وفيها شيء من الحيرة التي تستبد بعقل القارئ وتجعل من الأمر صعب التصديق نوعا ما، ورغم ذلك فهذا العنصر بالذات متوفر في كل الكرامات تقريبا (العجائبي) وهو ما ميزها عن باقي الفنون السردية.

[1] قسوم عبدالرزاق، عبدالرحمان الثعالبي والتصوف سلسلة الدراسات الكبرى، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، د.ت، د ط، ص17. نقلا عن: مداني حرحيرة، الرمزية الصوفية في الأزمات الإجتماعية الكرامات وتمثلاتها في المغرب الأوسط (ق10هـ،ق14هـ) مخطوط رسالة ماجستير في الفلسفة، جامعة وهران، الجزائر، 2013/2012،.

[2] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص35.

د-الخرجة الإنشائية: بعض الكرامات تكون نهايتها خرجة إنشائية مبنية على تنويع أساليب الإنشاء بين الطلبية وغير الطلبية لأغراض متعددة وهو ما نجده مثلا في كرامة سيدي إبراهيم بن محمد المصمودي التلمساني، وما ورد في مؤلف (البستان) لابن مريم قال: "فقال لي، مالك يا فلان؟ قلت ذنوبي"[1].

ونلاحظ أن خاتمة هذه الكرامة ورد فيها الإنشاء على صيغة الاستفهام وهو أسلوب إنشائي طلبي استفسر فيه الشيخ عن حالة الرجل وقد أجابه بعد ذلك مبينا عن كرامته.

ونجد الإنشاء أيضا في كرامة سيدي محمد بن عمر الهواري وما ذكر الآغا بن عودة المزاري حيث قال: "يا ولدي حذرتك دعوة الشيخ فأبيت فلا حيلة فيك اليوم"[2].

وهو أيضا أسلوب إنشائي طلبي جاء على صيغة النداء وغرضه الحسرة والتألم على عدم سماع كلام الشيخ والنتيجة التي آل إليها الولد.

هـ-الخرجة المأساوية: تنتهي بعض قصص الكرامات بنهايات مأساوية وحزينة، كما يتضح من خلال كرامة الشيخ سيدي يحيى العيدلي الذي ذكره الإمام الحفناوي في مؤلفه تعريف الخلف برجال السلف، قال: "وظهر أمر الشيخ طهورا بينا بحيث أن من تعدى عليه هلك بغتة"[3].

[1] الشريف المليي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص65.

[2] الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص69.

[3] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص587.

ومنها ما ذكره، الآغا بن عودة المزاري عن الشيخ غانم بن يوسف الملقب بالتركي الغمري، قال: "فسقط عليهم ذلك الكاف وماتوا ولم ينج منهم إلا من كان أعمى أو زحافا"[1].

وقد ورد أيضا عن الشيخ أحمد بن ملوكة التلمساني في إحدى كراماته ما ذكره أبو القاسم سعد الله قال: "واستجاب الله سبحانه وتعالى إلى الدعاء لأن عروج قد مات مقتولا"[2].

وفي هذه النهايات أو الخرجات لقصص الكرامات نجد أنها مأساوية جدا حيث أن الشخصيات المذكورة تعرضت كلها للهلاك والموت والقتل وهي في الغالب تتحدث عن مصير أولئك الذين يتعدون على الأولياء أو يتعرضون إلى دعواتهم بعد عمل مشين يقومون به وهو ما يؤكد أيضا كرامة هؤلاء.

وكخلاصة لكل ما سبق يتبين لنا أن قصص الكرامات من بين الأعمال السردية التي تميزت بنهايات مختلفة ومتنوعة أسلوبا وتشكيلا ورؤية، ومتباينة ما بين خرجة حوارية وقرآنية مرورا بالعجائبية والإنشائية ووصولا إلى الخرجة الفانطاستيكية المأساوية، وهذا التنوع في النهايات أو الخرجات إن دل على شيء ما فهو يدل على ثراء قصص الكرامات من حيث المواضيع وكذا من حيث البناء والتشكيل والحبكة أيضا، ناهيك عن باقي الخصائص الفنية التي سنتعرض إليها في لاحق بحثنا.

[1] الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص5.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (2016م)، ص473.

ثانيا: الخصائص الأسلوبية لقصص الكرامات

الأسلوب لغة: "يقال للسطر من النخيل – أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب. والأسلوب الطريق والوجه والمذهب، يقال أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب، والأسلوب الطريق تأخذ فيه، والأسلوبُ بالضم الفن، يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانيق منه"[1].

وهنا يأتي المعنى الحقيقي أو الحسي أو المادي وهو مثبت المعنى وقاعدته الأصلية كما في الطرق وسطر النخيل فضلا عن الدلالة المعنوية لكلمة أسلوب التي لها علاقة بمادتها اللغوية وهو (سلب) وهو "الأخذ والانتزاع بهيئة الابتزاز مع ارتباط وثيق بمعنى العطاء"[2].

وعليه فكل المعاني التي تطرقت إليها المعاجم حول كلمة أسلوب تأتي بمعنى الطريقة والفن والمذهب.

والأسلوب لا يكون فقط مجموعة الطرائق أو الشكل الخارجي بل هو "خصائص المعالجة الفنية"[3].

وعلى ذلك في الأسلوبية "وصف لغوي للنصوص الأدبية يخلص بالنهاية ومن خلال التحليل للسمات اللغوية في النص الأدبي إلى التأكيد على المنهج الأسلوبي في استيفاء الصورة بكل ما تحمله من دلالات متنوعة"[4].

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، مج2، 1956، د ط، ص 157.

[2] ينظر: شكري محمد عياد، اللغة والإبداع، مبادئ علم الأسلوب العربي، مؤسسة أنترناشيول، بيروت، ط1، 1988، ص 15.

[3] ينظر: أ.ف، تشيتشرين، الأفكار والأسلوب، ترجمة: حياة شرارة، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1978، ص316.

[4] ينظر: شكري محمد عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، دار المريخ للنشر، ط1، الرياض، 1982، ص78.

وسنحاول من خلال دراستنا الأسلوبية لقصص الكرامات في العهد العثماني بالجزائر أن نكشف عن الأبعاد النفسية والقيم الجمالية من خلال التحليل اللغوي لها.

وعليه يمكن أن نستنتج وظيفتين للغة:

1- تمنح دلالة للأشياء التي نتحدث عنها.

2- تبين موقف المتكلم تجاه هذه الأشياء.

تسعى الأسلوبية إلى دراسة مجموعة من المستويات بدءا بالمستوى الصوتي ثم التركيبي والمعجمي وصولا إلى أكبر وحدة ألا وهي المستوى الدلالي أو ما يعرف بالتصوير الفني وهو ما نسعى إلى الوصول إليه من خلال قادم عناصرنا.

1- المستوى الصوتي:

يتولد المستوى الصوتي من النص من خلال "إيقاع الجرس اللفظي وإيقاع الصيغ التكرارية"[1] ذلك أن النص يتألف من عناصر وإيقاع يضبطها هذا المستوى الصوتي، إذ أن " للألفاظ قيمة ذاتية تقدم المتعة الحسية التي يجدها المتلقي تنشأ من تتابع أجراس حروفها ومن توالي الأصوات التي تتألف منها في النطق، وفي الوقوع على الأسماع"[2].

***التكرار:** هو "تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير بحيث تشكل نغما موسيقيا"[3] وهو "أسلوب يحتوي على كل ما يتضمنه أي أسلوب من إمكانيات تعبيرية"[4].

[1] ينظر: شكري محمد عياد، اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، 1985، ص96.

[2] يوسف سليمان الطحان، السمات الأسلوبية في القصة القرآنية قصة إبراهيم عليه السلام. أنموذجا، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مج 10، ع3، الموصل العراق ، 2011، ص 216.

[3] ينظر، ماهر مهدي هلال، جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقد عند العرب، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980، ص239.

[4] ينظر، خليل أحمد عمايرة، في التحليل اللغوي، مكتبة المنار، ط1، الأردن، 1987، ص108.

ومن أمثلة تكرار الحرف ما جاء في كرامة سيدي أحمد بن سعيد العفيفي: "أن الشيخ علي المهاجري كان زمارا...أن بلغ الغاية في صنعته... أن مثل زمارته تلهي ... يقول بجوازها إن لم تله... إن مررت بمحل كذا... أن صبغ حينئذ ...أن يطلع الفجر"[1].

لقد تكرر الحرفان (أن، إن) وساهم هذا التكرار في منح إيقاع صوتي للنص القصصي فضلا عن القيم المعنوية فاستخدام الحرف (أن، إن) يدل على التوكيد في الكلام وهذا التكرار يدل أيضا على إدراك قدر الشيخ ومكانته بين الناس.

كما ورد تكرار الاسم ونجد ذلك في كرامة سيدي عبد القادر بن عبد الله المشرفي وجاء فيها: "بينما أنا أمشي عند الشيخ...حتى توارى عني بشجرة الشيخ ...لأن الشيخ العربي به"[2].

لقد تكرر اسم (الشيخ) ثلاث مرات في النص، ويعطي هذا التكرار سمة إيقاعية تضفي على النص فضلا عن القيمة المعنوية بالتركيز على الشيخ وتكراره مما يوحي بمكانته ومنزلته الكبيرة عند من عاصره وعاشره.

ومن أمثلة تكرار الفعل ما نجده في كرامة الشيخ سيدي أحمد الشريف الورتيلاني وجاء فيها: "أتى إليه يشاوره في أمر فنادى الشيخ... وناداه مرة أخرى"[3].

ونلاحظ هنا أن الفعل (نادى) قد تكرر في النص أكثر من مرة وفيه الحاج على مخاطبة الشيخ حتى بعد موته نظرا للقدرة التي يتمتع بها وإيمان الناس المطلق بذلك فنداء سيدي محمد للشيخ فيه نوع من اللجوء والاحتماء به، كما يدل على فيض العاطفة المتميزة التي يكنها للشيخ، وهذا التكرار يقدم مع المضمون إيقاعا محببا في سياق السرد القصصي.

---

[1] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص55-56.

[2] محمد أبوراس الناصري، فتح الآلة ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص53-54.

[3] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص58.

أما عن تكرار الجملة فقد كان حضوره قليلا بالمقارنة مع الحرف والاسم والفعل ورغم ذلك فقد تكررت الجملة في بعض الكرامات نذكر منها كرامة محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق الخطيب وفيها: "فوقع بصره علي وقال يامحمد... وقادني إلى المنبر وقال يا محمد.... ناداني بصوت قوي وقال لي يا محمد"[1].

تكررت الجملة (قال يا محمد) ثلاث مرات في هذه الكرامة الأولى عندما وقع بصر الشيخ على الشاب، والثانية عندما طلب منه أن يرتقي المنبر، أما الثالثة فكانت عندما طلب منه إلقاء الخطبة على الجمهور، وتكرار هذه الجملة بالفعل (قال) الماضي الذي يعبر عن الغائب المفرد، وتكرار حرف النداء (يا) مع تكرار الاسم (محمد) له دلالة على أن الشيخ اختار الشاب لغاية في نفسه ويقينه بأنه الشخص المناسب لتلك المهمة، وقد أعطى هذا التكرار قيمة صوتية بتكراره على مستوى التعبير نفسه(قال يا محمد) مما يضفي نغما محببا للنص القصصي في سياق السرد.

***الفاصلة:**

الكلمة التي تختتم بها الجملة، وتعمل على الفصل بين الجمل، "فالفواصل حروف متشابكة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني"[2]، ويتم بها المعنى ويزداد قوة ووضوحا بما بريح النفس.

غير أن الفواصل في قصص الكرامات لا تكون قصيرة كما هي في بعض سور القرآن الكريم أو في بعض الرسائل إلا أن حضورها واضح مثلما نجد ذلك في كرامة الشيخ غانم بن يوسف الملقب بالتركي الغمري وجاء فيها: "سمع به الأحلاف فرقة منهم بأنه عنده

[1] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص188.

[2] الرماني، النكت في اعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، تح: أحمد محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، 1972، ص97.

شاة من الضأن مسمنة منذ ثلاث سنين، فقدموا إليه لطغيانهم وأمروه بذبحها لهم فسألهم غيرها فأبوا لما أراد الله بهم الانتقام المكين، فذبحها لهم واحتسب وبش في وجوههم وانطرب، فلما فرغوا من الأكل وأرادوا الانصراف، أنشأ يقول: حاف حاف طاح الكاف على الأحلاف"[1].

وجاءت الفواصل هنا مجموعة من الكلمات (سنين، مكين، انطرب، انصراف...) وهذا التنوع في نهاية الكلمات أضفى إيقاعا صوتيا جميلا في سياق السرد القصصي أضفى بضلاله على المضمون الفكري للقصة.

2-المستوى التركيبي:

يعد المستوى التركيبي المستوى الثاني للدراسة الأسلوبية من خلال الأفعال والجمل:

أ- **الأفعال:** ترتبط الأفعال في قصص الكرامات بقضيتين رئيسيتين هما: الزمن والمعنى

* **زمنية الأفعال:** ومن أمثلة زمنية الأفعال ما ورد في كرامة[2] الشيخ الحسن أبركان والتي تضمنت أربعة أنواع من صيغ الأفعال:

الأول: الفعل الماضي، وقد وردت صيغه تسعة عشرة مرة ونرتبها على النسق الآتي كما وردت في القصة وفق تسلسلها، (خرجت، طال، صارت، أتيت، لقيت، تعرضت، سلمت، شكوت، خرج، نظر، رأى، قال، بسطته، بصق، قال، ذهب، رأيت، وضعت، دخلها).

الثاني: الفعل المضارع، وقد وردت صيغه أربع مرات على النحو الآتي: (تتزايد، يزد، تأت، يبق).

[1] الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص85.

[2] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص80.

الثالث: فعل الأمر، وقد وردت صيغه مرتين هما (أبسط، ضع).

الرابع: الفعل الدائم الذي يأتي بصيغة اسم الفاعل وقد ورد مرتين (راكب، طالع) تدل الأفعال الماضية على الحدث الذي وقع في الماضي من خروج الأكلة في خد عبد الرحمان بن تومرت ولقائه بالشيخ الحسن أبركان، وبعد أن انتهت عملية المعالجة بالبصاق جاءت الأفعال المضارعة لتتحدث عن الأحداث الحاضرة فيما يتعلق بوضع البصاق على مكان الأكلة في الخد وزوالها بطريقة عجيبة.

لقد ارتبطت الأفعال بأدوات منها:

(التاء) في "صارت" للتعبير عن حجم الأكلة، (الهاء) في "بسطته" للتعبير عن تنفيذا أمر الشيخ، (الهاء) في "دخلها" للتعبير عن البرء على الفور.

ويتضح لنا من خلال ما سبق أن زمنية الأفعال قد ظهرت، وما تعلق بها من أحداث القصة في الزمن الماضي والحاضر أيضا لتوضيح الغاية من أغراض ذكر هذه الأحداث والمغزى من ورائها من خلال التنويع بين الزمنين إضافة إلى توظيف فعلي أمر للتعبير عن الطريقة التي اتبعها الشيخ في العلاج فضلا عن اسم الفاعل الذي يبين هيئة الشيخ أثناء لقائه.

* **مستويات الأفعال:**

تختلف مستويات الأفعال في قصص الكرامات ومن أمثلة ذلك ما ورد في كرامة سيدي عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الرحمان اليعقوبي[1]، حيث تبدأ القصة بمستوى الغائب (الشيخ) من خلال الفعل الماضي (أتى) ثم ينتقل السرد إلى مستوى المخاطب (يا أبا مدين) من خلال الفعل المضارع (يستأذنك) ثم يأتي مستوى المثنى الغائب بالفعل الماضي

[1] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 134-135.

(صارا)، وبعدها يتحول المستوى إلى جمع الغائب (الترك) من خلال الفعل الماضي (حاوره) ثم مستوى المفرد المتكلم (سمعت) وبعدها إلى مستوى المثنى الغائب (أردت الدخول عليهما) وانتقل بعدها إلى مستوى المفرد المتكلم (جذبني)، وأخيرا عاد إلى مستوى المثنى الغائب من خلال الفعل المضارع (تحققت).

وهكذا تعددت مستويات السرد من مستوى لآخر من الغائب إلى المخاطب، وبعدها إلى جمع الغائبين ثم إلى المفرد المتكلم وأخيرا إلى مستوى المثنى الغائب.

وهذا ما يساهم في لفت انتباه القارئ لهذا النوع من القصص للإطلاع أكثر وجذبه وتشويقه، وهذا أفضل بكثير من اعتماد مستوى واحد أثناء السرد بفضل تنوع الأفعال والضمائر وهو الذي يؤدي إلى تطور العمل السردي وتنوع المواقف القصصية.

ب- الجمل:

"تعد الجملة الوحدة الرئيسية للمعنى التي تعبر عن فكرة تامة[1] وتتسم "بالسلامة النحوية والدلالية لأنها تمثل تركيبا خاصا من نوعه"[2].

*** الجمل الاسمية:**

إن استخدام الجمل الاسمية في قصص الكرامات أو غيرها من الفنون السردية إنما يراد به إثبات الصفة واستقرارها فهي تدل على الثبات والديمومة في الفكرة المراد إيصالها.

والجمل الاسمية هي "التي يكون صدرها اسما صريحا أو مؤولا في محل رفع أو اسم فعل أو هي التي صدرها حرف مشبه بالفعل"[3].

[1] ينظر، آ.ف بالمر، علم الدلالة، تر: صبري إبراهيم السيد دار قطري ابن الفجاءة، قطر، 1986، ص45-46.
[2] ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط1، 1986، ص18.
[3] ينظر، خليل أحمد عمايرة، في التحليل اللغوي، مكتبة المنار، الأردن، ط1، 1987، ص42.

ومن أمثلة الجمل الاسمية ما ورد في كرامة الشيخ أحمد بن ملوكة التلمساني والتي جاء فيها: "اللهم لا تعده إلى تلمسان إنا اتكلنا عليك"[1].

جاءت الجملة الاسمية من خلال لفظة الجلالة (اللهم) والتي تستخدم للدعاء ومن خلال الجار والمجرور (إلى تلمسان) وتأتي هذه الجملة في دعاء الشيخ على عروج ليهلك.

والملاحظ أن الجمل الاسمية في قصص الكرامات قليلة التوظيف جدا إذا ما قارنّاها بالجمل الفعلية الدالة على الحركية والاستمرارية.

*** الجمل الفعلية:**

تأتي الجمل الفعلية في الفنون النثرية السردية عندما يراد تصوير الصفة بشكل متغير والجملة الفعلية هي "التي يتصدرها فعل تام أو ناقص"[2].

ومن أمثلة الجمل الفعلية ما ورد في كرامة سيدي عبد القادر بن عبد الله المشرفي[3] والتي جاءت فيها الجمل الفعلية بعدد من الأفعال الماضية (أتى، ذهب، خرج، أمر، رجع، سرح، عافا)، والأفعال المضارعة (يسرحهم، يموت، تضرع)، فالأفعال الماضية هنا دلت على ثبوتها وحصولها، أما المضارعة فقد عبرت عن الاستمرار والتغير.

[1] أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري (16-20م)، ص 472-473.
[2] ينظر، خليل أحمد عمايرة، في التحليل اللغوي، ص45.
[3] ينظر: عماد عبد يحي، البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، مخطوط أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1992، ص159.

* **جملة الحدث:**

هي "الجمل التي ترتبط بالأفعال الماضية أو المضارعة للتعبير عن أحداث القصة في سياق السرد"[1].

* **1-جملة الحدث الحاضر:**

وهي الجملة التي تعبر عنها قصص الكرامات عن طريق الأفعال المضارعة للتعبير عن أحداث هذه القصة.

ومن أمثلة ذلك ما نجده في كرامة سيدي إبراهيم بن محمد المصمودي التلمساني وجاء فيها: "كنت جالسا معه في بيته ليس معنا أحد وهو يقرأ القرآن ويشير بقضيب في يده إلى محل الوقف"[2].

جاء هذا الحدث من خلال الفعلين المضارعين (يقرأ- يشير) اللذين يدلان على استمرار قراءة القرآن الكريم على عادة أشياخ التجويد.

* **2- جملة الحدث المتوقع:**

هي الجملة التي تعبر عنها قصص الكرامات بالأفعال المضارعة المنصوبة أو المجزومة أو المسبوقة بالسين أو سوف.

[1] نفسه، ص 159.

[2] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص65.

ومن أمثلة جملة الحدث المتوقع ما جاء في كرامة الشيخ غانم بن يوسف الملقب بالتركي الغمري وهذا نصها: "ولما فرغوا من الأكل وأرادوا الانصراف، أنشأ يقول: حاف حاف طاح الكاف على الأحلاف فلا ينجى منهم إلا الأعمى والزحاف"[1].

لقد تم التعبير عن الحدث المتوقع من خلال الفعل المضارع (ينجى المسبوق بلا النافية، حيث أن الشيخ دعا على الأحلاف بعد أكل شاته دون أن يسمعوا لكلامه عندما سألهم غيرها، وهو أنه لن ينجوا منهم إلا من كان أعمى أو زحاف وهو ما حدث فعلا، فالسياق يوحى بالحدث المنتظر من خلال هذا الفعل المضارع المذكور.

3- المستوى الدلالي (التصوير الفني):

تحتل الصورة مكانة هامة في الدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية القديمة منها والحديثة من حيث الاهتمام بتحديد ماهيتها ووظيفتها في العمل الأدبي.

غير أن النقاد القدامى لم يطوروا في مفهوم الصورة في المجال الإصطلاحي الدقيق، ولم يخرجوا بها عن مدلولها اللغوي، ولم يتبلور عندهم بعدها النقدي الأصيل إلا إذا استثنينا بعضهم كعبد القاهر الجرجاني الذي ابتدع لنا في استعمال الصورة دلالة اصطلاحية جديدة.

وعليه فالدراسة العربية للصورة ليست مفقودة وإن اختلفت وتباينت درجة الاهتمام بين إشارات ولمحات بسيطة وعابرة وبين إدراك ووعي عميق لطبيعتها وأثرها في النص الأدبي مع الاهتمام بالنواحي الفنية والجمالية فيها إضافة إلى وقفاتهم عند (ماهية الصورة، ومكوناتها كالتشبيه وأدواته وأنواعه والاستعارة وأنماطها).

[1] الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص85.

وهذا كله ينفي ما يروج للأدب الجزائري القديم خاصة الفترة العثمانية بالفقر في صوره لأنه حافل بالصورة الفنية في اتجاهها الأول، أي التي تحفل برسم المشاهد الطبيعية ووصفها وصفا يلم بكل تفاصيلها وأبعادها.

ورغم كل هذا فيجب أن نقر بأن هذا النقد قد عالج الصورة معالجة تتناسب مع ظروفه التاريخية والحضارية، فاهتم كل الاهتمام بالتحليل البلاغي للصورة القرآنية، وتمييز أنواعها وأنماطها المجازية وركز في دراسة الصورة الفنية عند الشعراء أكثر منها عند الكتاب وانتبه إلى الإثارة اللافتة التي تحدثها الصورة في المتلقي، والتفت نوعا ما إلى الصلة الوثيقة بين الصورة والشعر، باعتبارها إحدى خصائصه النوعية التي تميزه عن غيره من النصوص الأدبية الأخرى (النثر).

ونتوقف هنا عند الجرجاني حيث نجد أن طريقته في دراسة الصورة متميزة عما سبقه من العلماء العرب على الرغم من استفادته الكبيرة من جهودهم فقد أفاض في حديثة عن الصورة في كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، وقد ربط في العديد من النصوص الصورة بدوافع نفسيه بالإضافة إلى الجانب الذوقي والحسي حيث تجتمع هذه الخصائص جميعا لتضفي على الصورة شكلا ورونقا وعمقا مؤثرا.

فعبد القاهر الجرجاني لم يهمل الأثر النفسي وفائدته في تركيب الصورة فركز في تحليله العميق للخلق والإبداع عند الكتاب على الذوق الفني المرهف وما تثيره مفردات البيان العربي أو ضروبه الفنية من استجابة فنية في نفس متلقيها، فبدأ البيان العربي عنده قائما على الذوق والتذوق.

ومن خلال دراسته لصورة يتضح لنا أنه لا يركز على المعنى دون الشكل ولا العكس فهو يرى بأنهما عنصران مكملان لبعضهما، فمفهوم الصورة عند الجرجاني قد استقر على أركان ثلاث:

1- دراسة الصورة والتصوير الفني خضم البحث البلاغي.

2- فهم معاني الصورة لغة واصطلاحا من شتى مصادرها الأصلية.

3- يلتمس مصادر الصورة الأدبية ووسيلة خلقها ومعيار تقويمها في الواقع في أبعاده الموروثة ومقوماته الحيوية.

فدراسة الصورة هي دراسة متميزة حسبه، رؤيته لها تغاير المفاهيم التي سبقت دراساته مما حفزنا إلى اعتماد آرائه حول التصوير الفني واعتباره الناقد الأول الذي بسط القول في الصورة مفهوم واصطلاحا.

وعليه في التراث العربي قد عرف الصورة مصطلحا ومفهوما ولم يبخس حقها، وإن اختلفت تسمياتها لدى النقاد والبلاغيين العرب القدامى.

وقد شغلت دراسة الصورة حيزا واسعا ومهما من اهتمامات النقد العربي الحديث واختلفت الاتجاهات بين ناقد متأثر بالتراث العربي، وبين آخر حاول الاستفادة مما درسه وتوصل إليه النقاد الغربيون بشأن الصورة وأهميتها وعناصر تكوينها وبين هذا وذاك حاولنا نحن أن نتطرق إلى موضوع الصورة بين تراثنا الخالد وما خلفه لنا الأجداد من إرث نقدي وبلاغي على جانب كبير من الأهمية وركزنا في دراستنا هذه على واحدة من الفنون النثرية السردية خلال فترة التواجد العثماني بالجزائر وبالضبط قصص الكرامات وما لهذا الفن من تواجد في تلك المرحلة وحاولنا أن ندرس الصورة فيه مكتفين بأشهرها على الإطلاق كالتشبيه والاستعارة والصورة الحسية نظرا للحضور الكبير لها على مستوى النصوص السردية في قصص الكرامات.

أ- الصورة التشبيهية:

من الصور التي نجدها في متون النصوص السردية الصورة التشبيهية باعتبارها إلى جانب الصورة الاستعارية وصور التشخيص الأكثر توظيفا وعليها يتمأسس الشكل الجمالي في المتن السردي النثري، ولئن كان سعي هؤلاء الأدباء حثيثا لخلق أنماط جديدة من الصور إلا أن تركيزهم غالبا ينصب أولا على الصور البلاغية كمنطلق نحو أفق جديدة مغاير لما هو معهود، وهم في ذلك يوظفون آليات متعددة من التصوير في سبيل تأثيث نصوصهم بزخارف صورية عديدة تنعكس على مختلف الجوانب النصية.

والتشبيه هو أن تكشف عن وجه الشبه ويكون هذا الأخير واضح بشكل جلي في المشبه به أكثر منه في المشبه. لهذا يجب أن تكون هذه الصفة المقصود إبرازها أكثر مما تميز ذلك المشبه به.

يقوم بنيان التشبيه على أركان أربعة:

" المشبه، والمشبه به ويسميان طرفا التشبيه، ثم أداة التشبيه وقد تكون اسما، أو فعلا، أو حرفا ووجه الشبه"[1].

والمشبه والمشبه به ركنان أساسيان في وجود التشبيه ولا وجود له بغيابهما أو غياب أحدهما، إنما جيء بالمشبه به لتوضيح صفة في المشبه".

"وإذا كانت الصورة التشبيهية تحافظ على مسافة الغيرية فإن الاستعارة تلغي الحدود وتدمج الأشياء في وحدة"[2].

[1] مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة العربية تأصيل وتجديد، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1980، ص84.

[2] عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في النقد الشعري، دراسة في النظرية والتطبيق، دار العلوم للطباعة والنشر، الرباط، 1984، ص96.

ولقد حاولنا من خلال النصوص التي توفرت لدينا من قصص الكرامات إبان العهد العثماني أن نستخرج بعض التشبيهات الواردة فيها ونركز على سبب توظيفها وكذا قيمتها الفنية داخل النص ونجد من ذلك:

في كرامة سيدي أحمد بن سعيد العفيفي في حديثه عن الشيخ علي المهاجري وظّف التشبيه في قوله: "لأن مثل زمارته تلهي كل اللهو على ما حكوا عنه"[1].

في إشارة منه إلى الصفة التي تمتاز بها تلك الزمارة وهي الهاء الناس وهي صفة محرمة واستخدم هنا للتشبيه اسما (مثل)، كما استعان في القصة نفسها بحرف التشبيه الكاف في قوله: "سيما مع انضمام مفاسد إليها كحضور النساء والشبان"[2]، وفيها تأكيد أيضا على تأثير هذه الزمارة على السلوك العام وهو دليل على أن الولي الصالح ومن معه شديدوا الحرص على عدم تضحية الوقت في المحرمات ومالا يفيد الناس كما أن التشبيه في هذه القصة لا يرجى من ورائه التشبيه في حد ذاته وفقط وإنما يوصفه حاجة فنية تبنى عليها ضرورة الصياغة والتركيب ونجد التشبيه أيضا في كرامة سيدي أحمد بن الحسن الغماري التي ورد فيها، "فرأوا ذلك الإبريق ينبع من قهره ماء كالعين"[3] حيث شبه أسفل الإبريق بالعين التي تجري بالماء وهذا دليل على الكمية الكبيرة من المياه التي كانت تخرج من الإبريق وفيها تأكيد أيضا على صحة الكرامة المنسوبة للشيخ، كما أن التشبيه هنا قد أكسب النص روعة واستقامة وتقريبا للفهم وفيه أيضا تمثيل للصورة.

كما وردت الصورة التشبيهية أيضا في كرامة سيدي عبد القادر بن عبد الله المشرفي التي جاءت في نصها: "وإذا برجل لقيني أحمر غليظ، حاف كأنه من رجال قليعة"[4] وهي

[1] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص55.

[2] نفسه، ص 55.

[3] الشريف المليتي المديوني التلمساني (ابن مريم)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 32.

[4] محمد أبوراس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص53.

الكرامة التي أبانت عن قدرة الشيخ في كشف ومعرفة الجن من الإنس حيث شبه الرجل الذي كان في أصله عفريت بواحد من رجال قليعة واستخدم لذلك الحرف المشبه بالفعل (كأن) واستطاع من خلال هذا الشبيه تكييف القصة نحو المعنى المراد من خلال تصويره لما يريد ايصاله من حديث وإثباته من معنى.

نجد أيضا الصورة التشبيهية في كرامة سيدي الحسن بن مخلوف بن سعود بن سعد المزيلي الراشدي أبو علي الشهير بأبركان حيث قال: "فأطرق الأسد برأسه إلى الأرض كالمستحي ثم قام ومضى"[1] حيث شبه الأسد بمن يملك صفة الحياء وهو الإنسان طبعا حتى يبين مدى تأثير هؤلاء الأولياء حتى على الحيوانات وهو تشبيه تمثيلي شبه فيه صورة الأسد بالمستحي أما عن أثره فقد ساهم في توضيح الصورة أكثر وتقريبها إلى ذهن القارئ كما أكد على صحة الفكرة وأثبتها.

ونختتم الصورة التشبيهية بما ورد في كرامة سيدي محمد بن عمر الهواري التي جاء في نصها: "أن السلطان أبا فارس عزوز بن السلطان أبي العباس أحمد الحفصي الملك العادل الذي قال فيه ابن عرفة إنه كعمر ابن عبد العزيز" وفيه تشبيه للسلطان بأحد الخلفاء المعروف بحكمته وعدله وحنكته ورغم ذلك فلم يمنع الشيخ من تحقيق ما يريد من خوارق تجاه هذا السلطان وقد ساهم هذا التشبيه في إثارة النفس نحو التعلق بمن تتحقق فيه هذه الأوصاف التي تطمئن إليها الروح حين وصف السلطان وشبه بالخليفة عمر بن عبد العزيز.

ومن خلال النماذج السابقة نجد أن العلاقة قائمة بين المشبه والمشبه به، كما أن وجود هذه العلاقة يتناسب مع الإدراك والفهم بالنسبة لقارئ هذه القصص فتجدنا أحيانا نتخيل الصورة التشبيهية وكأننا نراها بالعين المجردة، وأحيانا أخرى ندركها بالعقل الفطري، وفي كل الحالات تقترب هذه الصورة من الفهم وتستقر في المخيلة وهو بالضبط المقصود من

[1] الشريف المليتي المديوني التلمساني (ابن مريم)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 74.

توظيفها في هذه القصص وفيها تأكيد على أن هذه النصوص تحتوي على قيم جمالية وفنية أثرت إيجابا على المعنى العام للقصة.

ب- الصورة الاستعارية:

القدرة على تنويع المعنى، وتكثيف الدلالة، وتطويع الفسحة الجمالية جعلت من الاستعارة أكثر الصور استخداما من قبل المبدعين في نصوصهم شعرا كانت أم نثرا، ولهذا نجد الكاتب الجزائري يلجأ إليها في كتاباته السردية خاصة إذا تعلق الأمر بالجانب التجريبي الذي جعل من هذه الأدوات أرضية ليخلق منها صورا جديدة تنبثق من رحم هذه الصور الرئيسة التي ساهمت في إثراء المتن دلاليا وجماليا.

ولا تكاد تخلو النصوص السردية في قصص الكرامات المروية إبان العهد العثماني على اختلاف أنماطها من هذا النوع من الصور التي تنقلنا من العالم الحقيقي إلى المجازي القائم على المشابهة، فتقريبا كل النصوص السردية تكاد تكون لوحات فنية استعارية مليئة بذلك الزخم الإيحائي المكثف والغرض من ذلك كما يرى "جميل حمداوي" هو: "الأنسنة والإحيائية، وخلق الديناميكية الحيوية في المستعار له، بنقله من حالة السكون إلى حالة من الحركة والنماء والتدفق"[1].

ويعرفها "السيد أحمد الهاشمي" بقوله: "هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي، والاستعارة ليست إلا تشبيها مختصرا لكنها أبلغ منه"[2].

[1] جميل حمداوي، بلاغة الصورة السردية في القصة القصيرة جدا مجموعة (ندوب) لميمون حرش نموذجا، شبكة الألوكة، www.Alukah.net

[2] السيد أحمد الهامشي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار ابن خلدون، الإسكندرية، مصر، د ط، دت، ص239. نقلا عن: بوديسة بولنوار، الخطاب الشعري المغربي من خلال كتاب: أنموذجا الزمان في شعراء القيروان،

أو نقول: هي مجاز لغوي علاقته المشابهة.

ومن زاوية التشبيه: هي تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه.

وفي الاصطلاح البيانيين –هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي. والاستعارة ليست إلا تشبيها مختصرا؛ لكنها أبلغ منه"[1].

والاستعارة المكنية أكثر تجسيدا وتشخيصا للمعنى وتوضيحا في إعمال العقل واجتهاده من التصريحية، وقد عدت من قبل العديد أجمل استعارة وأحسنها.

ويتقدم التشبيه على الاستعارة في الدراسات البلاغية، ذلك لأن دلالته صريحة على التشبيه، في حين يكون التشبيه في الاستعارة ضمنيا، وذلك من خلال حذف المشبه وأداة التشبيه[2].

ونجد أن الاستعارة من بين الصور التي وظفت وبشكل كبير في قصص الكرامات نظرا لما لها من قيمة فنية وجمالية داخل النص إضافة إلى بعض الخصائص الأخرى التي سنكتشفها من خلال ما يلي من نماذج:

– نجد الاستعارة في كرامة سيدي أحمد بن حسن الغماري والتي ذكر فيها: "ويدور على الناس في السوق يسقيهم الماء"[3] وهي استعارة مكنية وتعتبر أكثر الأنواع استخداما على

مخطوط مذكرة مجاستير في الأدب العربي، تخصص أدب مغربي قديم، إشراف: كمال عجالي، جامعة الحاج لخضر – باتنة– 1429هـ–1430هـ/ 2008م–2009م، ص 174،

[1] السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار ابن خلدون، اسكندرية، د ت، ص239.

[2] عبد الحميد القط، دراسات في النقد والبلاغة، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1980، ص22.

[3] الشريف المليتي المديوني التلمساني (ابن مريم)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 32.

الإطلاق حيث شبه الناس بالأشجار أو الأعشاب التي تسقى وحذف المشبه به وترك قرينة دالة عليه (يسقيهم) وأراد من خلال ذلك أن يبين مدى اهتمامه بتوفير الماء للناس خاصة وأن الجو حار جدا وقد أعطت هذه الصورة المعنى الكثير بلفظ بسيط يسير وهذا سر جمالها.

وقد وردت أيضا في كرامة الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الملياني وجاء في نصها: "فأرى الأب لابنه الكعبة تلعب بأستارها"[1] حيث شبه الكعبة بالإنسان الذي يلعب بالستائر وحذف المشبه به، وقد ساهمت هذه الصورة في تشخيص المعنى وتقريبه أكثر لذهن القارئ.

كما نجد الصورة الاستعارية في كرامة أخرى لسيدي أحمد بن حسن الغماري والتي تمكن فيها من طي الأرض والطيران لمسافات طويلة حين قال: "طار عني الجوع ورجعت لي قوتي"[2] حيث شبه الجوع بالطائر الذي يحلق في السماء وهو بذلك أراد أن يوصل فكرة وهي أن كرامة قد تحققت بمجرد أكله لتميرات قليلة وقد استطاع ذلك، كما أن هذه الصورة قربت المعنى أكثر وزادته بروزا من ذي قبل كما استطاعت أن تشغل ذهن القارئ بالبحث في تلك الصورة طيران الجوع من نفس الإنسان، وهو ما جعلها صورة تستحق الدراسة فعلا.

وفي الكرامة نفسها نجد أيضا قوله: "فصرنا نطير ساعة وتطوى لنا الأرض ساعة"[3] وفيها شبه الأرض بالورق الذي يطوى حتى نتمكن من تخيلها في تلك الصورة وهي إحدى كرامات الشيخ، ضف إلى ذلك أن هذه الصورة ساهمت وبشكل واضح في تقريب المعنى وإبرازه بشكل كبير جدا وملفت للنظر.

---

[1] الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص 75.

[2] الشريف المليتي المديوني التلمساني (ابن مريم)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 35.

[3] نفسه، ص35.

وللصورة الاستعارية حضور أيضا في كرامة الشيخ محمد التواتي التي ورد فيها: "وأنه حين توفي الشيخ سقطت المدينة في أيدي العدو"[1]

حيث شبه المدينة بالشيء الذي يسقط من مكان مرتفع كالحجر مثلا ليبين وقوع المدينة تحت وطأة الاستعمار والاستيلاء عليها وبتوظيفه للفظة السقوط ساهمت هذه الأخيرة في توسيع الفكرة لدى القارئ.

كما نجد أن الاستعارة قد وردت أيضا في كرامة سيدي محمد بن عمر الهواري وجاء في نصها: "قد زحف عن تونس بجنود عظام"[2] وقد شبه فيها الجنود بأحد الزواحف المعروفة بقوتها وفتكها لفرسيتها وترك قرينة دالة على ذلك وهي (الزحف) والمراد من هذه الصورة تبيان مدى قوة الجنود وكبر عددهم حتى لكأنهم يزحفون ببطئ نحو هدفهم وقد ساهمت هذه الصورة في تشخيص المعنى وتجسيده وتقريبه أكثر وهو سر بلاغتها وجمالها.

وعليه فالاستعارة من الصور البيانية الأكثر استخداما في النصوص النثرية السردية، وقصص الكرامات التي بين أيدينا من بين النصوص التي وظفت فيها بطريقة حسنة لكثرة أساليب البلاغة، وتمام بيان المعنى بها، كما أنها صفة من صفات البلاغة وفصاحة التعبير، وهي قد أعطت لنا معنى كثيرا بلفظ يسير وجسدت ذلك المعنى وبثت الحياة في الجماد.

ج- الصورة الكنائية:

تأتي الصورة الكنائية من حيث التوظيف في المرتبة الثالثة، ذلك أن النص السردي في الغالب يعتمد على الوصف والاستعارة والتشبيه أكثر من غيرها، وهو بذلك يجعل من

[1] أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري (16-20م)، ص 466.

[2] الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص 70.

المتن أكثر خصوبة وجمالا، وتتعددا للمعاني، حيث يتحول النص من مجرد ناقل للمعاني إلى فضاء لالتقاء مختلف الأجناس والرؤى والصياغات.

والكناية من الصور التي يصعب الاتفاق حول تعريف إجرائي لها، شامل وثابت شأنها شأن باقي المفاهيم الأخرى ذلك أن المتحدث يريد إيصال معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يلجأ إلى معنى آخر، مع جواز إرادة المعنى الحقيقي.

يعرفها "بكر شيخ أمين" بقوله: "هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى مشترك بينهما بإحدى أدوات التشبيه المذكورة أو المقدرة المفهومة من سياق الكلام"[1].

وهي التصوير لأبرز المواقف، قصد توضيح المعنى بشكل دقيق ومختصر.

وتعرف أيضا الكناية بأنها لفظ يراد به غير معناها الأصلي، دون أن يمنع ذلك من إرادة المعنى الأصلي.

وهي أيضا"- لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع قرينه لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي.

نصل إلى أنه في الكناية "يصح إرادة المعنى الأول للعبارة، كما يصح إرادة المعنى الثاني أي يصبح أخذ العبارة على ظاهرها، أو أخذ المعنى الثاني لها"[2].

ورغم أن توظيف الكناية في قصص الكرامات لا يكون بحجم توظيف الاستعارة أو التشبيه إلا أن لها حضور في الكثير من هذه القصص ونجد ذلك مثلا في: كرامة أحمد بن سعيد العفيفي والتي ورد فيه: "حيث فاق أهل صنعته"[3] وهي كناية عن صفة التفوق والتميز

[1] بكر شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم البيان، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص15.
[2] عبد الحميد القط، دراسات في النقد والبلاغة، ص171.
[3] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص55.

التي يتمتع بها الشيخ عن بقية أقرانه أما عن الخاصية التي تميزت بها هذه الصورة فقد أكدت الصفة على الشيء وهي صفة التميز بوجود دليل ثابت وهو أن الشيخ قد فاق أقرانه في استخدام المزمار أثناء الأعراس، وهنا يكمن سر بلاغتها.

ونجد الكناية قد وردت أيضا في كرامة سيدي محمد بن عمر الهواري، وجاء في نصها "فقام من مجلسه مغاضبا وقد اسود وجهه"[1] وهي أيضا كناية عن صفة الغضب والقلق الكبيرين اللذين ألما بالشيخ نتيجة أخذ المال من أصحابه من طرف بعض طغاة الأعراب، وقد ساهمت هذه الصورة في توضيح المعنى وتأكيده كما أكدت على صفة الغضب لدى الشيخ.

وللكناية أيضا حضور في كرامة سيدي أحمد بن يوسف الملياني والتي جاء فيها: "قد أعطاه الله الدنيا والآخرة"[2] وهي كناية عن موصوف وهو كثرة المال في الدنيا والجنة في الآخرة وقد أظفت هذه الكناية على النص خاصية الإيجاز أي الاعتماد على الكلام المختصر لإيصال المعنى المراد وهو الذي كان من خلال هذه الصورة وهذا هو سر بلاغتها.

كما وردت الصورة الكنائية كذلك في كرامة الشيخ السنوسي وجاء فيها: "إلى يوم يبعثون"[3] وهي الأخرى كناية عن موصوف وهو يوم القيامة، وفيها استخدم للمعجم القرآني الذي ساهم بشكل واضح في تقوية المعنى وزيادة وضوحه وتأكيده كما أن هذه الصورة أبانت عن خاصية الاختصار والإيجاز في الكلام والعمق في المعنى والدلالة.

---

[1] الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص 69.

[2] الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص75.

[3] الشريف المليتي المديوني التلمساني (ابن مريم)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 75.

ونختم الصورة الكنائية، من كرامة سيدي أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي وجاء فيها: "فإذا هو فيه مشهدة لم ير الراوون مثلها ولا طيبتها امرأة في الدنيا" وهي كناية عن صفة الإتقان والأحكام في الطبخ والجودة والصنعة وقد أحسن توظيفها بحيث ساهمت بشكل كبير في توضيح المعنى المقصود وإبرازه كما زادت النص جمالا وقيمة فنية أكثر من ذي قبل.

كانت هذه بعض النماذج عن الصورة الكنائية في قصص الكرامات خلال التواجد العثماني بالجزائر ونلاحظ أن هذه الصورة لها من الجمال ما جعلها تتواجد وبكثرة في مختلف النصوص ولعل الإتيان بالمعنى مصحوبا بالدليل عليه في إيجاز وتجسيم وتأكيدها للصفة على الشيء سر جمالها.

د- الصورة الحسية:

اعتنى النقاد والبلاغيون القدامى منهم والمحدثين بالصورة الحسية، باعتبارها وسيلة التعبير الأولى، التي يلجأ إليها الشاعر للإفصاح عما يجول في خاطره، إذ عن طريقها يستطيع الأديب تقديم صورة صادقة لواقعه النفسي الداخلي، وواقعه الخارجي المحيط به.

وتعرف الصورة الحسية بأنها ذلك "التعبير عن تجربة حسية نقلت عن طريق البصر أو السمع أو الشم أو اللمس أو الذوق"[1]، فالحواس هي الوسيط الأول بين الإنسان ومحيطه الخارجي والحواس خمس في العرف العام، وهي البصر والسمع والشم والذوق واللمس، وتسمى الحواس الظاهرة.

ونظرا لأهمية الحواس وقيمتها في الحياة اليومية، فقد أجمع جل الدارسين وعلى اختلاف وجهاتهم وتعدد مذاهبهم بأن "مفتاح المعرفة هو الاختبار الحسي، في تلمس الأشياء

[1] كامل حسن البصير، بيان الصورة الفنية في البيان العربي، المجتمع العلمي العراقي، بغداد، العراق، د ط، 1987، ص125.

وتذوقها وشمها، وفي تبصر الأبعاد والأشكال والألوان وفي سماع الأصوات"[1]، وهذا إن دل على شيء إنما دل على أن الإنسان يميل إلى ما سبيله الحس، فما كان معروفا وشائعا عن الإنسان في الفكر القديم أنه لا يؤمن بالشيء إلا إذا كان حسيا ملموسا.

ومن هذا المنطلق حاولنا توظيف الصورة الحسية كأحد الخصائص الأسلوبية الهامة في دراستنا لقصص الكرامات التي وجدنا بأنها تحتوي على العديد من هذه الصور والتي سنوجزها فيما يلي من عناصر.

*** الصورة البصرية:**

من بين الحواس البشرية الأكثر تعاملا مع الواقع وتفاعلا مع العناصر المحيطة البصر. "فالعين أسبق الحواس إلى إدراك الواقع"[2]، لأن لها من السمات ما ليس لغيرها من الحواس الأخرى فهي أول من يبصر هذا الواقع بكل خلفياتها وأبعاده، وعن طريقها يكون الاحتكاك مباشرة بموضوع التجربة[3] ومن خلالها نتصوره ونفهم ما فيه. ودور الأديب هو إعادة صياغة هذا الواقع على شكل صور تختلف من حيث التشكيل والجمالية، فقد تكون هناك صور غاية في القبح تنفر منها الحواس ولا تستسيغها ولكن المبدع لما له من حس خلاق وقدرة فائقة يعمل على تزيين هذه الصور وتحسينها حتى لا تبدو غاية في الروعة والجمال بعدما كنا نستمجها.

---

[1] يوسف م عيد، الحواسية في الأشعار الأندلسية، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، د ط، 2003، ص8.

[2] عصام لطفي صباح، الصورة الفنية في شعر الواواء الدمشقي، مخطوط مذكرة ماجستير في تخصص اللغة العربية وآدابها، إشراف: عبد الرؤوف زهدي، جامعة الشرق الأوسط، 2011م، ص132.

[3] وحيد صبحي كبابه، الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص92. www.awu-dam.com

وبطبيعة الحال هناك ما يشد انتباه العين كالألوان والأشكال، والكتاب على وعي تام بهذه الأمور لذا نجدهم يركزون في كتاباتهم على انتقاء الأشكال والألوان بعناية لأن كل ما يقومون باختياره له دلاله وغاية معينة.

وفي النصوص التي توفرت عندنا لاحظنا توظيف بعض الأفعال (رأي، أبصر، صوّر...) لرسم الصورة الحسية البصرية، وهو ما وجدناه في كرامة سيدي أحمد بن سعيد العفيفي وجاء في نصها: "والناس يظنون أنه هو الذي يرقص ويشطح"[1] وقد ساعدت هذه الصورة في وصف ما رأت العين وما أثار به المشهد المرئي من أحاسيس عند الناس الحاضرين، وهو ما ساهم في جذبهم والتأثير عليهم.

ومن الصور البصرية أيضا والتي تميزت بالحضور الكبير في قصص الكرامات الصورة الغريبة عما ألفه الناس، ونجد ذلك مثلا في كرامة سيدي أحمد بن حسن الغماري وقد ورد فيها: "فلما دخلت قدمت رجلي للدخول فبقيت معلقة"[2] وهي صورة تبين عقاب من أراد التجسس على الشيخ سيدي أحمد ببقاء رجله معلقه وهي صوره تظهر الهيئات وكل ما يدرك بالبصر، وما كان من صاحبها إلا رسم هذه الصورة ليصف من خلالها لحظات بقاء رجله معلقة وخوفه الكبير من ذلك الأمر، وهو ما دفع إلى التصديق بأن الشيخ من أصحاب الكرامات فعلا.

ومن كراماته نجد أيضا الصور البصرية المتحركة والتي تبرز في النص بمزج أفعال البصر مع أفعال الحركة وذلك في قوله: "فرد الناس إليه بالهم فرأوا ذلك الإبريق ينبع من قعره ماء" وقد أكسبت هذه الصورة المشاهد درجة من الاحتكاك بالمعنى ومدت المعنى حيوية

[1] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص56.

[2] الشريف المليتي المديوني التلمساني (ابن مريم)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 34.

أكثر فساهم ذلك في تعبيره عن المشهد الذي رآه حين خروج المياه بشكل كبير وهو ما أكد كرامته.

والملاحظ هنا تداخل الصورة البصرية مع المجاز العقلي من خلال إسناد فعل (ينبع) للإبريق الشيء الذي أضفى نوعا من الاستعارة أيضا حين شبه الإبريق بالمنبع الغزير، وهو ما منح النص كثافة وعمقا في المعنى أكثر بما يضفيه الفعل من حركية في نفس المشاهد.

ومن الصور البصرية أيضا ما ورد في كرامة سيدي محمد بن عمر الهواري وجاء في نصها: "وفي الوقت قام الظالم يلعب في عرس والناس ينظرون إليه تفرسا"[1] وما يميز هذا النوع من الصور هو لفت الانتباه للحاضرين لمصير الظالم الذي لا يسمع الكلام ولا يأخذ بالرأي الصواب ممن هو أدرى وأحكم منه، من خلال توظيف الأفعال الدالة على النصيحة مع أفعال الصورة (حذرتك، ينظرون).

ومنها أيضا ما ورد في كرامة سيدي يحي العيدلي التي استطاع من خلالها إرجاع الروح للحيوان بعد موته وجاء فيها: "فلما شاهدوا منه ذلك خضعوا له وتواضعوا وذلوا واستكانوا وظهر أمر الشيخ ظهورا بينا"[2] وفيها أيضا مزاوجة بين أفعال البصر (شاهدوا) وأفعال التأكد من الكرامة (ظهر) وكلها تدعم إيمان هؤلاء بوجود الأولياء وقدرتهم على تحقيق ما عجز عنه الكثيرون من خوارق.

أما في الصورة البصرية الملونة فقد وظفت هي الأخرى في بعض قصص الكرامات ونأخذ على سبيل المثال كرامة سيدي أحمد بن حسن الغماري وجاء فيها: "وقد جزنا على

[1] الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص 69.

[2] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص587.

مصر بالليل ونحن في الهواء وهي تحتنا مملوءة بالمصابيح"[1] وذكر فيها الألوان من خلال حديثه عن المصابيح والأضواء حين وصف مدينة مصر وهو ينظر إليها من الأعلى.

ويمكن القول: إن حاسة البصر من أهم الحواس على الإطلاق فهي تسهم في تصوير أدق تفاصيل المحيط الخارجي مما يساعد على الإلمام بالموضوع أكثر وبالتالي وصول الفكرة بشكل أحسن.

***الصورة السمعية (الصوتية):**

وتأتي في المرتبة الثانية بعد حاسة البصر من حيث الأهمية والقيمة الجمالية، وهما معا يفضلان الحواس الأخرى من حيث القيمة العقلية والثقافية[2].

وتبدو في النص من خلال ذكر الأفعال الدالة على التكلم أوالاستماع مثل (نادى، قال، سمع) أو الألفاظ الدالة على ذكر الأصوات المرتفعة أو المنخفضة.

ومن الصور السمعية نجد ما جاء في كرامة سيدي أحمد الشريف الورتيلاني حيث قال: "فمكث غير بعيد وناداه مرة أخرى فأجابه"[3] وقد وظفت حسب متطلبات القصة، ومن المعطيات ما تتطلب صورة سمعية صاخبة مثلما حدث هنا حين نادى سيدي محمد الشيخ ولم يجبه للمرة الأولى مع استدعى رفع الصوت نوعا ما لإيصال حزنه للشيخ.

ومنها ما جاء على صيغة الخطاب للتحذير من أمر ما أو التوجيه وهو ما نجده في كرامته سيدي محمد بن عمر الهواري وجاء فيها: "وخاطبت ولدها الميت خطاب اليوم: يا

---

[1] الشريف المليني المديوني التلمساني (ابن مريم)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 35.

[2] وحيد صبحي كبابه، الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس، ص 127. نقلا عن: يوسف مراد، مبادئ علم النفس العام، دار المعارف، القاهرة، ط7، 1987، ص68.

[3] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص58.

ولدي حذرتك دعوة الشيخ فأبيت فلا حلية فيك اليوم"[1] ونلمس فيها أيضا نبرة حزن على عدم تلبية دعوة الشيخ وهو ما أدى إلى هلاك الولد، وقد ساهمت هنا الصورة السمعية أيضا في إبراز مكانة الولي الصالح الشيخ سيدي محمد بن عمر الهواري والمشهد هنا فيه نوع من إعلاء الصوت علّ الشيخ يترفق بأمرها ويمنحها شيئا من الأمل لعوده ابنها.

كما نجد نبرة الصراخ وإعلاء الصوت كذلك في كرامة سيدي الجودي بن الحاج وفيها: "فلما علموا بأمري صار الصياح والنداء من ورائي إلى أن وصل الجميع إلى محلي"[2] فقد ذكر في هذا المشهد الصوت المرتفع للجنود وهم يبحثون عنه وفيه أيضا توظيف للصورة السمعية التي ترسم لنا دائما الأحداث بشكل أكثر دقه وجمالا.

وكغيرها من الصور الحسية الأخرى نجد أن الصورة السمعية أيضا فيها توظيف للمعجم القرآني وذلك في كرامة سيدي الحسن بن مخلوف بن سعود بن سعد المزيلي وقال فيها: "فقال له تبارك الله أحسن الخالقين ثلاثا"[3]، وقد بينت لنا هذه الصورة مدى الارتباط الوثيق للشيخ بالقرآن والسنة والألفاظ القرآنية وهو حال الأولياء الصالحين أجمعين، كما أن استخدام الألفاظ القرآنية يساهم في توضيح المعنى وتقوية أكثر وزيادته جمالا على جماله.

*** الصورة الذوقية:**

الذوق حاسة موحدة لها خصائص وسمات تتوفر عند كل إنسان طبيعي لا يشكو خللا وهو يؤثر في حس الإنسان بالكون. ويشمل أيضا الأثر الذي يخلفه ذلك الطعم في أنفسنا.

---

[1] الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص 69.

[2] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص106.

[3] الشريف المليتي المديوني التلمساني (ابن مريم)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 74.

وقد تكرر توظيف حاسة الذوق في بعض قصص الكرامات ولو أنها لم تكن بحجم الحواس الأخرى إلا أن حضورها كان له من الأثر الكثير في الجانب الفني للقصة، وفيما يلي بعض النماذج عن الصورة الذوقية.

نجدها مثلا في كرامة سيدي أحمد بن حسن الغماري وجاء في نصها: "فأخرج لي أحدهما تميرات فبنفس ما أكلت طار عني الجوع"[1] ونلمسها من خلال ذكر بعض الأفعال مثل (أكلت) واستخدمت الصورة الذوقية هنا للدلالة على التلذذ بطعم حبات التمر التي أعطته من القوة الكثير وهو دليل على الكرامة.

كما نجد الصورة الذوقية أيضا في كرامة سيدي إبراهيم بن محمد المصمودي التلمساني وذكر فيها الطعام حين قال: "وذكر لي غير واحد ممن يهدى له طعاما من لبن وغيره" ولكن ذكر اللبن هنا لم يكن بقصد إحتسائه وإنما للتعبير عن حاجته إلى معرفة ما يفكر فيه الشيخ وفقط، وما لبث أن جاءته الإجابة من طرف الشيخ، أي أن الصورة الذوقية قد توظف بغرض التذوق في حد ذاته أو لأغراض أخرى مختلفة حسب السياق العام للقصة.

وقد تأتي الصورة الذوقية في بعض قصص الكرامات لا للتلذذ بالطعم أو للأكل أو الشرب وإنما لإبراز كرامة الشيخ كما حدث في كرامة سيدي أحمد بن يوسف الملياني وجاء فيها: "واقتصر هو على أن يذوق فكل لون قبل أن يفوته لأصحابه"[2] وقد وظف في هذه القصة الفعل الدال على التذوق لإبراز قدرته وكرامته وكذا لتجسيم بعض المعاني وإدراكها بوساطة حاسة التذوق، وهو ما خلق صورة جميلة التقى فيها الذوق مع الكرامة والفعل الخارق للنماء والبركة ما زاد النص قوة وفنية.

[1] نفسه، ص35.

[2] صادق محمد الحاج، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف –دراسة خاصة بمدينة متوسطة في الجزائر، ص94.

خاتمة

لقد وصلت الدراسة إلى جملة من النتائج التي حاولنا من خلالها جاهدين أن نبرز جانبا مهما من تاريخنا الثقافي العربي وبالضبط الجزائري خلال حقبة زمنية قيل عنها الكثير من حيث الضعف في الجانب الأدبي واخترنا لذلك فنين نثريين أحدهما غير سردي (الرسائل) والثاني قصصي (الكرامات) وهما اللذان عرفا انتشارا واسعا آنذاك واكتشفنا من خلالهما أن الجانب الثقافي لم يكن فعلا كما هو مروج له بل بالعكس احتل مكانة أفضل بكثير من العديد من المجالات الأخرى، ودليلنا في ذلك الانتشار الواسع الكبير لدور العلم كالكتاتيب والزوايا التي سعت جاهدة للحفاظ على وحدة المجتمع، ولعل الأمر الذي يحتاج منا إلى التنويه هو الدور الفعال الذي لعبه العثمانيون في حماية السواحل الجزائرية من الأخطار المحدقة بها كما ساهموا في أحيان كثيرة في دعم الجانب الثقافي أو لنقل على الأقل لم يسعوا إلى تحطيمه كما فعل الفرنسيون من بعدهم ولم يحاربوا المقومات الجزائرية من عادات وتقاليد....

لقد حاولنا من خلال بحثنا هذا إحياء الموروث الثقافي في هذه الفترة الهامة جدا من تاريخ الجزائر في وقت لاحظنا فيه أن جل البحوث والدراسات اتجهت إلى الأدب الحديث عربيا كان أم أجنبيا، فبعد التطرق إلى الحياة الاجتماعية والثقافية العثمانية بالجزائر من خلال الفنين النثريين السابقين خلص البحث إلى مجموعة من النتائج نوجزها في الآتي:

1- كانت الحياة الثقافية بصفة عامة خلال الوجود العثماني بالجزائر تحظى ببعض الاهتمام من الطرفين عكس ما روّج لها من لامبالاة إضافة إلى تخصيص أماكن خاصة بالعلم والتعلم كالزوايا والمكتبات...

2- احتلت الرسائل مكانة كبيرة جدا بين المتراسلين (العثمانيين والجزائريين) ولعبت دورا هاما في التواصل بين الطرفين وأبانت عن قدرة كبيرة في الكتابة وعن أسلوب جميل زاخر بالبيان والبديع.

3- تنوعت الرسائل بين ديوانية كانت تحمل طابع الرسمية والجدية وإخوانية ثارت فيها العواطف والمشاعر.

4-الألفاظ الموظفة في الرسائل العثمانية الجزائرية معظمها سهلة واضحة وبسيطة لكنها تحمل معان عميقة وأفكار قيمة وبأسلوب شيق.

5- تطرق كتاب الرسائل إلى موضوعات عديدة اختلفت باختلاف الفكرة المراد إيصالها فتارة نجد الرسائل التي تحمل بين أسطرها الشوق والحنين أو العتاب واللوم، وتارة أخرى نجدها تتحدث في أمور الرعية وتحرص على التقيد بما يخدم الصالح العام.

6- تتميز الرسائل بمجموعة من الخصائص الفنية كالهيكلة والتي تتكون من عناصر ثابتة وأخرى متغيرة وهذا ما يدل على أن هذا الفن لم يكن في متناول الجميع وإنما يحتاج إلى فئة خاصة تمتلك من القدرة ما يؤهلها على إنشاء الرسائل.

7- كان لتوظيف السجع حصة الأسد من الرسائل وهو أمر طبيعي بحكم هذا المحسن البديعي يضفي جرسا موسيقيا جميلا ترتاح له الأذن عند سماعه وقد استطاع كتاب الرسائل في هذه المرحلة استخدامه بطريقة جيدة ساهمت في إبراز الجانب الفني والجمالي للرسالة.

8- تميزت الرسائل في جملها بين الإيجاز والإطناب وهي خاصية قلما توافرت في فن نثري.

9- وظف أيضا كتاب الرسائل المعجم القرآني من خلال الاقتباس من القرآن الكريم في جل رسائلهم وهو ما زاد المعنى قوة وتأثيرا في القارئ وإقناعا له.

10- تباين التصوير الفني بين صور بلاغية تقليدية كالتشبيه والاستعارة والكناية وصور حسية كالبصرية والسمعية، وهو ما زاد هذه الرسائل قدرة على إيصال الفكرة المرادة وتبلغ الأهداف.

11- من نتائج هذا البحث أيضا وصولنا إلى العوامل التي ساعدت على ظهور الكرامة كفن والقدرة على التمييز إن كانت حقيقة أو أسطورة أو حكاية شعبية.

12- كان للشيوخ والأولياء الصالحين الحظ الأوفر في قصص الكرامات بحكم أنهم الشخصية الرئيسية التي تدور حولها القصة، ولا تخلوا أي منها من عنصر الغرابة والمفاجأة والقدرة العجيبة.

13- تنوعت موضوعات الكرامات بطريقة تثير في القارئ الرغبة على الإطلاع أكثر ومعرفة السر في هذه القوة التي لا يمتلكها إلا أناس معينون.

14- عنصر الطبيعة الحاضر الأكبر في قصص الكرامات من خلال الوصف الجميل والدقيق للبيئة المكانية التي كانت غالبا ريفا أو قرية يمتاز أهلها بالفقر والبساطة والإيمان الكبير بالأولياء الصالحين.

15- بروز ظاهرة التصوف بقوة خلال تلك الفترة التي أسهمت كثيرا في انتشار فن الكرامة والارتباط الوثيق بين الجانب الديني للأولياء والقدرات التي يتمتعون بها لإنقاذ الناس وتخليصهم من أعباء الحياة.

16- تميزت قصص الكرامات أيضا بخصائص فنية كبنية الكرامة مثلا من استفتاح ومتن حكائي وبيئة زمانية ومكانية وشخصيات ونهاية.

17- اختلفت نهايات الكرامات بحسب اختلاف الموضوع بين نهاية سعيدة ونهاية حزينة وأخرى غريبة جدا.

18- لا تخلوا قصص الكرامات في هذه المرحلة من وجود الزهاد أيضا والذين حاولوا أن يوقظوا الناس من غفلتهم وتعلقهم بالدنيا وتذكيرهم المستمر بالموت والآخرة وهو ما تجلى في سلوكات الأولياء والشيوخ.

19- استخدمت أيضا الجمل الفعلية والاسمية بكثرة في قصص الكرامات فالأولى دلت على التغير والاستمرارية والحركية في الفعل والموقف أما الثانية فكانت توظف للدلالة على الثبات والديمومة.

20- تميزت قصص الكرامات كغيرها من الفنون السردية بتصوير فني مقبول إلى حد بعيد فقد وظفت فيها الصور البلاغية من تشبيه واستعارة كما وظفت الصورة الحسية من خلال ذكر بعض الحواس كالبصر والذوق والسمع...

21- تميزت لغة الكرامات بانتشار ظاهرة التكرار والتي كانت لها دوافعها النفسية والفنية وقد لاحظناها في العديد من القصص ورغم ذلك فقد أكسبتها نوعا من الجمالية والإمتاع.

وعليه نصل إلى أن النثر الجزائري في العهد العثماني من خلال الفنين المذكورين (رسائل، كرامات) تميز بأصالته من حيث انتمائه للأدب العربي القديم واتباع قواعده، وفي الوقت نفسه امتاز بالجدة والإتقان من حيث الإتيان بمعان جديدة أملتها الظروف المحيطة، وهو ما لاحظناه من خلال اختيارنا لبعض النماذج سواء من الرسائل أو قصص الكرامات، أبانت عن قدرة لا بأس بها لكتابها، ومن ثمة يمكن القول أن النثر الجزائري آنذاك أدى دوره المنوط به كمحافظ على الأدب العربي عامة والجزائري بصفة أخص وقد اتسم بتعدد مواضيعه وغناها وتنوعها مبنى ومعنى.

وفي ختام هذا البحث نرجو أن نكون قد توصلنا إلى ما يفيد القارئ المهتم بتاريخ الجزائري الأدبي كما أنه لا يعدو أن يكون خلاصة جهد خالص حاولنا من خلاله أن نفتح الباب أمام أبحاث أخرى في هذا المجال ونتمنى أن نكون قد وفقنا ولو بالقليل في مسعانا هذا، والله عز وجل هو الموفق.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش

المصادر والمراجع:

1- أحمد بن هطال التلمساني، **رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري**، تح: محمد بن عبدالكريم الجزائري، عالم الكتب، القاهرة، 1969.

2- أحمد توفيق المدني، **محمد عثمان باشا، داي الجزائر 1766م-1791م، سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1986.

3- أحمد الهاشمي، **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، المكتبة التجارية الكبرى، ج1، مصر، ط27، 1969.

4- الآغا بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، ج1، 1990.

5- ابن البناء، **الروض المريع في صناعة البديع**، تحقيق رضوان بن شقرون، دار النثر المغربية الدار البيضاء، د ط، 1985.

6- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، ط1، 1998.

7- أبو القاسم سعد الله، **شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1986.

8- أبو القاسم سعد الله، **تجارب في الأدب والرحلة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، الجزائر، 1983.

9- آمنة بلعلى، **الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين**، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.

10- أمينة قراري، **مناهج دراسات الأدب الشعبي**، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط1، 2011.

11- بكر شيخ أمين، **البلاغة العربية في ثوبها الجديد علم البيان**، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984.
12- جابر عصفور، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992.
13- حسين علي محمد، **التحرير الأدبي دراسات نظرية ونماذج تطبيقية**، مكتبة العبيكان، الرياض، ط7، 2011.
14- الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، مطبعة سير فونتانة الشرقية، الجزائر، د.ط.ج2، 1906.
15- حميد الحمداني، **بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**، المركز الثقافي العربي، ط3، 2000.
16- خليل أحمد عمايرة، **في التحليل اللغوي**، مكتبة المنار، ط1، الأردن، 1987.
17- الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، د ط، 1986.
18- الزمخشري، **أساس البلاغة**، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج1، 1998.
19- سامي يوسف أبو زيد، **الأدب العثماني**، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2013.
20- سعيدوني ناصر الدين، **ورقات جزائرية**، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2000.
21- سناء شعلان، **السرد الغرائبي والعجائبي**، نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي، الأردن، د ط، 2007.
22- السيد أحمد الهامشي، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، دار ابن خلدون، الإسكندرية، مصر، د ط، دت.
23- شوقي ضيف، **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، دار المعارف، القاهرة، ط11، د ت.
24- الشريف المليني المديوني التلمساني(ابن مريم)، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، ط2، الجزائر، 1908.

25- شكري محمد عياد، **اللغة والإبداع**، مبادئ علم الأسلوب العربي، مؤسسة أنترناشيول، ط1، بيروت، 1988.

26- شكري محمد عياد، **مدخل إلى علم الأسلوب**، دار المريخ للنشر، ط1، الرياض، 1982.

27- صادق محمد الحاج، **مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف** - دراسة خاصة بمدينة متوسطة في الجزائر-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، د.ت.

28- ابن صعد الأنصاري التلمساني الشيخ محمد، **روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**، تحقيق يحيى بوعزيز، الجزائر، ط1، 2002.

29- صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، دار نوبار للطباعة، ط1، القاهرة، 1986.

30- صلاح مؤيد العقبي، **الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر**، تاريخها ونشاطاتها، دار البصائر، ط2، 2009.

31- الطاهر محمد توات، **أدب الرسائل في المغرب العربي من القرنيين السابع والثامن**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1993.

32- عبد الله الركيبي، **تطور النثر الجزائري الحديث**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2009.

33- عبد الحميد بورايو، **القصص الشعبي في منطقة بسكرة**، دراسة ميدانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

34- عبد الحميد القط، **دراسات في النقد والبلاغة**، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1980.

35- عبد الرحمان ابن خلدون، **المقدمة**،مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د ط، 2001.

36- عبد الكريم الفكون، **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الاسلامي، لبنان، ط1، .1987

37- عبد القادر صحراوي، **الأولياء والتصوف في الجزائر خلال العهد العثماني 1520-1830م**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2016.

38- عبد القادر الرباعي، **الصورة الفنية في النقد الشعري**، دراسة في النظرية والتطبيق، دار العلوم للطباعة والنشر، الرباط، 1984.
39- عبد العزيز عتيق، **في النقد الأدبي**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1972.
40- عبد الهادي، الفكيكي، **الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر الغربي**، دار المنير للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1996.
41- عز الدين إسماعيل، **المكونات الأولى للثقافة العربية**، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، 1986.
42- علي البطل، **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري**، دراسة في أصولها وتطورها، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1981.
43- علي الجازم مصطفى أمين، **البلاغة الواضحة**، دار المعارف، القاهرة، ط15، د.ت.
44- علي علي صبح، **الصورة الأدبية تأريخ ونقد**، دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت.
45- عمر عروة، **النثر الفني أبرز فنونه وأعلامه**، دار القصبة للنشر، د ط، د ت.
46- فايز عبد النبي فلاح القيسي، **أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري**، دار البشير للنشر والتوزيع، ط1، 1989.
47- فوزي سعد علي، **الترسل في القرن الثالث الهجري**، دار المعرفة الجامعية، 1991.
48- قدامة بن جعفر، **نقد النثر**، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، 1980.
49- القلقشندي، **صبح الأعشى**، دار الكتب المصرية، ج1، القاهرة، د.ط، 1992.
50- قسوم عبد الرزاق، **عبد الرحمان الثعالبي والتصوف**، سلسلة الدراسات الكبرى، الشركة الجزائرية، للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت.
51- قصي الحسين، **الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني**، المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون، لبنان، ط1، 2006.
52- كامل حسن البصير، **بيان الصورة الفنية في البيان العربي**، المجتمع العلمي العراقي، بغداد، العراق، د ط، 1987.

53- لطيف زيتوني، **معجم مصطلحات نقد الرواية (عربي، إنجليزي، فرنسي)**، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار، للنشر، بيروت، ط1، 2002.

54- ماهر مهدي هلال، **جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقد عند العرب**، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980.

55- محمد أبو راس الناصري، **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته**، حياة أبو راس الذاتية والعلمية- حققه، الجزائري محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1990.

56- محمد الطمار، **تاريخ الأدب الجزائري**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 1981.

57- محمد خليل هراس، **شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام**، مطبعة دار الإفتاء، 1402هـ .

58- محمد فريد وجدي، **الإسلام في عصر العلم**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1967.

59- محمد محمد الغرباوي، **رسائل الفقهاء والزهاد ومواعظهم إلى الخلفاء الأمويين والعباسيين**، جامعة الأزهر، ط1، 2006.

60- محمد محمود أبو غدير، **توظيف الأسطورة في الرواية العبرية الحديثة**، إبداع، ع12 ديسمبر 1997.

61- محمود إحسان الهندي، **الحوليات الجزائرية تاريخ المؤسسات في الجزائر من العهد العثماني إلى عهد الثورة فالاستقلال**، دمشق، العربي للإعلان والنشر والطباعة والتوزيع، 1977.

62- مصطفى الصاوي الجويني، **البلاغة العربية تأصيل وتجديد**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1980.

63- مصطفى الزباخ، **فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين**، الدار العلمية للكتاب الدار البيضاء، الدار العلمية للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، د.ت.

64- الميلودي شغموم، **المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي الحكاية والبركة**، منشورات المجلس البلدي مكانس، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط1، 1991.
65- ناهضة ستار، **بنية السرد في القصص الصوفي**، اتحاد الكتاب العرب، ط1، مج 1، 2003.
66- نبيلة إبراهيم، **أشكال التعبير في الأدب الشعبي**، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة، د.ط، د ت.
67- يحيى بوعزيز، **المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780-1798م)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1993.
68- وسف سليمان الطحان، **السمات الأسلوبية في القصة القرآنية قصة إبراهيم عليه السلام أنموذجا**، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مج 10، ع3، الموصل العراق ، 2011.
69- يوسف م عيد، **الحواسية في الأشعار الأندلسية**، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، د ط، 2003.
70- يوسف مراد، **مبادئ علم النفس العام**، دار المعارف، القاهرة، ط7، 1987، ص68.

المترجمة:

71- أ.ف، تشيتشرين، **الأفكار والأسلوب**، ترجمة: حياة شرارة، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1978.
72- آ.ف بالمر، **علم الدلالة**، ترجمة: صبري إبراهيم السيد دار قطري ابن الفجاءة، قطر، 1986.

القواميس والمعاجم:

73- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، مج1، د ط، د ت.
74- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، مج2، د ط، 1956.
75- بطرس البستاني، **محيط المحيط**، قاموس مطول اللغة العربية، د ط، د ت.
76- عبد النور جبور، **المعجم الأدبي**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1984 .

77- كرم البستاني، **المنجد في اللغة العربية والأعلام**، دار المشرق، بيروت، ط20، 1983.

الرسائل الجامعية:

78- بوديسة بولنوار، **الخطاب الشعري المغربي من خلال كتاب: أنموذجا الزمان في شعراء القيروان**، مخطوط رسالة مجاستير في الأدب العربي، تخصص أدب مغربي قديم، إشراف: كمال عجالي، جامعة الحاج لخضر -باتنة- 1429هـ-1430هـ/ 2008م-2009م.

79- جمال سعادنه، **الشعر الجزائري في العهد العثماني**، موضوعاته وخصائصه الفنية، مخطوط دكتوراه في الأدب المغربي القديم، جامعة باتنة، كلية الآداب واللغات، الجزائر، 2010-2011.

80- حياة مستاري، **قصص الأولياء في الأوراس** منطقة كيمل نموذجا جمع ودراسة وتوثيق، مخطوط رسالة ماجستير في الأدب الشعبي الجزائري، جامعة باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، 2006، 2007.

81- سميرة بن جامع، **العجائي في المخيال السردي في ألف ليلة وليلة**، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة باتنة، قسم اللغة العربية وآدابها، 2009-2010.

82- صباح بعارسية، **حركة التصوفية الجزائر خلال القرن العاشر الهجري**، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2005، .2006

83- عبد القادر عواد، **العجابئي في الرواية العربية المعاصرة آليات السرد والتسلسل**، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، قسم اللغة العربية وآدابها، 2011-2012.

84- عصام لطفي صباح، **الصورة الفنية في شعر الواواء الدمشقي**، مخطوط رسالة ماجستير تخصص اللغة العربية وأدابها، إشراف: عبد الرؤوف زهدي، جامعة الشرق الأوسط، 2011م.

85- عفاف نورة، **بنية النص في جامع كرامات الأولياء**، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة تيزي وزو، مخطوط رسالة ماجستير، 2001/06/05.

86- فاطمة دخية، **الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني**، رسالة دكتوراه في الأدب الجزائري القديم، جامعة بسكرة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، 2014-2015.

87- فائزة زيتوني، **نصوص الكرامات في كتاب "البستان"** لإبن مريم الشريف مقاربة سيميائية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة ورقلة، مذكرة من متطلبات شهادة الماجستير، 2008/04/13.

88- مداني حرحيرة ، **الرمزية الصوفية في الأزمات الاجتماعية الكرامات وتمثلاتها في المغرب الأوسط ق10هـ/ق14هـ**، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية قسم الفلسفة، 2012-2013.

89- منصور درقاوي، **الموروث الثقافي العثماني بالجزائر ما بين القرنيين (10هـ-13هـ/16م-19م) بين التأثيروالتأثر**، مخطوط مذكرة ماجستير، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية قسم التاريخ وعلم الآثار، 2015.

90- ناصر بوصوري، **فن الترسل في العهد الرستمي مقاربة أسلوبية**، مذكرة ماجستير، أدب جزائري قديم، جامعة ورقلة، قسم اللغة العربية وآدابها، 2007.

91- عماد عبد يحيى، **البنى والدلالات في لغة القصص القرآني**، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1992.

المقالات:

92- طيب جاب الله، **دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري**، مجلة معارف، جامعة البويرة كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 14، 2013.

93- عامر علي، **الموروث السردي العربي القديم الماهية والخصائص**، المقامة أنموذجا، قسم اللغة والأدب العربي جامعة برج بوعريريج، اليوم الدراسي الوطني الثاني حول السرد العربي القديم: النص والثقافة، 2016/02/26.

94- محمد عبد البشير مسالتي، **السرد العربي القديم وآفات التأويل**، مجلة الآداب والعلوم الإجتماعية جامعة البلقان قابور، قسم اللغة والأدب العربي، لكلية الآداب واللغات، جامعة سطيف2، الجزائر، 2013.

95- مؤيد محمود حمد المشهداني، سلوان رشيد رمضان، **أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830**، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، م5، ع16، جامعة تكرت، 2013.

المواقع الالكترونية:

96-http//: www.nayassir.wordpress.com
97- www.easydns.hiabloy.com
98- www.awu-dam.com
99-www.Alukah.net
100- www.kissas.org
101- www.saaid.net.com
102- www.ahlalhdeeth.com
103- www.diwanalarab.com
104- www.arabicnadwab.com/articles/fantasia-handoui
105- www.alg17.com

الملاحق

- نماذج من الرسائل الديوانية.
- نماذج من الرسائل الإخوانية.
- أسماء لبعض الشخصيات التي كتبت واهتمت بفن الرسالة خلال العهد العثماني:
- نماذج عن المراسلات الجزائرية الإسبانية.

نماذج من الرسائل الديوانية

الرسالة الأولى: من يوسف باشا إلى الشيخ محمد ساسي البوني

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

من عبد الله، الموفق بالله، الغالب بعزته، أبي الجمال يوسف باشا، فتح الله له من أمكن التمكين ما شاء، إلى سيادة الفقيه الصالح الناصح الولي العارف بالله المخلص إليه السريرة، الدال على الله الداعي إليه على بصيرة، أبي عبد الله سيدي محمد ساسي قوى الله مدده، وأكثر حزبه وعدده، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته على الخير والعافية، والتوجه إلى الله تعالى في إصلاح خلل هذه الأمة بألسنة ضارعة وقلوب صافية، والتوسل في ذلك بجاه إمام حضرة الصفا، ومقدم أهل الاصطفاء ومخدوم من في الأرض والسماء والمنفرد من بين أهل الاختصاص بجلائل الأسماء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم بدعوات أمثالكم من الأولياء، ولخطاب أشباهكم من الأتقياء.

هذا والمراد إعلامكم أنا كنا أولا برمنا عقد العزم على الجهاد لوهران، واستخلاصها من أيدي حزب الشيطان، وإنقاذها من ورطة الكفر والضلال، وإنارتها بنور الإيمان والإسلام وصالح الأعمال، حتى عرض لنا ما حال بيننا وبين هذا الغرض وصد وجوه عزائمنا عن إزالة ذلك المرض، وهو ما لا يخفاكم من انحلال أمور المسلمين بذلك الصقع، وكثرة الخلاف والشنآن، وسائر أنواع الاختلال المذمومة بالشرع، الممجوجة بالطبع، وإندراس آثار الطاعة السلطانية التي هي طاعة الله، ومحو مراسمها وتشييد قواعد البغي والتسويلات الشيطانية وإيضاح معالمها، وتنكير المعارف وتعريف المنكرات، ورفع المخفوظات (كذا) وخفض المرفوعات.

فتركنا مكنون العزم الجهادي في صدفه، وأخرناه إلى أن يحل بدر ظهوره منازل سعوده وشرفه، ورأينا بصائب النظر، وما أوجبته صحائف الأثر، أن تقديم الأهم هو المحمود العواقب، المحصل لجميع المقاصد والمطالب.

فجردنا العزم بحسب ما اقتضاه الحزم بعد أعمال سنتي الاستخارة والاستشارة وإستنجاح قضايا الرياسة والإمارة، بأن نتوجه نحو قسنطينة ومن إليها، وبعدها إن شاء الله، بسكرة ومن لديها، لإمعان النظر في مصالح الرعايا، وإخماد نيران الفتنة ورفع البلايا وسماع الشكوى، والقضاء بما تحتويه أحكام التقوى وتوفيق الكلمة، وجمع الأمة المسلمة، وإظهار الحق ومحو الباطل، وتوقير العالم وإرشاد الجاهل، وتمهيد القواعد وتشييد المقاصد، وضبط الفوائد، وإصلاح الفاسد وتفقد أحوال الجباة (كذا)، والحكام والإت (كذا)، وإيضاح مصالح الهدي، وإعفاء مراسم الروي.

ورأينا أنه لا ينحي مع الله فيما قلدنا من أمور خلقه، إلا أن نباشر ذلك بأنفسنا طلبا لمرضاته وقياما بحقه، وكتبناكم بجمع هذا، رضي الله عنكم، لتعلموا حقيقة أمرنا، وتطلعوا على خيبة (كذا سرنا)، ولتخبروا من هنا لكم بالمرام، وما عولنا عليه من إصلاح أهل الإسلام[1] فلتخولوا، رضي الله عنكم، الخاصة والعامة بالذكرى والموعظة الحسنى، كدأب العلماء في طريقتهم المثلى، وسيرتهم المستحسنة، فإن الملة الإسلامية لا يستقيم دينها ودنياها، في قصوى مقاصدها ودنياها، إلا بسنان الولات (كذا) ولسان الهدات (كذا)، فردوا شاردهم إلى الله تعالى بالدعاء والدعوة، ولكم في نبيكم صلى الله عليه وسلم وأصحابه أسوة، وقد قاتل أبوا (كذا) أيوب الأنصاري تحت راية اليزيد وأمثاله من الأعيان وصلى عبد الله بن عمر خلف الحجاج، وبايع لابن مروان، وإنما فعلوا ذلك ليلا ينزعوا يدا من طاعة، أو يخرجوا قيد شبر من السنة والجماعة، ولا يشاقوا الله ورسوله لمنازعة سلطان، ومعاونة على إثم وعدوان، رضي الله عنهم، ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون، ولو كان الخطاب مع غيركم لهديناه إلي منقول، وألقينا له حجج المعقول والمنقول، لكن أنت

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط.الجزائر، 1983، ص54- ص55، ص56.

اليوم، والحمد لله، سيد المسلمين في تلك الأقطار، وشيخ السنة والجماعة الذي عليه المدار، أبقاكم الله بركة في البلاد، رحمة للعباد، آمين.

كتبت بتاريخ أوليات ذي الحجة الحرام سنة 1050.

موضوع رسالة يوسف باشا إلى الشيخ محمد ساسي البوني: وفي هذه الرسالة "أخبره فيها أنه كان عازما على الجهاد ضد الإسبان في وهران، ولكنه عدل عن ذلك لوقوع الثورة في شرق الجزائر لأن الحكمة لكما قال تقتضي تقديم الأهم على المهم وأنه قرر التوجه شخصيا إلى قسنطينة وبسكرة ونواحيهما لإخماد نيران الثورة وتفقد أحوال الرعية، وقد ركز الباشا على إبراز دور العلماء في مثل الظروف التي كانت تمر بها البلاد من وجوب طاعة أولي الأمر ونصح الرعية وتفادي الفتنة وذلك بالإشارة إلى حرب أبي أيوب الأنصاري تحت راية اليزيد... وبكون الدولة لا تقوم إلا على سنان الولاة ولسان العداة"[1].

وتعتبر هذه الرسالة غاية في الأهمية لأنها وببساطة تكشف عن الدور الكبير الذي كان يؤديه علماء الجزائر آنذاك ومكانتهم عند الولاة العثمانيين واستشارتهم لهم والاستنارة برأيهم.

[1] أبو القاسم سعدالله، تجارب في الأدب والرحلة، ص50.

الرسالة الثانية: من الشيخ محمد ساسي البوني إلى يوسف باشا

الحمد لله، مراسلة بعث بها العالم العلامة القطب الرباني سيدي محمد ساسي للمعظم أبي جمال السيد يوسف باشا يستشفع في أهل بلد بونة، وهذا لفظها:

الحمد لله الذي أجرى بين الكاف والنون الطافا، وجعل البرايا لسهام البلايا أهدافا فطوقهم تحمل أعباء صعوبتها فإذا (كذا) منهم أسود رجال لأستفزهم الآلام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها، حمدا سيتنزل رحمة تجلي عن القلوب أدران كؤوبها، وتتكشف غمة أشجان كروبها، فهو الذي لا يخلي عباده من صنع تنطوي عليه أثناء النكبات إذا طرقت بضروبها ولطف بهم يلين لهم صعوبات الخطوب إذا جمحت بغروبها والصلاة والسلام الأكملان الأتمان على من فتحت بذكره الدعوات وانكشفت بالصلاة عليه البلوات، فاستهلت شدائد صعوبها، سيدنا ومولانا محمد المالك زمام الهدى والتقى، والدال على ما هو خير وأبقى، الذي به إشراق شمس الانتظار بعد غروبها، وعلى آله وأصحابه مقاليد قصد أولي الضمير ومفاتيح نيل مطلوبها، ومناهج عزائم أولي الصبر ومفاتيح بلوغ مرغوبها.

هذا، وقد اختلس العبد هذه الكلمات، والله يعلم منه كيف الحال، هاربا بضعفه لنزول رحمته، وهبة عطفته، سبحانه الكبير المتعال، بأن يزيل ما ألم بنا من ألم، ما نتلقاه من أخبار عنكم تنسد لها المسامع، وترتح لها الأضالع، نسأل الله سرعة تبدلها بأنباء تقر بها العينان، وتلتذ بها الأذنان، وتنشرح بها الأذهان، الجناب الأرفع المرغوب له من الله تعالى تعجيل شمل مسرته بلا توان، وشمول نصرته بأقرب أوان، الصدر الشهير والقدر المنير العظم الأجل، محبنا لله ورسوله عز وجل، المطلوب منه له تيسير ما شاء، سيف الدين أبو الجمال يوسف باشا، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

موجبه إليكم، قد بلغ العبد ما أنفذه الله وقضاه، وقدره بحكمه في خلقه وأمضاه وألزمنا التمسك بعصمة الصبر، والتعوذ من الاعتراض عن مالك الأمر، وجعل فسحة لذوي الابتلاء، في التوسل بجاه صدوق الأنبياء، في سرعة الانقضاء فآه! ثم آه! أعيدها مترجعا متأسفا، وأرددها متوجعا متلهفا، ولتعلم، أعزكم الله أن كل شدة مآلها إلى الارتخاء، وأن كل غمة انتهاؤها إلى الانجلاء، وغاية كل متحرك إلى السكون، ونهاية كل متكون دنيا إلى أن لا يكون. وكم كربة أورثت خيرا وكم من شوكة أجتنيت ثمرا، وما المحن إلا سيل بليل، والسيل إذا وقف انصرف وإن بعد الكدر صفوا، كما أن عقب المطر صحوا، وكما أن الله ينزل قدره من حيث لا يرتقب، كذلك يرسل لطفه من حيث لا يحتسب[1]، والشمس بعد كشف نورها تستضاء والبدر أثر الخسوف يستزاد صفاء.

نعم، إن ما عليه العباد من التلوينات، إنما هي لأسمائه الحسنى مستظهرا، وهي منه إليهم تعريفات، فمن تعرف إليهم بأسمائه الجمالية الفضلية، فمقتضى الحق منهم الشكر، ومن تعرف إليهم بأسمائه الجلالية القهرية فمقتضاه منهم الصبر، نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن كمل فيهما بمشاهداته حتى لا يلتفت إلى سواه عند تنقيص مراداته بمنه وكرمه، آمين يا رب العالمين.

وهاهو العبد الفقير، ليس بناس لكم ودا، ولا بناكث عهدا، لا يزال سائلا لكم من الله قابل التوب، وغافر الذنب، تليين صعاب القلوب، وتسهيل الصعوب بجاه أكرم الوسائل، لكل سائل، تحصيل كل مطلوب، وبلوغ كل مرغوب، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي به الغنى عند كل محبوب، وأختمه مصليا عليه مسلما صلاة منجية من جميع الأهوال والآفات، مطهرة من جميع السيئات قاضية جميع الحاجات رافعة أعلى الدرجات مبلغة أقصى الغايات من جميع الخيرات، في الحياة وبعد الممات وعائدة عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلى كل من أضحى بحضرتكم أنيسا، وفي أرباب الصدور رئيسا، ممن تقدم له

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 56-57-58.

الكتب إليكم قبل هذا بمثله، العبد الفقير إلى مولاه الغني، محمد أساسي بن إبراهيم، وفقه الله بمنه، آمين آمين آمين.

موضوع رسالة محمد ساسي البوني إلى يوسف باشا: وهي الرسالة التي جاءت جوابا على رسالة يوسف باشا ومن خلالها "طلب الشيخ محمد ساسي العفو لأهل عنابة ونواحيها وأشار فيها إلى تأثره لما جرى من أحداث ومعاناة الباشا منه، ونصح الباشا بالصبر والثبات قائلا أن الرجال الأشداء لا تهزهم العواصف وأن ما بعد الشدة إلا الفرج، وأن ما عليه الناس من الخير والشر إنما هو مظهر من مظاهر وجود الله سبحانه وتعالى، ووعد محمد ساسي الباشا بأنه لا ينكث له عهدا ولا ينسى له ودا"[1]

وما يلاحظ على هذه الرسالة أنها تحتوي على الكثير من عبارات الشكر والمدح للباشا، كما يظهر عليها طابع الضعف أمام شدة الموقف، والخوف الشديد مما قد يحدث.

[1] أبو القاسم سعدالله، تجارب في الأدب والرحلة، ص50.

الرسالة الثالثة: من يوسف باشا أيضا إلى الشيخ محمد ساسي البوني

وهذا جواب المعظم يوسف باشا:

الدوحة التي طابت[1] فروعها وأصولها، والنبعة التي زكت أجناسها وفصولها والسيادة التي أسست على قواعد الولاية مبانيها، والمجادة التي طابقت مناهج الاستقامة ألفاظها ومعانيها، سيادة الولي الصالح البركة العارف بالله المسارع في مرضات (كذا) الله، أبي عبد الله سيدي محمد ساسي، أدام الله بركته، وأعلى في مدارج الإكمال رتبته، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، عن الخير والعافية والتماس صالح دعوات أمثالكم من أولياء الله بتضرعات صادقة، وقلوب صافية، والسؤال عنكم وعن أحوالكم، يسر الله لنا ولكم أسباب السعادات وبلغنا وإياكم من مرضاته جمع المرادات.

هذا، وقد انتهى إلينا كتابكم البهي، وخطابكم الشهي، وما احتوى عليه من طلب العفو ممن ظلم، والتجاوز عمن أساء واجترم، فلتعلم رضي الله عنكم، أن العامة لا تعرف حقائق المذاهب، ولا تنظر عواقب المثالب والتجارب، وقد علم من كلام الحكماء وأمثال العلماء: مكن موضع رجليك قبل مشيك، وتأمل عاقبة فعلك قبل سعيك، فإن من استضاف الأسد قراه أظفاره، ومن حارب الدهر أراه اقتداره، ومنازعة الملوك تسلم النعم، وتوجب لصاحبها فضيع (كذا) النقم، ولا يخفاكم ما أساوء (كذا) به من فضول الكلام، الموجب الشنيع الملام، لأن من قال ما لا ينبغي، سمع ما لا يشتهي ومن فعل ما شاء، لقي ما ساء، وقد استوجبوا بفعلهم ذلك الأدب الشنيع، والتعزير الفضيع (كذا)، لولا مراقبة الله تعالى في وجوهكم.

فالآن الأمر هو ما شفهناكم به من ترك ما تركناه، وتأخير ما أخرنا، والواجب عليكم رضي الله عنكم، أن تكون أحوالنا منكم ببال، وأن لا تدعونا في زوايا الإهمال، وأن لا تنسوا أمة نبيكم، صلى الله عليه وسلم، من دعاء الخير في الخلوات، وأعقاب الصلوات والتعريف

[1] أبو القاسم سعدالله، تجارب في الأدب والرحلة، ص58-59-60.

بما يجب عليكم من حقوق السلطان، وأن طاعته من طاعة الرسول وطاعة الرحمان، فإليكم، معشر أهل العلم، يتوجه هذا الفرض بالخصوص وأنتم أجدر بما فيه من مقيس مستنبط ومنصوص، والدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، والله الموفق لما فيه رضاه، لا رب غيره ولا معبود سواه.

كتبت بتاريخ أوليات صفر الخير، سنة 1051.

موضوع رسالة يوسف باشا إلى محمد ساسي البوني: وقد جاءت أيضا كرد على رسالة محمد ساسي البوني السابقة "وبعد أن خاطب الباشا محمد ساسي بألقاب الإطراء العلمية والصوفية أشار إلى أن العامة قد تفسر العفو عنها بالضعف لأنها لا تعرف حقائق المذاهب، ولا تنظر العواقب، ثم إنهم قد أساؤوا إلى السلطة والنظام في البلاد بتمردهم فاستحقوا العقاب الشديد وغير أنه، مع ذلك سيعفو عنهم تقديرا للشيخ محمد ساسي ولكن الباشا لم يؤخر الجهاد في وهران إلا للقيام بإعادة النظام في البلاد والقضاء على الفتنة"[1]

ويعتبر هذا تصرفا حكيما من يوسف باشا، ويتم أيضا عن احترام كبير وتقدير يكنها للشيخ محمد ساسي البوني ولعلماء عنابة، الجزائر بصفة عامة وعليه "فعلى محمد ساسي وأمثاله من العلماء والمرابطين أن يقوموا بدورهم نحو الباشا ونحو الأمة الإسلامية، لأن طاعة السلطان من طاعة الله والرسول"[2].

[1] أبو القاسم سعدالله، تجارب في الأدب والرحلة، ص50، 51.

[2] المرجع نفسه، ص 51.

الرسالة الرابعة: من محمد بكداش إلى أحمد بن قاسم البوني

أقر الله تعالى بطلتكم السنية العيون، وزادكم علما إلى علمكم الفاخر المصون، وأشرق أشعة شموس الولاية، على جدران خيامكم حين تريحون وحين تسرحون، وزادكم معنى فائقا إلى معناكم وقربكم من حضرتكم القدسية وأدناكم وجعلكم في رياض محبته تمرحون وغذاكم بغذاء منحة معرفته وألبسكم من جلال فضله ورعايته، وأهلكم لمحبته وولايته، وجعلكم في خان حضرته تنعمون، أعني بذلك قدوة أرباب الكمالات، حاوي رتب العز والمجد والسعادات، مولانا المحب الأمثل، الأعز الأكمل، نهج الأفاضل وروضة الأماثل، كنز العلوم السنية وجوهرة الألفاظ الذهبية، جمال الإسلام، عمدة الأنام، شمس سماء الكمال وبدر سناء الجمال، مولانا وسيدنا ووسيلتنا إلى ربنا الأمجد الأنجد، يتيمة الدهر وفريدة العصر الشيخ الحاج أحمد:

أحبتنا نلتم من الفضل رتبة ... وكم كلت الأحبار، والله دونها
فما ذاك إلا من كريم تفضلا ... وكم طمع الألباب أن يدركونها (كذا)
فجودوا إذا ما الليل أرض سدوله ... بهمتكم نصما لنا تبذلونها
لعل إله العرش جل جلاله ... سيد خلنا في رتبة تحمدونها

هذا وإن محبتكم في قلوبنا رسخت، وشموسها في أفكارنا بزغت، والحب جددته والسوى (كذا) نسخته، وما ذلك إلا من حسن تحسينا فيكم الظنون والله يعلم وأنتم بذا تعلمون، فلعمري إن حمدت أوصافكم وحسن سيرتكم وإنصافكم وأعجبني حسنكم وأعطافكم، مما حزتموه أصلا عن نهج أسلافكم العارفين الأولياء/الأتقياء العلماء العاملين، وإن وقع منا قصور في مدح شأنكم وتقصير في خدمتكم ورعايتكم فبظلكم قولوا مقالة يوسف الصديق يوم الوصل والتحقيق: لا تثريب عليكم يغفر الله لكم، فلا عجب إن كان الجود وصفكم وشيمتكم، والعلم مهمتك وسجيتكم، فعلى الأصول تبنى القواعد اللطيفة، وبقدر الهمم ترتقي المنازل

المنيفة، فأنتم وأيم الله دار العلم والولاية، والمنزلة الشامخة والرعاية، أخذتم نهج القوم عن أسلافكم، فصار الحسن من بعض أوصافكم:

فإن قيل لي من ذا الذي قد وصفته أقول دعوني هو ذا الخل أحمد
ونجل لقطب قد تحقق مجده أبو القاسم لازال، والله يحمد
عليه سلام من محب وعاشق سلام كريم كل حين يجدد

السلام عليكم، سيدي، ما اختلف الملوان، وتعاقب الجديدان، عبقري الشذا بمسك وكافور وروح وريحان، وما طلعت الشمس وما غربت، وما تمايلت الغصون وما اعتدلت يخص ذاتكم البهية، ويعم من لاذ بشريف جنابكم والأهل والذرية، ثم السلام التام المتحوف بالمبرة والإكرام، على النجل الأوحد، والهلال الفرقد، سيدي التومي محمد ثم السلام الزكي العبقري الهني، على الكوكب الدري، والمنهل الروي، سيدي علي وعلى جميع أهلكم وعيالكم ومن لاذ بجنابكم وتعلق بشريف أذيالكم، صانهم الله وأعزهم عزا راجع (كذا) وجعلهم من بعدكم خلفا صالح (كذا).

أما بعد، سيدي، لو زائد بحمد رب البرية سوى السؤال عن ذاتكم السنية وأحوالكم الراضية المرضية، أجراها الله تعالى على نهج السنة النبوية، فلقد بلغنا كتابكم الموفق، بحسن ألفاظ خطابكم المشرف، فأنستنا محاسن ألفاظه وأطربتنا معاني ألحاظه، فأخذناه بالقبول والرضى، وذكرنا عهدا قديما مضى.

أحـــن إلـــى تلـــك المرابـــع كلمـــا يهـــب نســـيم الشـــرق والقبـــل شـــائق
علـــيكم ســـلام والتحيـــة والرضـــى وروح وريحـــان وعنبـــر عـــابق
فلمـــا رأينـــا خطكـــم وخطـــابكم وعلمـــا أذعـــتم بـــالمبرة لائـــق
تأججـت الأشـواق واضـطرب الهـوى ومـن ذاك صـار القلـب بالوجـد خـافق

فأنتم الأحبة على الدوام، وأنتم محل الجود والفضل والإكرام.

ثم لا يخفاكم، يا نعم السادات الأجلة، والشموس التي أخجلت الأهلة، أننا لما اطلعنا على حب الجميع أخونا الحاج قاسم على تقييد ما من الله تعالى به عليكم من التواليف، فحمدنا الله تعالى بحسن الثناء وشكرناه بالحس والمعنى، وأريناه ببعض الفحول، فتلقوه بالرضا والقبول، نسأل الله تعالى أن يزيدكم من مواهبه السنية، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خير البرية.

ولقد بلغنا ما تفضل به مجدكم من الفخار، فجازاكم الله خيرا وشكر فظلكم وقبل سعيكم وزادكم فخارا على فخار، فما نحن إلا طالب لدعواتكم، وراغب إلى مرضاتكم وكذلك الأهل والعيال كلهم يسلمون عليكم بأتم السلام وأعمه.

كتبه الفقير إلى الله تعالى، عبدكم الأصغر، ومحبكم الأكبر، محمد بكداش تاب الله عليه ولطف به بمنه وكرمه.

في جمادى الأخيرة سنة 1115هـ.

موضوع رسالة محمد بكداش إلى أحمد بن قاسم البوني: بعث بها محمد بكداش عندما كان ما يزال مسؤولا على خبز الجيش إلى أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني وقد أشاد بكداش بأحمد البوني وعائلته في العلم والولاية وأخبره أن رسائله تصل إليه، وأنه مازال على العهد، وأنه مسرور بما أنجزه الشيخ من التآليف الكثيرة التي فرح بها أيضا أهل الأدب والعلم في مدينة الجزائر حين اطلعوا عليها"[1]

وفي هذه الرسالة دليل آخر على أن الحكام الأتراك أمثال محمد بكداش يكنون الاحترام والتقدير لعلماء الجزائر ويطلبون منهم دائما المساعدة وإسداء النصائح لهم، وقد أخبره في رسالة بأنه "يطلب منه النصح والدعاء وتبليغ السلام له ولأهله ولمن يلوذ به"[2]

وإذا ما جئنا إلى وضع مقارنة هذه الرسالة بالرسائل التي سبقها فنحن نلاحظ أنه ليس لها موضوع سياسي محدد، وماهي إلا واحدة من الكثير من الرسائل التي دارت بين الرجلين.

[1] أبو القاسم سعدالله، تجارب في الأدب والرحلة، ص51

[2] المرجع نفسه، ص 51.

نماذج من الرسائل الإخوانية

الرسالة الأولى: من محمد بن محمد القالي إلى محمد بكداش

«جل الله تعالى مالك الملك، ومقيم قسطاس العدل بما أراده من إعزاز السادات الترك. جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الحنيف، وآثرهم بهذا الملك الكبير وهذا العز المنيف، وشرفهم بما وهبهم من الرتب العالية، وهم أصل للرفعة والتشريف، وخصهم بمكارم الأخلاق ونزاهة الأقدار، وجعلهم بهذا القطر رحمة للعباد، وأخمد بشوكتهم نار الفتنة والعناد، فسلكت بهم السبل وأمنت بهم البلاد، لطفا منه سبحانه بهذه الأقطار، نسأل الله أن يبقي جنابهم السعيد عاليا على كل جناب، وأن يخلد الملك فيهم على مرور الدهور وانقضاء الأعمار.

وبعد فإن الله تعالى من على المسلمين بسيدنا ومولانا سلطان الملوك والأكابر المخصوص بأفضل الشمائل والمآثر، الإمام العدل، السلطان الفاضل، العالم العامل، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، الذي أطلعه الله في سماء الجلالة بدرا، ورفع له في درجات الأمراء قدرا، وأجرى له على ألسنة الخلق ثناء جميلا وذكرا، فأصبح الدين مبتهجا بكريم دولته وجناب الكفر مهتظما بعظيم صولته، مولانا وسيدنا محمد خوجة الدولاتلي* أبقى الله تعالى أيامه، وأصحب بالنصر والتمكين ألويته وأعلامه، وهو نصره الله أجل من أستعين به فكان خير معين، وأعطى مفاتيح فتلقاها باليمين، وأفضل من إمتثل قوله صلى الله عليه وسلم: من فرج على أخيه المؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عليه كربة من كرب الآخرة، إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، حسبما أحاط به علم مولانا، نصره الله، من مروي ومنقول».[1]

موضوع الرسالة: "جمع فيها محمد بن محمد القالي بين الشعر والنثر، وعبر بكليهما ليصل إلى قلب محمد بكداش ويشكو إليه حاله، ومدح الباشا بأنه من أكبر السلاطين كما مدح في

* الدولاتي: كلمة تركية تفي صاحب القوة والنفوذ، تطلق على رؤساء الأتراك وذوي الرتب العالية.

[1] أبو القاسم سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص196-197.

شخصه حكم الترك وأشاد بأصلهم ونوه بفضلهم على الدين والقطر الجزائري أيضا، ولعل هذا الموقف هو الذي جعل الباشا يخصص له خراجا من أوقاف سبل الخيرات العثمانية بالجزائر ليعالج به داء النكبات"[1]

كان هذا باختصار فحوى رسالة محمد بن محمد القالي والتي ابتدأها يمدح الباشا والدعاء له ولدولته "وأخيرا تخلص إلى غرضه وهو طلب الإعانة والعطايا"[2]

وقد جاءت عبارات القالي سهلة واضحة، ويظهر على أسلوبه التأثير السياسي والديني، فإذا نظرنا إلى الألقاب وأوصاف الملك نجد القالي متأثرا بالجو السياسي للعصر رغم أن الباشا لم يكن سلطانا هكذا... أما التأثر الديني فيظهر من عبارات الأدعية والتضمين التي وردت في نص الرسالة"[3].

لقد اتخذ بعض الباشاوات كتابا عربيا لهم فأمثال "محمد بكداش"، ولكن ما عرف على الإدارة العثمانية هو استخدام اللغة التركية في العلامات الرسمية وهو ما أضر باللغة العربية، ضررا شديدا كان سببا في قلة الرسائل الديوانية العربية.

[1] أبو القاسم سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص196.

[2] نفسه، ص187.

[3] نفسه، ص187 ص198.

الرسالة الثانية: رسالة عبد الكريم بن فكون إلى شهاب الدين أبي العباس أحمد المقري

وقد جاء في نص الرسالة: "بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على من أنزل عليه في القرآن ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وآله وصحبه وسلم أفضل التسليم من مدنس الإزار المتسربل بسرابيل الخطايا والأوزار، الراجي للتنصل منه رحمة العزيز الغفار عبد الله عبد الكريم بن محمد بن الفكون أصلح الله بالتقوى حاله، وبلغه من متابعة السنة النبوية أصالة إلى الشيخ الشهير الصدر التحرير ذي الفهم الثاقب ولحفظ العزيز، الأحب في الله، المؤاخي من أجله سيدي أبي العباس أحمد المقري أحمد الله عاقبتي وعاقبته، وأسبل على الجميع عافيته، أما بعد فإني أحمد الله إليك وأصلي على نبيه سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، ولا أريد إلا صالح الدعاء، وطلبه منكم، وإني أحوج الناس إليه وأشدهم في ظني إلحاحا عليه، بما تحققت من أحوال نفسي الأمارة، واستنبطت دخيلاتها المثابرة على حب الدنيا الغرارة، كأنها عميت على الأهوال التي أشابت رؤوس الأطفال وقطعت أعناق كمال الرجال، فتراها في لج هواها خائضة، وفي ميدان شهواتها راكضة طغت في غيها وما لانت، وجمجمت فما انقادت، ولا استقامت، فويلي ثم ويلي من يوم تبرز فيه القبائح، وتنشر الفضائح، ومنادي العدل قائم بين العالمين، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفا بنا حاسبين، فالله أسأل حسن الإلطاف، والستر كما ارتكبناه من التعدي والإسراف وأن يجعلنا من أهل الحمى العظيم، ومن يحشر تحت لواء خلافته الكريمة، سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤوف الرحيم، ولنكف من القلم عنانه، لما أرجو من أجله ثواب الله سبحانه، وقد اتصل بيدي جوابكم، أطال الله في العلم بقاءكم، فرأيت من عذوبة ألفاظهم وبلاغة خطابكم ما يذهل العلماء فحولها، ونيلها لدى سماعه الطاعة والاجتهاد فاترا، وأصدق قول فيه عند مخبره ومرآه، أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه لكن يجازيكم المولى بحسن النية، البلوغ في بحبوحة الجنان غاية الأمنية وقد ذيلتم ذلك بأبيات أنا أقل من أن أوصف بمثلها، على أني غير قائم بفرضها ونقلها، فالله تعالى يمدكم بمعونته ويجعلكم من أهل مناجاته في حضرته،

ويسقينا من كاسات القرب ما نتمتع منه بلذيذ منادمته، وقد ساعد البنان الجنان في إجابتكم بوزنها وقافيتها، والعذر لي أنني لست من أهل هذا الشأن والاعتراف بأنني جبان، وأي جبان، والكمال لكم في الرضا والقبول، والكريم يعضي من عورات الأحمق الجهول، وطننا حققه الله تعالى أن نجعل على منظومتكم الكلامية، يعني "إضاءة الأجنة تقييدا"، أرجو من الله توفيقا وتسديدا بحسب قدري لا على قدركم، وعلى مثل فكري، القاصر لا على عظيم ذكركم، وإن ساعد الأوان، وقضى بتسييره رب الزمان، فآتي به إن شاء الله، الآجل معين لأنني بالأشواق إلى حضرة راكب البراق، ومخترق السبع الطباق، وكنت عازما أن أبعث لكم من الأبيات أكثر من الواقع، إلا أن الرفقة أعجلت، وصادفتني أيام موت قعيدة البيت، فلم يتيسر عاجلا إلا ما ذكر، وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

يـــا نخبـــة الـــدهر فـــي الدرايـــة ... علمـــــا تعاضـــــده الروايـــــة
لازلـــــت بحـــــرا بكـــــل فـــــن ... يـــــروي بـــــه الطـــــالبون غايـــــة
لقـــد تصـــــدرت فـــي المعـــاني ... كمـــا تعاليـــت فـــي العنايـــة
مـــن فيـــك تنـــتظم المعـــاني ... بلغـــت فـــي حســـنها النهايـــة
رقـــاك مـــولاك كـــل مرقـــي ... تحـــوي بـــه القـــرب والولايـــة
أعجوبـــة مـــا لهـــا نظيـــر ... فـــي الحفـــظ والفهـــم والهدايـــة
يـــا أحمـــد المقـــري دامـــت ... بشـــراك تصـــحبها الرعايـــة
بجـــاه خيـــر العبـــاد طـــرا ... والآل والصـــــحب والنقايـــــة
صـــلى عليـــه الإلـــه تتـــرى ... تكفـــي بهـــا الشـــر والغوايـــة

وأختم كتابي بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب بغاية عجلة يوم السبت سابع أو ثامن رجب من عام ثمانية وثلاثين ألف للهجرة على صاحبها الصلاة والسلام"[1]

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص308-309، 310.

الرسالة الثالثة: رسالة تاج العارفين إلى الفكون

وكتب رسالة يخاطب بها الشيخ سيدي عبد الكريم فكون، نصها:

"الحمد لله الذي أطلع شمس الطلعة الفكونية من الأفق الغربي ويا عجبا من طلوعها أمانا للعالم. وجمع فيها ما افترق من أشتات العلوم في كل تحرير عالم. وأزاح بها سحب الأشكال، وأراح بها من سحب الجهالة المخدرة لوجوه المعاني والأشكال، وقيدها شوارد العلوم، وقرن بها على طريقة التحقيق بين المنطوق والمفهوم.

أحمده حمد من رغب الله في استصواب الصواب، وأشكره شكر من علم أن شكره سبحانه، هو غاية المرغوب والثواب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد محقق في إيمانه، مخلص في عرفانه وإيقانه، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله الذي أوتي من الكلم جوامعه، وعمر به من كل سئل (كذا) صوامعه وجوامعه، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله أولي الجد والتحقيق، وأصحابه خير صحب وأكرم فريق، ماذر شارق وشرق غارب، وسكب هاطل وهطل ساكب.

وبعد، فسلام يسابق النسيم، ويجاري برقته نفاسة النسيم، يصافح الروض فيكسب من نشره ويفاوح الأزهار فلا تجد أزكى من نشره، يسترق العنبر من عبيره، ويسترق المسك لفوته عنه في كثرة الشم وتكريره كما قلت:

أهـــــدى إليـــــك ســـــلاما يفـــــاوح النـــــد نشـــــره
يلقـــــاك مـــــن كـــــل فـــــج إذ تلقـــــــــاك بشـــــــــره

أهديه إلى السيد الفقيه العالم العلم النزيه، التحرير المتقن الوجيه من لنا إلى حبه ركون، سيدي عبد الكريم الفكون، كان الله له في الحركات والسكون. هذا واعلم أيها الصديق الحميم، أذاقنا الله وإياك برد الرضى والتسليم، إني رفقته والخجل في الوجنات يبدي حمرته والوجل يظهر تارة صفرته في منزل به خيال المخال أسأل (كذا) الله أن يجعل الإسعاد بها لا

من المحال. وقد تفاءلنا باسمه جابر، وقد طال منه مشربه الرائق الزاهر، منزل جبر الله به القلوب، ويسر كل مرغوب ومطلوب، من إصلاح الله سبحانه وتعالى بين عباده، ورد سيف المعاند والمكائد في إغماده.

وموجبه أوجب الله لكم السعادة، وسير لكم أسباب الحسن وزيادة إن السيد الفقيه المشارك الوجيه، سيدي أبي العباس أحمد بن الحاجة، جعل الله حسناته في أسواق القبول رائجة، هو ومن معه من السادات والفقهاء الأعيان شنفوا أسماع الفقير، بما لا يسعه وقع لسان القلم وإملائه على الطرس والسطير، من محاسن أخباركم التي تراءت لنا منهم بكل وجه جميل، وكرروا علينا عائدها في البردين والمقبل، وقد قلت في ذلك:

شغفت بكم لما تشنف مسمعي وعشق الفتى بالسمع مرتبة أخرى

لا جرم كاتبناكم وأيدي الأشواق تتلقف حبات القلوب، وقد شب عمرها عن الطوق وكفى أن علم ذلك علام الغيوب، وأعلمكم أني لا أنساكم من الدعاء كما أطلب ذلك منكم، لاسيما بإصلاح الدعاء بظاهر الغيب مستجاب، والحابب في الله في هذا الزمان الصعب من العجب العجاب، ولا تنسانا من مكاتباتكم مع الواردين كما أنها ترد إليكم منا مع الصادرين.

سقاكم الله رحيق الود في كاسات الإخلاص، وأورد صحائفكم مبيضة الوجوه مع زمرة صحائف الإخلاص، ومن معنا من الجماعة وهم سيدي محمد العامري...العبد العاجز الفقير المذنب الجاني محمد تاج العارفين"[1]

بتاريخ أوائل قعدة الحرام من عام 1037.

[1] أبو القاسم سعدالله، شيخ الإسلام عبدالكريم الفكون داعية السلفية، ص198-200.

الرسالة الرابعة: رسالة الفكون إلى تاج العارفين

"الحمد لله

أشرف من تشرف آل عثمان نورا يتلألأ، وأولى على القاصي والداني من سحائب غيثها سحا يتوالى، فأحيى بها البلاد، وأنعم على العباد يمينا وشمالا، وجملها بجمال، أدان له كل جمال إلا من اكتسى منه جمالا، وكملها من علا الكمال ما إظمحل به كمال، إلا ما أنالته نوالا وإفضالا، فأثمرت من سنا ثمارها ما جعل للدين تاجا، وللمعارف معراجا، وللمكارم بحرا لجاجا، واكتسى ثوب العز جلالة وإجلالا فجمع من أزهار الأدب وورد الفقه وشقائق الكلام ونسرين الحكمة وعظا وأمثالا. فلله درها من نخبة انتخبت أوصاف المعالي، فحلت من خلالها الرائقة الجواهر واللآلئ، ما استغنى به أهل القطر حالا ومآلا، فسبحان من سنا به بدرا في أفق الكمال عم نوره، وفشا سؤدده (كذا) وظهوره، وأوضح ما كان من الشبل إغفالا، وفتح من العويص أقفالا، أحمده سبحانه وتعالى، وأشكره شكرا أستزيد به نعما وافرة، واستدفع به مكرا ووبالا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جل جلاله أن يكتسب من مدح الخلق جلالا، وأشهد أن سيدنا محمدا –صلى الله عليه وسلم– عبده ورسوله أعلا (كذا) الخلق كمالا، وأفصحهم لسانا وأصدقهم مقالا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أكرم بهم صحبا وآلا، وسلم عليه وعليهم ووالى.

أما بعد، فهذه تحية حلا نحرها، وغلا طيبها وعطرها، أهديت إلى محل اللوذعي النبيه، العالم العلامة الوجيه، تحرير زمانه، وتاج وقته وأوانه من آثار من وهج الحب لله ما كان في القلب دفين، سيدي محمد تاج العارفين:

أهـــــدي إليـــــك تحيـــــة أزكـــــى مـــــن الـــــورد رائـــــح
تلقـــــاك فـــــي كـــــل نـــــادي وأنـــــت غـــــاد ورائـــــح

هذا وقد وصلني من عائد صلتك ما أحيى موات الأفكار، وجلا مرآت (كذا) الصدر من أغيار الأغيار، فنهض إذ ذاك لسان الشكر وما وفى ونآ (كذا)، وإن لم أقض ما وجب، خفت على نفسي العنا (كذا)، فترنم وقال، لما سحب ذيل المقال/... وتلاشى مهرجان غدوها

ورواحها، إلا نفثه مصدور، تحركت لريا نشرها المنشور، ولولا طعن عوالي العذال لاستشعرت ثوب الجبن في معرك النزال، ولتصاممت عند مقارع الأبطال وحيثما كانت دعواهم نزال نزال، اللهم إلا رسائل تستكشف عمياء الحال، وتعود إلى الموصول بعائد السؤال، وخالص الدعاء الصالح بالتوفيق في الأقوال والأفعال.

وقد آن أن أبدي لكم ما كتمه الضمير من لوعة الشوق إلى نادي الجمع والاجتماع والانتعاش بتلكم الربوع التي علمت ومباني السمع والأسماع، حتى إذا هبت نسائم الوصل من جانب محاسن تلك الديار، وتنعمت نغمات رنات أوتار الأسطار، الكاشفة عن مخدرات بنات الأفكار، وكشف محياها من هو أهل لحمل من استوى عليه من الأسرار، من الأحباء لله الأخيار، لا جرم إن زال قذا الحدقة ووافق شن طبقة أبدا (كذا) اللسان، ما رمقه البنان، وإن كنت لست من فرسان هذا الشأن، وممن يقعقع له بالشنان، فبادر مغتنما وتنضا مجيبا ومسلما، مع السؤال الأتم عليكم، وعلى من لاذ بكم، وصالح الدعاء وجلبه مع الوصاية بما هو معهود مني لكل محب متباعدا ودنا براقبة المولى سرا وعلانية، والوقوف ببابه تعالى رغبة ورهبانية، مع ادخار صالح الأعمال ليوم الافتقار، والوقوف بين يدي الملك الجبار، الذي لا تخفاه خافية، فما أعظم مصيبة من كان عمله عليه لاله، وما أشد حسرة من انسلخ من حلل هديه إلى سرابيل سعيه التي جعت (كذا) جزاه ووباله، فيا لها من رزية ما أشنعها ومن بلية ما أدهاها وما أفضعها (كذا) ونداء الحق ينادي ﴿اليوم تجزون بما كنتم تعملون أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ جعلنا الله وإياكم ممن تلقاه المولى بالرضى والرضوان، ومتعه بالنظر إلى وجهه الجميل في بحبوحة الجنان، في كل وقت وأوان.

ولنكف العنانم، لما سأذكره لكم الآن، وهو إنما (كذا) أتحفتموه من در نظامكم، المسفرة من فصاحة خطابكم، احتوى على أن سبب الإتحاف هو ما شنف مسامعكم من سني الأوصاف فحذار حذار، هذه لفتة قرار، بلى أنا ممن في أثواب الزور أتقلب، وكم من حليم غره مني

برقي الخلب فصفاتي لا تسلم سلعتها من الغش، ولا يحصل نفقاتها إلا برذيلة النجش وهلا إذا كان السبب اقتناص الأخوة بالنية، والصالحة التي يرجحن أن تكون صفتها في العقبا (كذا) رابحة فنية، المرء أبلغ من عمله، ولا عليه من إصلاح المواخي أو خلله. وقد كان بيني وبين صهركم الشيخ الصالح سيدي أبي الغيث، وإن كان هو يكتب بالغيث فله فيه وجه أدبي وحرى رحمه الله وغفر له، وبلغه من سني الدرجات ما أمله، من الإخاء لله والمحبة فيه ما أرجو (كذا) أن تكون بها في القيامة من الفائزين، وأن تنزلنا المنزلة العليا في عليين، وأن نكون بها فما يراء الأهل بجنة كالدون الحار في الأفق، جسما ورد عن سيد المرسلين – صلى الله عليه وسلم– إلى يوم الدين.

ولعلك تصغر ولا تشعر، بما كان بين جدكم سيدي أبي بكر وبين الوالد من تكرار الود بالمراسلات، والحث من الجانبين على صالح الدعاء في الخلوات والجلوات. فوصلت الآن من انقطع بموت الجد واستصرم، والبادي أكرم. وحمدت الله لكم على ما أحييته برسالتكم من دارس الرفات، وما ذللتم بخطابكم من حزن الموات خصوصا في زمن طلع فيه نجم الأشرار، وأفلت نيران الأبرار، وكسدت أسواق العلماء الأخيار، فالتسليم لله الواحد القهار.

جعلنا الله وإياكم ممن حملته على بساط القرب والعناية، وتوج في الدارين بتاج أهل الحب والولاية، وسقانا من كأس الصفا ما شربه أهل الصدق والوفا والهداية، وسلم لنا على السادة الفقهاء الأخيار الذين هم فلان وفلان (وهم الذين ذكر أسماءهم في رسالته المذكورة)، وأطلب لي منهم صالح الدعاء ونحن لا ننسى جميعكم من إخلاص الدعاء والتعريف، والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق. وأختم الكتاب بالصلاة والسلام على أفضل من أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وآله والأصحاب. انتهى"[1]

[1] أبو القاسم سعدالله، شيخ الإسلام عبدالكريم الفكون داعية السلفية، ص200– ص205.

الرسالة الخامسة: رسالة ابن هطال التلمساني (رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري عام 1785)

وقد جاء في الرسالة:

"أعلم أنه لما أصبح يوم الاثنين عازما على ما أراده، قاصدا لما يكمل مراده وكان مصاحبا له في هذه المحلة قرة ناظره، وعضد ساعده، صاحب الفخر والامتنان جامع شتات الفضل والإحسان، وارث مجده ابنه السيد عثمان، فأمره أن يقوم بأمور المحلة ويسير بها رائدا في غير عجلة، فأقام يومه ذلك وبالغدار تحل، ونزل السيد عبد الرحمان ومنه نزل القطيعة، وأقام بها لكثرة الأمطار، وشدة الوحل، وارتحل من القطيعة ومر بالبيضاء، فأمر الناس أن يسقوا دوابهم ويأخذوا الماء لأنفسهم ففعلوا، ثم جاوزها ونزل بمكان قريب منها، ثم ارتحل ونزل الحليات وبالغد ارتحل فنزل "مركانة" على يمين واد "سبقات" بنسبة الذاهب بجهة القبلة ولما غشيهم الليل طمع بعض أعراب تلك الجهة في معرفة "المحلة" فاختفت جماعة منهم وصاروا يحتالون على كيفية الوصول إلى الإبل أو غيرها في دواب "المحلة" فإذا ببعض الترك كشفوهم وحاربوهم فأصابوا واحدا منهم فقتلوه قطعوا رأسه وأتوا به لصاحب "المحلة" السيد عثمان بن سيدنا، فأعطاهم دراهم وشكرهمُ ثم ارتحل منه ونزل الخير، فاجتمعت المحلتان، وإلتفتا الفريقان فكان يوم عيد وعند كل واحد فرح جديد.

واشتد البرد في هذه الدار ونزل من الثلج ما كانت الناس أن مثل هذا ذلك لو يقع في الصحو لتسويتهم بين سهلها وجبالها، مع أن هذا الجبل ذو برد شديد وهو مرتفع جدا، ومياهه كثيرة، فما كان له شبه بجبال التل هو أشد بردا منها في بعض الأوقات، ولما رآه قد كثر، ولم ينقطع خاف منه على الإبل فارتحل وسار أربع ساعات ونزل "قصر أوفل"، فتركه ذات الشمال، ونزل جهته الغربية، وعندما نزلت "المحلة" قصدت القوم هذا القصر لأجل الشعير والقمح وغير ذلك، فوجدوا أهله هربوا منه ولم يتركوا شيئا ظاهرا فبحثوا في أماكنه الخفية فبعضهم أصاب، والبعض خاب، وفي هذه الدار قدمت عليه طوائف العرب مثل

"أولاد صالح" و"أولاد يعقوب" القبالة "أولاد يعقوب" الغرابة وغيرهم وكلهم أتوا "بالقادة" طالبين الأمان لأنفسهم متحملين لما فرض عليهم، فجعل على كل قبيلة منهم شيئا معلومات من الإبل والخيل وأمنهم، ورفع عنهم ما هم فيه من الخوف والويل"[1]

[1] أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح: محمد بن عبدالكريم الجزائري، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص43- 45.نقلا عن: فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص255-256،

أسماء لبعض الشخصيات التي كتبت واهتمت بفن الرسالة خلال العهد العثماني

- **يوسف باشا:** "تولى حكم الجزائر عدة مرات بين سنوات 1044و1064، ومن الأسباب التي كانت تؤدي به إلى الصعود تارة والسقوط تارة أخرى طبيعة الحكم العثماني في الجزائر الذي كان قائما على العنف والغلبة وتأييد أو سخط الانكشارية، ومن جهة أخرى واجه يوسف باشا ثورة عظيمة كادت تعصف بالنظام العثماني كله، ولاسيما في شرق الجزائر، وهي الثورة المعروفة بثورة ابن الصخري، وقد كانت هذه الثورة من أسباب المكاتبة بين يوسف باشا ومحمد ساسي البوني[1].

- أما الشخصية الثانية الواردة في الرسائل فهو:

- **محمد بن إبراهيم ساسي البوني:** "كان مرابطا وعالما بارزا في غابة خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر (17م) وقد تحدث عنه معاصره عبد الكريم الفكون القسنطيني في كتابه (منشور الهداية) واتهمه بالمبالغة في التصوف باستعمال الحضرة وإنشاء الأشعار والرقص الصوتي بالآلات الموسيقية"[2].

ونظرا لعلو منزلة العلامة محمد ساسي البوني والذي يظهر جليا من خلال اهتمام الباشاوات به وعلى رأسهم (يوسف باشا) فقد كان محل اهتمام الكثيرين وانتقاداتهم وخاصة الفكون حيث اتهمه بأنه "كان يأخذ أموال الناس بالباطل ويفرض ضريبة على فقراء الأندلسيين، ومهما كان الأمر فإن محمد ساسي كان له صيت في زمانه في عنابة ونواحيها، وله مؤلفات معظمها في علم التصوف تحدث عنها حفيده أحمد البوني، وكان محمد ساسي أيضا كثير الشعر، وتشهد رسالته إلى يوسف باشا بأنه كان أيضا أديبا منشئا.

- **محمد بكداش:** يعتبر من باشاوات الجزائر المثقفين الذين ينظمون الشعر بالعربية ويخطب بها وقد "تولى حكم الجزائر سنة 1118هـ، وبقي حوالي أربع سنوات ثم قتل على يد خصومه، وقد امتازت سيرته بعدة أمور جديرة بالذكر، من ذلك أن في عهده استرجعت

[1] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 46-47.

[2] نفسه، ص 48.

وهران من إسبانيا وكان قائد الحملة هو "أوزن حسن"، صهر محمد بكداش مع الباي مصطفى بوشلاغم"[1].

4- أحمد البوني: ويعتبر أحد أكبر العلماء الجزائريين آنذاك "وقد ولد سنة 1063 وتوفي سنة 1139، وترك أكثر من مائة تأليف جمعها في رسالة سماها (التعريف بما للفقير من التأليف) وكتب في كل العلوم تقريبا من طب وفقه ونحو وتاريخ ورحلة، وكان البوني قد درس في عنابة وتونس ومصر والحجاز، ومن شيوخه يحيى الشاوي وبركات بن باديس، وقد ذكر عددا آخر منهم في إجازته لابن أحمد الزروق، وفيهم المغاربة والمشارقة"[2].

- **عبد الكريم الفكون:** هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحيى الفكون، ولد في قسنطينة سنة 988هـ/1580م، كان والده أحد كبار المدرسين عندئذ، ومن أشهر الطرق الصوفية آنذاك الطريقة الزروقية (نسبة إلى الشيخ أحمد زروق المتوفي سنة 899هـ/ وكانت الحياة السياسية لا تؤذن بالاستقرار، لكن أسرة الفكون ساهمت في حفظ التوازن وسعت للعافية والصالح العام وكان أبوه سببا في حفظه للقرآن الكريم وفي تعلمه، أما شيوخه فهم: يحيى الأوراسي، سليمان القشي، عبد العزيز النفاتي، محمد الفاسي المغربي، محمد ابن راشد الزواوي، محمد التواتي المغربي، داهمه مرض خطير لم يجد له علاجا ولم يعرف له سببا توفي أثره سنة 1073هـ/1662.[3]

---

[1] نفسه، ص 48.

[2] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 49.

[3] ينظر: أبو القاسم سعد الله، الشيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص 57-58-60-61-62-68 ومنشور الهداية، ص 7.

نماذج عن المراسلات الجزائرية الإسبانية

الرسالة الأولى: من الداي محمد عثمان باشا إلى الملك الإسباني كارلوس الثالث

رسالة ود وصداقة من محمد عثمان باشا داي الجزائر ووالیها إلى صدیقه الكبیر حضرة صاحب الجلالة دون كارلوس ملك إسبانیا العظیم.

بعد إهداء السلام وإجراء مراسیم التحیة والصداقة والثناء وتوجیه السؤال للاستفسار عن الحال والأحوال كما یجب ویلیق بالمقام الرفیع والمنصب الخطیر أقول: أیها الصدیق الكبیر إذا قادتكم روابط الصداقة والوداد القائمة بیننا إلى التوجه نحونا للسؤال عنا وعن أحوالنا فنحن والحمد لله في صحة تامة وعافیة مستقرة. أیها الصدیق الكبیر إن الرسالة التي تفضلتم بإرسالها هذه المرة قد وصلت إلینا، وسرتنا الأخبار السارة التي تضمنتها، والتي توضحت لنا بعد قراءتها بكل تفاصیلها، وأننا نطمنكم بأن بحارتنا (قراصنتنا) لن یخرجوا إلى الغزو في البحر لمدة ثلاثة أشهر ابتداء من یوم 09محرم حتى 10ربیع الآخر* وفقنا الله عمیقا إلى طریق الخیر والسداد".[1]

في یوم 20 ذو الحجة 1199هـ

* من عام 1200هـ لـ12نوفمبر 1785 إلى 10فیفري1786.

[1] یحیى بوعزیز، المراسلات الجزائریة الإسبانیة في أرشیف التاریخ الوطني لمدرید (1780–1798م)، دیوان المطبوعات الجامعیة، الجزائر، د.ط، 1993، ص55– ص56.

الرسالة الثانية: من حسن وكيل الحرج إلى الوزير الأول الإسباني

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله.

من عبد الله سبحانه المتوكل على الله في جميع أموره حسان وكيل الحرج الله وليه ومولاه. إلى كبير جنسه وعظيم قومه ذات الإكرام ومعدن الجود والإحسان، وزير سلطان أصبينيه والهند الكندر أفلرد أبلنك*[1]

السلام على من اتبع الهدى أما بعد فقد وصلنا كتابكم وقرأناه وفهمنا ما فيه وحمدنا الله على محبتكم وقد فرحنا بكتابكم غاية، وقد وصلنا مع الكتب مع الكندر سبيي*[2] جميع سعه (كذا) مكانة كثر الله خيركم وشكر إحسانكم وترى يصلكم مع لسندر بزلين*[3] حاجة هدية منا إليكم تبق تقبلها منا على وجه المحبة والصحبة وليس هي لقدركم ولكن ما هنا حاجة تليق بكم، وكما لا يخفاكم وقفنا في إمرت (كذا) تونس الذي أمرتم خدمكم الكندد سبلي ومزلنا (كذا) واقفين على ذلك حتى يقضى إن شاء الله كما تنبغي وترضى، ونحب من الله ومن جزاء فضلكم أن تكافؤ الشندر*[4] لوجهنا على قدر ما هو صحبنا، وكذلك نحن واقفين وحاضرين في إقبال القادم إلينا من جهة برطكالي*[5] نحن نقبله ونفرح به غاية إن شاء الله، وترى الكندي دي سبلي قادم لحضرتكم بشروط الصلح التي علمنهم (كذا) على شهوت (كذا) سلطنك دون كرلس*[6] ونحن وقفنا غاية الوقف في حاجتكم كما لا يخفاكم خبرنا والسلام.

عن إذن محبكم ومحب الخير إليكم عبد ربه حسان وكيل الحرج الله وليه ومولاه.[7]

من تاريخ 21 شعبان 1199هـ

الموافق لـ:29 جوان 1785م.

---

*[1] الكوندي دي فلوريدا بلانكا رئيس وزراء إسبانيا.

*[2] الكوندي دي سبيي مفاوض إسباني بالجزائر.

*[3] أليكساندر بازلين أحد وسطاء ومفاوضي إسبانيا في الجزائر.

*[4] أليكساندر بازلين أحد وسطاء ومفاوضي إسبانيا في الجزائر.

*[5] البرتغال.

*[6] دون كارلوس الثالث ملك إسبانيا.

[7] يحيى بوعزيز، المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780-1798م)، ص57-58.

الرسالة الثالثة: السيد علي آغة إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا

الحمد لله وحده لا شريك له

إلى حضرة محبنا ومعاهدنا ومصالحنا سيد أقرانه صاحب الرأي السديد والعمر المديد صاحب السياسة والرياسة الكندي دو فلوريدا بلانكا حفظه الله السلام عليك على مر الأيام والليالي وعدد الشهور والأعوام.

أما بعد فالذي أخبرك به بأننا قبلنا الصلح معكم وصرنا معكم حال واحد، وأنتم أصدقاء معنا وفرحنا بهذا القونصل لأنه رجل عاقل صادق في كلامه فلا رأينا رجلا مثله في الصدق والأمان وقضى. جميع أشغالكم على حسن مرادكم، فدفع المال بالوفاء والتمام ولم يكسر قلب واحد من أرباب الدولة وأخذ بخطر الناس على حسن مرادنا والذي لم يعطيه الكندي أولا فهذا القونصل أعطاه والذي نقص له الكندي كمل له هذا القونصل على الوفاء والتمام وذلك من كمال عقله وحسن تدبيره وفرحنا به غاية الفرح وجعله مولانا السيد محمد باشا نصره الله بشدور *[1] يقدم عليكم مع الهدية باشكاش إليكم وإن كان شيئا قليلا بالنسبة إليكم فأقبلوا ذلك على وجه المحبة ويرجع هذا القونصل إلينا مع العجلة إن شاء الله بعد قضاء حوائجه معكم، وخلصنا في جميع المال وفي فدية النصارى على الوفاء والتمام، ولم يبق (كذا) لنا قبلكم شيء سوى المحبة والمودة، والسلام.

ممن كتب عن إذنه المعظم السيد علي آغة أيده الله بتاريخ ذي الحجة في الأواخر 1201*[2].

---

[1]* أي سفسر، ويقصد به هنا رسول مبعوث

* الموافق لأوائل أكتوبر 1787م.

[2] يحيى بوعزيز، المراسلات الجزائرية الإسبانية، ص131.

نماذج عن قصص الكرامات

1/ إبراهيم بن يخلف المطاطي التنسي:

ومن كراماته ما ذكره الحفناوي في كتابه (تعريف الخلف برجال السلف)، قال: "وله كرامات كثيرة منها ما حدث به ابن القطان عنه أنه قال لما دخلت إلى مكة وطفت بالبيت ذكرت قوله تعالى: "ومن دخله كا آمنا" فقلت في نفسي تعارضت الأقوال واختلفوا في معنى الأمن فصرت أكرر وأقول ءامنا ءامنا مماذا فسمعت صوتا خلف ظهري ءامنا من النار يا إبراهيم ثلاث مرات أو مرتين"[1].

2/ أحمد بن معمر البجاءي:

ومن كراماته ما ذكره الحفناوي، قال: "فإنه ذات يوم أتى الشيخ أبا مدين فقال له أردت الفقر إلى الله أما ترى واحدا يبلغني فقال لم أر لك مثل الشيخ عبد القادر في بغداد فذهب إليه فلما وصله قال أردت الفقر إلى الله فأدخله الخلوة يمكث أربعة وعشرين يوما فدخل عليه الشيخ عبد القادر فقال ما أردت فقال أردت الفقر إلى الله فقال عليك بكذا وكذا فقال له هو هذا كله أعرفه من الكتاب والسنة فقال ما تريد فقال أريد أن تدخل يد قلبك لقلبي قال فنظر في نظرة فإمتحق قلبي من حينه ثم قال أنظر الكعبة فنظرت الطائفين بها ثم قال لي أنظر إلى المغرب فنظرت شيخي في المغرب ثم إنه قال لي أتريد مكة أم المغرب فقلت شيخي في المغرب فقال لي في خطوة أو كما جئت قلت كما جئتت فأغناني بتلك النظرة دنيا وأخرى أنفق فيهما"[2].

[1] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص15.

[2] نفسه، ص80.

3/ سيدي يحيى العيدلي:

من كراماته ما ذكره الحفناوي، حيث قال: " لما بنى مسجده المعلوم اختلفوا في القبلة فلما اختلفوا فيها قال الشيخ سيدي يحيى لجبل فوق قريته انخفض فانخفض فتبينت لهم الكعبة ورءاها كل من كان هناك"[1].

ومنها: أن الشيخ سيدي التواتي بعث بعض طلبته لسيدي يحيى ليرسل له من الزيت لأن بلد الشيخ بلد الزيتون إلى الآن فبعث الشيخ سيدي يحيى للطلبة معزا أي عددا منه وقال لهم سوقوا المعز من غير كلام لحد حتى تصلوا للشيخ فلما وصلوا أثناء الطريق بأن وصلوا سوق الثلاثاء ببني هارون وجدوا بعض إخوانهم من الطلبة فسألوهم عن الخبر وقالوا بعث معنا عددا من المعز وغفلوا عن وصية الشيخ رضي الله عنه فلما ذهبوا بذلك المعز وجدوها جلودا من زيت فسقطت عليهم الكلفة وحملوها جلودا وكذلك إلى أن وصلوا إلى بجاية إلى الشيخ فأخبروه القصة وقال لهم لو سلكتم لوصلوا كذلك ثم يرجعون زيتا فلما خالفتم وقع بكم ما وقع من الكلفة"[2].

4/ سيدي أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي:

من كراماته ما ذكره ابن مريم في مؤلفه (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان): "حدثنا الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهان الأوسي بابن المرأة قال أتيت من مدينة مرسية زائرا عمة لي بتلمسان فما سرني شيء كوجودها حية وتطوفت يوما بتلمسان فرأيت هذا الشيخ بالسوق وبيده طبق من عود وهو فيه الحلواء للصبيان الصغار فتفرست فيه مخائل القوم فاتبعته فإذا من يمر به من الصبيان ينقرون له في أكفهم فيدور ويشطح وربما أنشد مقطعان متفقان الألفاظ في معنى المحبة فلم أشكك أنه من الصالحين ثم

[1] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص586.

[2] نفسه، ص586.

أخذ شيئا من ثمن حلوائه فاشترى به كسرة خبز سميد فتصدق بها على يثيم ذي أطمار بعد علمه بحاجته فقلت في نفسي هذا ولي مور عن مقامه يبيع الحلواء وكان ذلك برمضان فلما جاء الفطر ابتعت سميدا وعسلا وقلت لعمتي اصنعي لي مشهدة يفطرها عندي رجل من الصالحين ففعلت فالتمسته في الناس بعد صلاة العيد فلم أجد فحوقلت وقلت في نفسي اللهم بحقه عليك اجمع بيني وبينه في هذه الساعة فإذا هو عن يميني فانضم إلي وقال صنعت عمتك المشهدة فقلت نعم يا سيدي فقال قم بنا إلى موضع نأكل هذه المشهدة الحاضرة وحينئذ نمشي إلى دار عمتك فقمت معه إلى خارج الشريعة (المصلى) فأخرج من تحته صحيفة مغطاة بمنديل نظيف وكشطة فإذا هو فيه مشهدة لم ير الراوون مثلها ولا طيبتها امرأة في الدنيا من إحكام طبخ وجودة صنعة وكثرة أدام فأكلنا وتوجهنا إلى دار عمتي فأخرجت مشهدتها فوجدناها لم تشبه الأولى بشيء فأكلنا منها قليلا"[1]

5/ سيدي شعيب بن الحسن الأندلسي:

من كراماته ما ذكره ابن مريم: "أن رجلا جاءه ليعترض عليه فجلس في الحلقة فأخذ صاحب الدولة في القراءة فقال له أبو مدين أمهل قليلا ثم التفت للرجل وقال له لم جئت فقال لأقتبس من نورك فقال له من الذي في كمك فقال له مصحف فقال له افتحه وإقرأ في أول سطر يخرج لك ففتحه وقرأ أول سطر فإذا فيه الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فقال له أبو مدين أما يكفيك هذا فاعترف الرجل وتاب وصلح حاله"[2]

ومنها: "مر شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب فرأى أسدا افترس حمارا وهو يأكله وصاحبه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة فجاء أبو مدين وأخذ بناصية الأسد فقال له الشيخ أمسك الأسد واذهب به واستعمله في الخدمة في موضع حمارك فقال له يا سيدي

[1] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص68-69.

[2] نفسه، ص 111.

أخاف منه فقال لا تخف لا يستطيع أن يؤذيك فمر الرجل بالأسد يقوده والناس ينظرون إليه فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ وقال يا سيدي هذا الأسد يتبعني أينما ذهبت وأنا شديد الخوف منه لا طاقة لي بعشرته فقال الشيخ للأسد اذهب ولا تعد ومتى آذيتم بني آدم سلطتهم عليكم"[1]

-ومن مشهور كراماته: " أنه كان ماشيا يوما على الساحل فأسره العدو وجعلوه في سفينة فيها جماعة من أسرى المسلمين فلما استقر في السفينة توقفت عن السير ولم تتحرك من مكانها مع قوة الريح ومساعدتها وأيقن الروم أنهم لا يقدرون على السير فقال بعضهم انزلوا هذا المسلم فإنه قسيس ولعله من أصحاب السرائر عند الله تعالى فأشاروا له بالنزول فقال لا أفعل إلا إن أطلقتم جميع من في السفينة من الأسارى فلما رأوا أن لابد لهم من ذلك أنزلوهم كلهم وسارت السفينة في الحال"[2].

6/ سيدي محمد بن عمر الهواري:

من كرامته ما ذكره "الآغا بن عودة المزاري" في مؤلفه (طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر) قال: "أن السلطان أبا فارس عزوز بن السلطان أبي العباس أحمد الحفصي الملك العادل الذي قال فيه ابن عرفة إنه كعمر بن عبد العزيز بحسب الزمان قد زحف من تونس بجنود عظام لتلمسان لأمر له فيه حق فرغبة ملكها أحمد العاقل بواسطة الشيخ أبي علي الحسن أبركان بن مخلوف المزيلي الراشدي دفين تلمسان فبعث خديمه للشيخ الهواري في كف أبي فارس فقال الهواري مالي وللملوك ولما اشتدت الرغبة والإلحاح دعا عليه وقد نزل آخر رمضان من سنة سبع وثلاثين وثمان مائة بفج السدر حذو جبل ونسريس فمات فجأة ضحوة عيد الفطر فانتظره الناس

[1] الشريف المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 111-112.

[2] نفسه، ص 112.

لصلاة العيد حتى خشوا خروج وقتها فذهب ابنه للسرادق والفساطيط فوجده ميتا فجعله في محفة وانقلب إلى تونس وأخفى أمره"[1].

7/ الشيخ أحمد بن يوسف الملياني:

من كرامته ما ذكره الآغا بن عودة المزاري أيضا حين قال: "أنه أخبر بإمارة الأمير محمد علي تلمسان قبل أن يكون فكان كما قال"[2].

-ومنها: "أن الشيخ علي الندرومي كان (كذا) له منزلة في الولاية، وتأتيه الناس فاعترض عليه الشيخ فسلب، قال الشيخ يحيى بن علي المغراوي القاطن بمسراته شاهدت الرجل تضحك منه العامة"[3]

-ومنها: "ما حدث به محمد ابن الهواري المسراتي أن الشيخ كان بكرشتل قبل أخذ النصارى وهران فإذا بعروج التركي رسى سفينته بالقرب منه وكان مع عروج رجل مراكشي شجاع فقال لعروج سربنا نتبرك بهذا الشيخ فقال عروج إن خرج على ما في ضيري فذهبا وسلما على الشيخ فقال لعروج أنت عزمت على الغدر بأصحابك فقبل رجل الشيخ فقال المراكشي قل لعروج يطلقني فسرحه ودعا له وقال إن أصابك هول في البحر فقل يا أحمد بن يوسف فأغيثك"[4].

---

[1] الآغا بن عودة المزاري،طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ص70.

[2] نفسه، ص75.

[3] نفسه، ص75.

[4] نفسه، ص75-76.

8/الشيخ سيدي عبدالرحمان الثعالبي

يذكر عبد الرزاق قوم في كتابه (عبد الرحمان الثعالبي والتصوف) أن من كراماته "أنه زاره ذات يوم الولي الشهير (سيدي أحمد بن عودة الوهراني) المشهور بترويض الأسود على ما ترويه الأسطورة، وعندما مثل الزائر أمام الثعالبي سأله: أين أترك أسدي؟ فأجابه الثعالبي: أتركه مع بقرتي، ففعل الرجل وعندما دخل إلى خلوة الشيخ وجد حسانا يؤديان له الزيارة هذه، فتعجب الزائر من هذا التصرف وثمن له أنه كان في المدينة بدل الجبال حتى يحظى بمثل هذه الزيارات وفهم الثعالبي ما يدور بخلد الزائر فنزع عليه ظنونه بقوله: إن العبادة في القلوب وليس بين الجبال أو المدينة... وحين قفل الزائر عائدا إلى بلاده ففتش عن أسده ولكن دهشته كانت كبيرة حين وجد أسده قد ابتلعته بقرة الشيخ الثعالبي"[1]

[1] قسوم عبد الرزاق، عبد الرحمان الثعالبي والتصوف، سلسلة الدراسات الكبرى، الشركة الجزائرية، للنشر والتوزيع، د.ت.د.ط، ص17. نقلا عن: حرحيرة مداني، الرمزية الصوفية في الأزمات الاجتماعية (الكرامات وتمثلاتها في المغرب الأوسط (ق10هـ/ق14هـ)، مخطوط رسالة ماجستير في الفلسفة، جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية الجزائر 2013/2012، ص131،

الملخصات

- أولا: باللغة العربية.

- ثانيا: باللغة الانجليزية.

- ثالثا: باللغة الفرنسية.

أولا: باللغة العربية

كان اهتمام العثمانيين بالحركة الثقافية والعلمية قليلا إذا ما قارناه بمجالات أخرى كالسياسة مثلا، ويرجع السبب في ذلك إلى انشغالهم بالجانب العسكري كثيرا، غير أن الملاحظ أيضا هو قلة إنشاء مراكز التعليم من كتاتيب وزوايا رغم ما لتلك المراكز التعليمية من دور كبير في نشر المعارف وخاصة العلوم الشرعية إضافة إلى تدريس النحو والصرف وبعض العلوم الأخرى.

أما من الجانب الأدبي فقد برزت بعض الأسماء وتنوعت مجالات كتابتها بين من يكتب فنا نثريا كالرسالة مثلا ومن ينظم شعرا، ولو أن أغلبهم أهمل وضاع منا كما ضاعت أعمالهم.

وإذا جئنا لفن الرسالة فقد برزت الكثير من الأسماء واشتهرت في هذا النوع من الفنون النثرية وتناولوا من خلاله مواضيع عدة عبرت عن تجاربهم ومواقفهم وظروف بيئتهم وثقافتهم المختلفة.

ومن المواضيع التي تم تداولها آنذاك في الرسائل الديوانية نأخذ مثلا الإشادة بفضل العلماء واحترامهم من طرف الحكام الأتراك لما لهم من فضل كبير في توعية الناس وإسداء النصائح القيمة.

ونجد أيضا موضوع الوفاء بالعهود التي تبعث الطمأنينة في نفوس الطرفين، وكذا وجوب طاعة ولي الأمر وتفقد هذا الأخير لأحوال رعيته.

أما الرسائل الإخوانية فقد تعددت موضوعاتها أيضا من مدح وثناء بين الطرفين، وإبداء لمشاعر الشوق والحنين نظرا للعلاقة الطيبة التي كانت تجمع بينهما.

هذا عن الرسائل، أما الكرامات فقد تنوعت المواضيع فيها أيضا وكانت كثيرة جدا يصعب حصرها في هذا الملخص ولعل أبرزها:

كرامة إرشاد البشر إلى ما يخدم مصالحهم وإبعادهم عما يضرهم، إضافة إلى تكليم الموتى ومعرفة الجن من الإنس، وكذا إجابة الدعاء للأولياء الصالحين، وإغاثة المحتاج، والقدرة أيضا على التنبؤ بالمستقبل وغيرها من الكرامات الأخرى والتي أبانت عن قدرة كبيرة للأولياء الصالحين وعن إيمان الناس الكبير بهم.

هذا عن الموضوعات، أما الخصائص الفنية فقد اشتركت الرسائل وقصص الكرامات في مجملها وإن اختلفت الأمثلة لكل منهما، فقد كان لكل فن هيكلته الخاصة (البنية) من استفتاح، متن، وخاتمة، إضافة إلى الخصائص الأسلوبية المتمثلة في المستوى الصوتي والحضور القوي للمحسنات البديعية، والمستوى التركيبي، وكذا التصوير الفني الذي احتوى على صور بلاغية شهيرة كالتشبيه والاستعارة، والصورة الحسية التي كان لها حضور في كل من الرسالة والكرامة.

وما ميز أيضا الفنين النثريين التوظيف القوي للمعجم القرآني الذي زاد النصوص قوة وإقناعا، وأثرى التجربة الإبداعية شكلا ومضمونا.

ثانيا : باللغة الانجليزية

summeray

The concern of the Ottomans about the cultural and scientific movement was weak, compared to other areas such as politics, for example because of their concern for the military aspect, but it is also noted the lack of creation educational centers in Katib and Zawaya, despite the fact that these educational centers play a major role in spreading knowledge, in addition to teaching grammar, grammar and other sciences. Regarding the literary aspect, some names have emerged and the fields of writing have varied in those who write a genre of poetry such as the letter and who organizes poetry, although most of them are overlooked and lost of us in the same way as their works

If we come to the art of the letter, many names have emerged and become famous in this kind of artistic prose and addressed through several topics that have expressed their experiences and attitudes as well as the conditions of their environment and their culture. Among the topics that were circulated at the time in Diwaniya's letters, we cite the example of praise from scientists and respect for Turkish leaders, as they have a great benefit for educating people and providing precious advices. We also find the subject of fulfilling promises that reassure both parties, as well as the obligation to obey the guardian and inspect the guardian to know the conditions of his flock. With regard to the messages of the fraternity also varied his subjects of praise and praise between the parties, and to express the feelings of nostalgia and nostalgia because of the good relationship that was between them,

These are messages, but they also have various topics and are too numerous to be limited in this summary, including: And the ability to predict the future and other dignities, which shows the great ability of the righteous parents and the faith of their greats. The artistic characters of the letters and the stories of the dignitaries were common, although the examples differ: each art had its own structure of openness, of advice and of conclusion, as well as the stylistic characteristics of the vocal level, the strong presence of virtuous virtues , the level as well as the artistic photography, which contains images of popular rhetoric such as metaphor and metaphor, as well as the sensory image present both in the message and in the dignity. What also distinguished the prose technicians was the strong recruitment of the Qur'anic dictionary, which increased the texts of strength and persuasion and enriched the creative experience of form and substance.

ثالثا : باللغة الفرنسية

résume

La préoccupation des Ottomans sur le mouvement culturel et scientifique etait faible, si on la compare à d'autres domaines tels que la politique, par exemple en raison de leur préoccupation pour l'aspect militaire, mais il est également noté l'absence de création de centres éducatifs de Katib et de Zawaya, malgré le fait que ces centres éducatifs jouent un rôle majeur dans la diffusion du savoir, En plus d'enseigner la grammaire, la grammaire et d'autres sciences.

En ce qui concerne l'aspect littéraire, certains noms ont émergé et les domaines de l'écriture ont varié chez ceux qui écrivent un genre de poésie tel que la lettre et qui organise la poésie, bien que la plupart d'entre eux soient négligés et perdus de nous au même titre que leurs œuvres. Si nous en venons à l'art de la lettre, de nombreux noms sont apparus et sont devenus célèbres dans ce genre de prose artistique et abordés à travers plusieurs sujets qui ont exprimé leurs expériences et attitudes ainsi que les conditions de leur environnement et de leur culture. Parmi les sujets qui ont été diffusés à l'époque dans les lettres de Diwaniya, nous citons l'exemple des éloges faits par les scientifiques et du respect des dirigeants turcs, car ils ont un grand avantage pour l'éducation des gens et fournissent de précieux conseils. Nous trouvons également le sujet de la réalisation des promesses qui rassurent les deux parties, ainsi que de l'obligation d'obéir au tuteur et d'inspecter ce dernier pour connaître les conditions de son troupeau.

En ce qui concerne les messages de la Fraternité a également varié ses sujets de louange et de louange entre les parties, et d'exprimer les sentiments de nostalgie et de nostalgie en raison de la bonne relation qui était entre eux, Il s'agit des messages, mais les dignitaires ont aussi des sujets variés et étaient trop nombreux pour être limités dans ce résumé, notamment: Et la capacité de prédire l'avenir et d'autres dignités, ce qui montre la grande capacité des parents justes et la foi de leurs grands . Les caractères artistiques des lettres et les récits des dignitaires étaient communs, bien que les exemples diffèrent: chaque art avait sa propre structure d'ouverture, de conseil et de conclusion, ainsi que les caractéristiques stylistiques du e la photographie artistique, qui contient des images de rhétorique populaire niveau vocal, la forte présence des vertus vertueuses, le niveau Ainsi qu telles que métaphore et métaphore, ainsi que l'image sensorielle présente à la fois dans le message et dans la dignité. Ce qui a également distingué les techniciens en prose, c'est le fort recrutement du dictionnaire coranique, qui augmentait les textes de force et de persuasion et enrichissait l'expérience créative de la forme et du fond

فهرس الموضوعات

العنوان	الصفحة
مقدمة	أ- و
مدخل: في الأدب الجزائري على العهد العثماني	**8**
أولا: السياق التاريخي للوجود العثماني في الجزائر	**9**
ثانيا: الحياة السياسية والثقافية في الجزائر العثمانية	**11**
ثالثا: التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني	**25**
رابعا: الكرامة والنص العجائبي	**31**
خامسا: الرسالة والنص الواقعي المألوف	**35**
الفصل الأول: الرسائل وموضوعاتها	**38**
أولا: في مفهوم الترسل	**43**
1- تعريف الرسالة	**45**
2- نشأة وتطور أدب الرسائل	**49**
3- الرسالة والخطابة	**51**
ثانيا: أنواع الرسائل	**52**
1- أدب الرسائل في الجزائر العثمانية	**55**
2- أنواع الرسائل	**56**
أ/ ديوانية	**57**
ب/ اخوانية	**58**
3- أنواع الرسائل في الجزائر خلال العهد العثماني	**60**
ثالثا: موضوعات الرسائل في النثر الجزائري على العهد العثماني	**62**
1 موضوعات الرسائل الديوانية	**65**
2 موضوعات الرسائل الاخوانية	**74**
الفصل الثاني: الخصائص الفنية للرسالة	**82**
1-أولا:الشكل الفني للرسالة (بنية الرسالة)	**84**

1 العناصر الثابتة	**85**
2 العناصر المتغيرة	**89**
1- ثانيا: الخصائص الأسلوبية للرسالة	**90**
المستوى الصوتي	**90**
المستوى المعجمي والتركيبي	**93**
المستوى الدلالي (التصوير الفني)	**95**
الفصل الثالث: قصص الكرامات وموضوعاتها	**119**
أولا: في مفهوم الكرامة	**121**
1–تعريف الكرامات	**124**
2– الفرق بين الكرامة والمعجزة	**126**
3– أسباب وقوع الكرامة	**127**
4- حقائق كرامات أولياء المغرب الأوسط (الجزائر)	**127**
5- أقسام الكرامة	**127**
6- فوائد الكرامات	**128**
7- ضوابط الكرامة	**129**
8- الأشخاص الذين تظهر على أيديهم الخوارق	**129**
9- آراء مختلفة حول الكرامة	**130**
ثانيا: نشأة الكرامة وتطورها	**131**
1–عوامل ظهورها	**131**
2– الكرامة بين الحقيقة والأسطورة والحكاية الشعبية	**134**
ثالثا: موضوعات الكرامة في النثر الجزائري على العهد العثماني	**137**
الفصل الرابع: الخصائص الفنية للكرامات	**153**
أولا: بنية الكرامة	**157**
1- الاستهلال	**158**
2- المتن (العرض)	**161**

3- الزمن الحكائي	**164**
4- الشخصيات الحكائية	**166**
5- الخرجة (النهاية)	**169**
ثانيا: الخصائص الأسلوبية لقصص الكرامات	**174**
1- المستوى الصوتي	**175**
2- المستوى المعجمي والتركيبي	**178**
3- المستوى الدلالي (التصوير الفني)	**183**
خاتمة	**202**
قائمة المصادر والمراجع	**207**
الملاحق	**217**
نماذج عن الرسائل الديوانية	**218**
نماذج عن الرسائل الاخوانية	**230**
أسماء لبعض الشخصيات التي كتبت واهتمت بفن الرسالة خلال العهد العثماني	**242**
نماذج عن المراسلات الجزائرية الاسبانية	**245**
نماذج عن قصص الكرامات	**249**
الملخصات	**256**
أولا/ باللغة العربية	**257**
ثانيا/ باللغة الانجليزية	**259**
ثالثا/ باللغة الفرنسية	**260**
فهرس الموضوعات	**261**